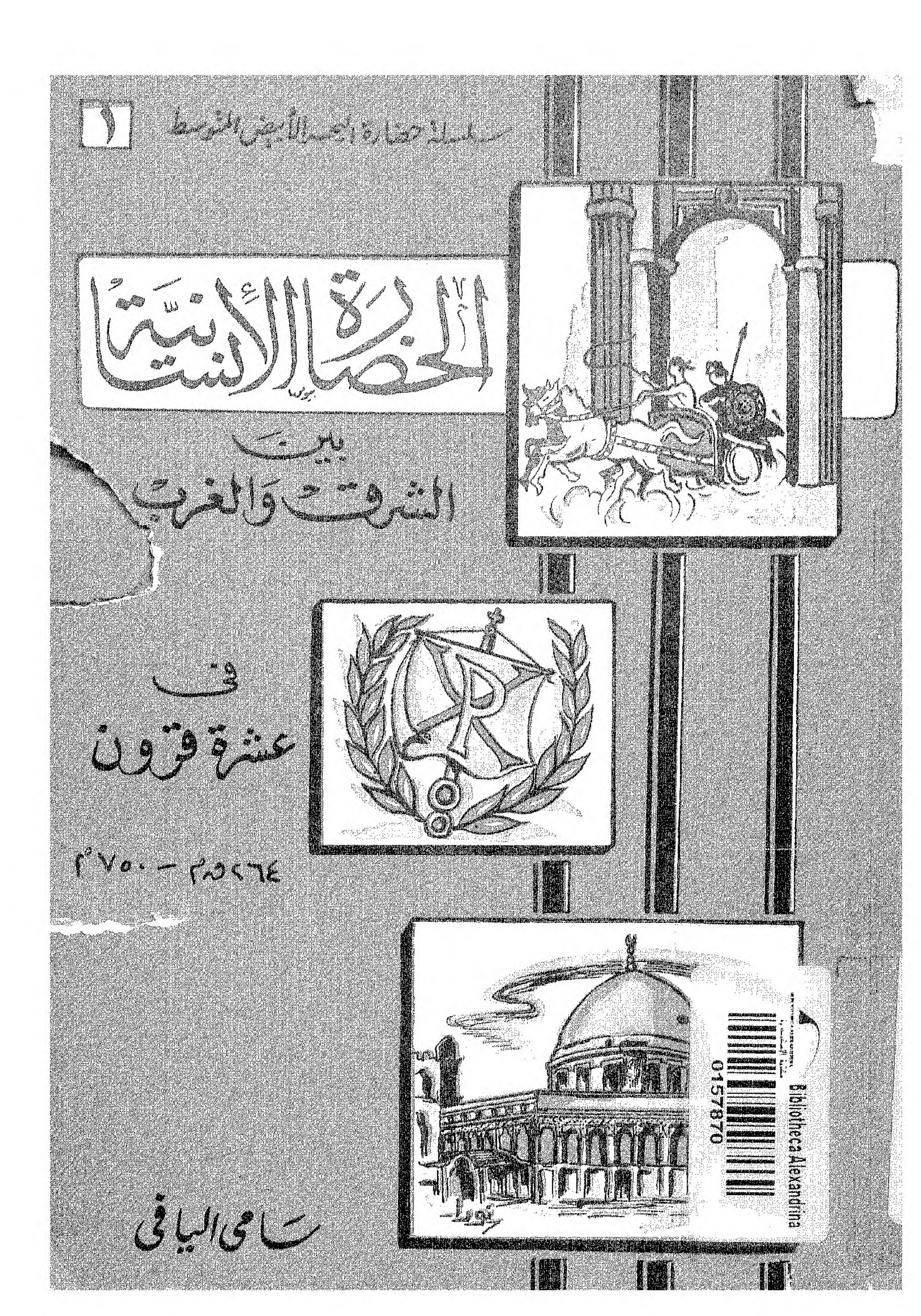

سلسلة حضارة البحر الأبيض المتوسط
١
الحضارة الإنسانية
بين
الشرق والغرب
في
عشرة قرون
٢٦٤ ق.م - ٧٥٠م
سامي اليافي
Bibliotheca Alexandrina
0157870

الى استاذى الدكتور
عبد العزيز رهام
مع خالص شكرى
سامى سعيد اليافى
٦٤/١٢/١٨

سلسلة حضارة البحر المتوسط
(١)

الحضارة الإنسانية

بين الشرق والغرب فى عشرة قرون

(٢٦٤ ق م - ٧٥٠ م)

الأستاذ الدكتور
عبد العزيز رهام
رئيس قسم اللغة العربية
والأدب
الاسكندرية

سامى اليافى

دبلوم الدراسات العليا من جامعة القاهرة
ومن معهد جامعة الدو

طبع بمطبعة العالم العربى
٢٦ شارع الظاهر - القاهرة
ت : ٤٤٧٠٦

إهـــداء

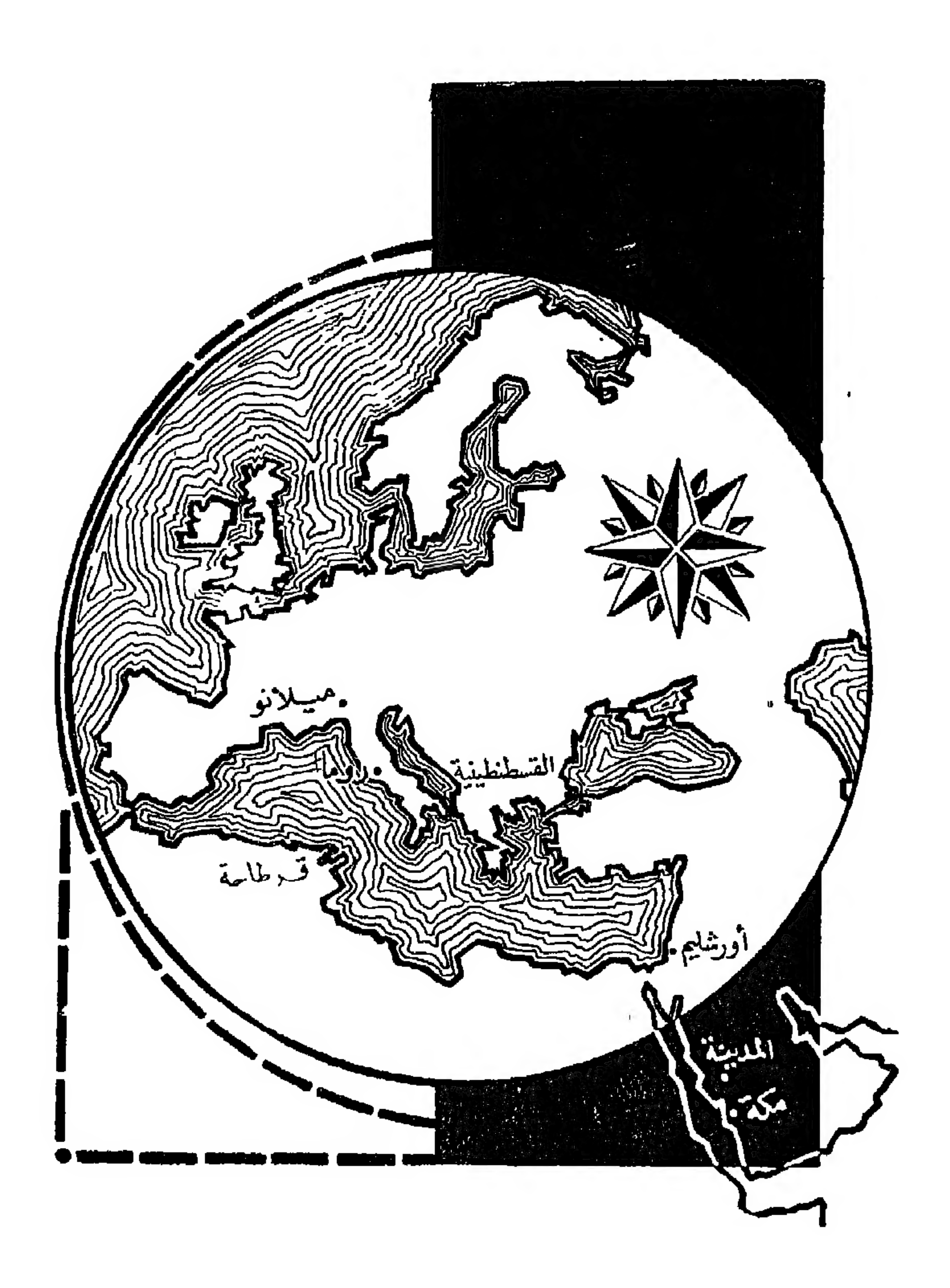
الى ذلك الانســـان الوقور الذى شرده الظـلم ، ففاضت روحه الكريمـة فى أرض غير أرض الوطن الحبيب ،

الى والدى ،

الى اخوان كرام ذاقوا مثـله وحشة الاغتراب ومرارة التشتيت فى مشارق الأرض ومغاربها ،

أهدى هذا البحث ؟

س٠ ى٠


ميلانو
روما
القسطنطينية
قرطاجة
أورشليم
المدينة
مكة

مقدمة

« إعرف نفسك »

حكمة ذهبية ، كانت منقوشة على معبد « دلفى » ، فى بلاد اليونان ، ما إن قرأها سقراط حتى شعر بفيض من النور يغمر بصيرته ، وإذا به يصمم على أن يكون هذا الشعار نبراسا لحياته وقاعدة لتفكيره وفلسفته . ويشهد التاريخ على صدق عزمه، فقد كانت حياته نبيلة جميلة وفلسفته إنسانية خالدة .

وماذا لو أن الإنسان فطن إلى هذه الحقيقة منذ أن أشرقت عليه شمس الفكر ، قبل ظهور سقراط بمئات السنين ! كم من جهود ضاعت أدراج الرياح ، بينما انهمك الإنسان ينقب فى عالمه المادى ، باحثاً عن أصل الكون وفصله ! كم تخبط فى دياجير الخرافات الواهمة والظنون الواهنة ، متنقلا من الماء إلى الهواء ، ومن التراب إلى النار ، إلى الذرات المتجانسة وغير المتجانسة ، إلى الأعداد الرياضية ، إلى ما شاء الخيال من عناصر وأصول . حتى إذا ما أعياه البحث وانهكه التخبط ، طغت عليه موجة من الشك عارمة ، أوشك تيارها أن يجرف سيله كل ما حققه الإنسان من مكاسب ، سواء فى الدين أو فى العلوم والفلسفة ، أو فى الأخلاق والقوانين . والحقيقة الرهيبة التى أذهلته هى أن سر فشله كامن فى نفسه التى يجهلها الجهل كله .

عندئذ ارتفع صوت سقراط فى مجتمع أثينا المتعالم المتعجرف ، داعيا إلى تحويل النظر من المادة إلى الإنسان : « إعرف نفسك » . ولم يفتأ سقراط يقاوم نار الشك والبلبلة التى أجج السوفسطائيون ضرامها بتعاليمهم الهدامة ، وبقى يعمل إلى سن السبعين على إعادة البناء على أساس متين من معرفة الإنسان لنفسه .

إلى أى مدى حالف التوفيق سقراط ومن حذا حذوه من الفلاسفة ؟ هذا ما لا قبل لنا بمعالجته فى هذا الكتاب ؛ إنما حاولنا أن نعمل بهذا الشعار فى محيط غير محيط الفلسفة ، أقصد علم التاريخ .

الواقع أن الكتاب كثيراً ما خلطوا بين ميدان علم التاريخ وميدان علم الإحصاء ، ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن النظرة الإنسانية فى التاريخ حديثة نوعاً ما ، وإنها لا تكاد ترجع بنا إلى ما قبل أواخر القرن الماضى ، اللهم إلا إذا استثنينا بعض المؤرخين الأفذاذ ، وإنه لمن دواعى فخرنا أن يكون ابن خلدون العربى واحداً منهم .

نعم لم يدرك المؤرخون إلا حديثاً أن مهمة التاريخ تعريف الإنسان بنفسه ، إن لم يكن عن طريق البحث فى داخل النفس ، شأن الفلاسفة ، فعن طريق تحرى أخبار الماضى ، وتحليلها تحليلا علمياً مناسباً . فالإنسان الذى يضطرب اليوم فى حدود المكان والزمان ما هو إلا « راسب الأجيال السابقة » ، كما يقول أستاذنا الدكتور محمد مندور ، وحصيلة ضخمة لتجارب وخبرات لا تحصى ، تقلبت فيها الإنسانية فى شتى ميادين الإحساس والوجدان ، والتفكير والإرادة ، وهى تجتاز أطوار الحضارة المختلفة التى قطعتها . ولا نبالغ إذا قلنا إن سر حياة الإنسان الحاضر وتخطيط حياته المستقبلة كامنان فى ثنايا ماضيه .

هذا هو المعنى الإنسانى لعلم التاريخ .

وإنها لملحمة عجيبة تلك التى ينشدها التاريخ فى تمجيد الإنسان والإشادة بما حققه من بطولات فذة ، وهو يعبر القرون الخوالى ، جامعاً التراث ، مكتسباً الخبرات ، مكوناً التقاليد والعادات فى شتى مجالات النشاط .

ونحن لا نطمع بطبيعة الحال فى تسجيل هذه الملحمة بأسرها فى مثل هذا الحيز الضيق ، وحسبنا أن نركز بعض الأضواء على فترة وجيزة ، اخترناها لخصيصى اصلتها الوثيقة بنا ، نحن سكان حوض البحر المتوسط . فهى تمتد من

سنة ٢٦٤ ق م ، وهى السنة التى رأت جيوش روما تخرج من شبه الجزيرة الإيطالية لتختلط ، غازيةً ، بشعوب صقلية وشمال أفريقيا ، وسنة ٧٥٠ م ، وهى توافق قيام الدولة العباسية فى الشرق ودولة شارلمان فى الغرب .

عشرة قرون تعد من أخصب فترات التاريخ ، تلك التى ازدهرت فيها الحضارة الرومانية البيزنطية ، ونشأت المسيحية فى ربوعها وترعرعت ، ونهض الإســـلام فوحد عرب شبه الجزيرة أمة ثم دولة ثم إمبراطورية مترامية الأطراف ، ووطدت روما حضارتها قبل أن تتعهد الأمم المتبربرة ، التى سوف تتغلب عليها ، بالتربية والتهذيب .

عشرة قرون أضحى فيها حوض البحر الأبيض المتوسط أشبه ببوتقة هائلة تلتقى فيها الشعوب والحضارات ، فتصهرها الحروب والمطامع والشهوات ، فإذا بالأمم وقيمها تتداخل وتندمج ، بل وتتفاعل ، هادرة صاخبة ، حتى إذا ما استنفدت طاقتها الغضبية ، كما يقول ارسطو ، وهدأت ثائرتها ، تمخضت عن دول جديدة ، هى البذور التى سوف تنبت دول البحر الأبيض الحديثة .

وها نحن أولاء نعرض بإيجاز لهذا القطاع من التاريخ ، محاولين تسليط الأضواء على الشعوب وتطوراتها ، منقبين عن الاتجاهات الفكرية والتيارات التى قامت بدور القيادة فى معركة الإنسانية فى سبيل الحضارة والرقى .

وفقنا الله إلى ما فيه خدمة الحضارة عامة والثقافة العربية خاصة .

إنه ولى التوفيق ؟

المؤلف

القاهرة فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٦٢

الفصل الأول

الدولة الرومانيـــة

الموجـــز :

تمهيـــد : تاريخ وأساطير .

تأسيس روما : الملكيـــة .

الجمهورية الأرستقراطية .

حركة التوسع : فى إيطاليا وخارجها .

الحروب البونية .

الحكم المطلق : قيصر أكتافيانوس .

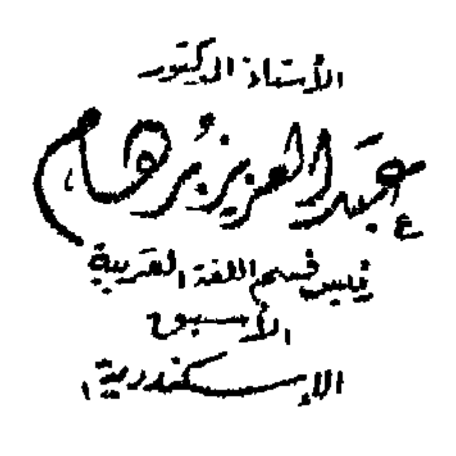
الإمبراطورية . الإمبراطورية أو الجمهورية .

الحالة الاقتصادية داخل الإمبراطورية .

الحـــروب .

شخصيتان : دقلديانوس ـــ قسطنطين .

ضعف وتدهور .



تمهيــــد

إن ما يردَد عن تاريخ روما الأول يكاد يكون كله غير موثوق منه ، إذ أن الروايات التى أحاطت به إنما وضعت فى عهد متأخر ، تأثر بالحضارة الإغريقية ، فاتخذت صيغة الأساطير اليونانية ، ولعل الحوادث لا تصبح مؤكدة تاريخياً إلا منذ عام ٣٠٠ ق م تقريباً .

أما عن الفترة التى تمتد منذ إنشاء روما سنة ٧٥٣ ق م إلى هذا التاريخ ، أى إلى عام ٣٠٠ ق م ، فإن المعول عليه هذه الروايات المختلفة التى لا تتمخض دراستها إلا عن حقائق معدودة ، تلك التى تثبت بعد البحث والتمحيص والمقارنة .

تأسيس روما

وأهم ما تجمع عليه هذه الروايات أن روميلوس Romulus أسس روما عام ٧٥٣ ق م ، بالاشتراك مع أخيه ريموس Remus وكانا من سلالة إينيوس Enneus ، أحد أبطال مدينة تراودة Troade المشهورة .

ثم تشير الأساطير إلى أن روميلوس قتل أخاه ريموس فى أثناء مشاجرة وقعت بينهما ، وأخذ بعد ذلك يعمل على تعمير المدينة التى قام بتخطيطها والتى عرفت باسمه ، Roma . جلب إليها السكان بالحيلة تارة وبالقوة تارة أخرى ، ثم أخذ يعقد المحالفات مع القبائل المجاورة ، وكان من أهمها قبيلة السابينوس أو السابان .

الملكية : وحكم روما من بعد روميلوس ملوك تولّوا الرئاسة بحكم الانتخاب لا الوراثة ، وكان حكمهم الذى اصطبغ باللون العسكرى يستند إلى دعائم راسخة قوية ، أهمها نظام أسَرى قوى وروح ديمقراطية استشارية ، تمثلت فى الهيئتين اللتين خلقتا للحد من سلطة الملك وهما :



تحتل مدينة روما مركزا ممتازا على نهر التيبر ، وسط شبه جزيرة ايطاليا ، بين مقاطعتين عريقتي الحضارة : اتروريا شمالى نهر التيبر ، واغريقيا الكبرى ، جنوبى شبه الجزيرة .

١ — السناتو : Senatus أو مجلس الشيوخ ، وكان يضم فى أول عهده رؤساء الأسر الذين يختارهم الملك ، ثم ضم الفرسان وكبار المزارعين ، حتى بلغ عدد أعضائه الثلاثمائة . وكان له حق الإشراف والرقابة على شعب المدينة وحق التصديق على قرارات الجمعية الكورية أو رفضها ، وذلك إلى جانب مهمته كمجلس استشارى يعاون الملك فى الحكم .

٢ — الجمعية الكورية : Comitia Curiata . كانت الكورية Curia فى الأصل أحد أقسام القبيلة العشرة ، وهى تضم عددا من الأسر ، على رأسها الماجستير Magister ؛ وبما أن سكان روما الأصليين كانوا ينتمون إلى ثلاثة قبائل ، بلغ عدد الكور إذن ثلاثين كورية . وعند اجتماع الجمعية الكورية ، كان التصويت على أساس الكورية كوحدة ، وكان من اختصاصها انتخاب كبار الموظفين ومنح الحاكم أو رئيس الدولة السلطة العليا Imperium.

ويفهم من هذا الكلام أنه إذا كان السناتو يمثل الطبقة الراقية الثرية فى روما ، فالجمعية الكورية كانت تمثل طبقة الشعب .

الجمهورية الارستقراطية

تؤكد الروايات أن سابع ملوك روما تركوينوس Tarquinus الملقب بالفخور ، حكم روما حكماً استبدادياً ظالماً ، أغضب السكان فاجتمعوا على محاربته ، وهزموه بالقرب من بحيرة ريجيليو Regilio ، عام ٥١٠ ق م ، ثم قرروا إنهاء عهد الملكية وإقامة النظام الجمهورى مكانها .

أما اختصاصات الملك ، فأسندت إلى قنصلين Consul أو رئيسين ، يعينان بالانتخاب لمدة سنة واحدة ، مهمتهما قيادة الجيوش والإشراف على إدارة الدولة ، دون استثناء القضاء والمالية ، كما كانوا يقومون بدعوة السناتو والجمعية الكورية للاجتماع ، ويعينون للوظائف ويعلنون القوانين .

ولكن الشعب كافح كفاحاً مريراً انتزع بواسطته حقوقاً مدنية ودينية جعلته على قدم المساواة مع طبقة الأشراف[1] .

حركة التوسع

فى إيطاليا : وفى هذه الأثناء أخذت رقعة الدولة تتسع باطراد ، ففى المدة ما بين عامى ٣٤٣ ق م و ٢٧٢ ق م ، دانت شبه الجزيرة الإيطالية الوسطى والجنوبية لسلطان روما ، خضعت مقاطعة سمينوم Samnium بعد حروب ثلاثة فى الفترة ما بين سنتى ٣٤١ ، ٢٨٠ ق م ، ولما خشيت

مقاطعة تارنتوم Tarentum أن يلحق بها هذا المصير ، استنجدت ببيروس Pirrhus ، ملك مقاطعة أبيروس Epirus فى بلاد الإغريق ، ودارت الحرب بين الفريقين ، فمنيت تارنتــوم بالهزيمة ، وضمتها روما إلى أملاكها عام ٢٧٠ ق م .

وتم فى هذه الفترة الاستيلاء على مقاطعات كمبانيا Campania ولاتيوم Latium وإترووريا Etruria ولوكانيا Lucania ،كما هو مبين فى الخريطة :

توسع روما داخل ايطاليا منذ عام٣٤٠ الى ما قبيل الحروب البونية

نما سلطان روما فى شبه جزيرة ايطاليا فى الفترة مابين ٣٤٠ ، ٢٧١ ق.م. حتى دانت لها ايطاليا الجنوبية والوسـطى ، فضمت الى أملاكهـا :

١ ــ مقاطعة كمبانيا Campania عام٣٤٠

٢ ــ مقاطعة لاتيوم Latium عام٣٣٥

٣ ــ مقاطعة اترووريا Etruria عام٢٩١

٤ ــ مقاطعة سمنيوم Samnium عام٢٩٠

٥ ــ مقاطعة لوكانيا Lucania عام٢٧٣

٦ ــ مقاطعة تارنتوم Tarentum عام٢٧١

وأما إيطاليا الشمالية المعروفة باسم غالة جنوبى الألب ، فبقيت مستقلة ومتحالفة مع روما إلى سنة ٢٢٦ ق م ، حيث تعرضت روما إلى غزو غالى

واسع النطاق . غير أن الجيوش الرومانية استطاعت أن تهزم الغاليين عند رأس تيلامون Telamon على الساحل الأترورى عام ٢٢٥ ، وشرعت روما بعدئذ فى إنشاء مستعمرات رومانية فى هذه المقاطعة تشرف بها على البلاد المجاورة وتعمل رويداً رويداً على تشكيلها بالطابع الرومانى . ونشطت هذه الحركة بين عامى ١٩٦/١٧٧ ق م . حتى أصبحت إيطاليا الشمالية رومانية أكثر منها غالية .

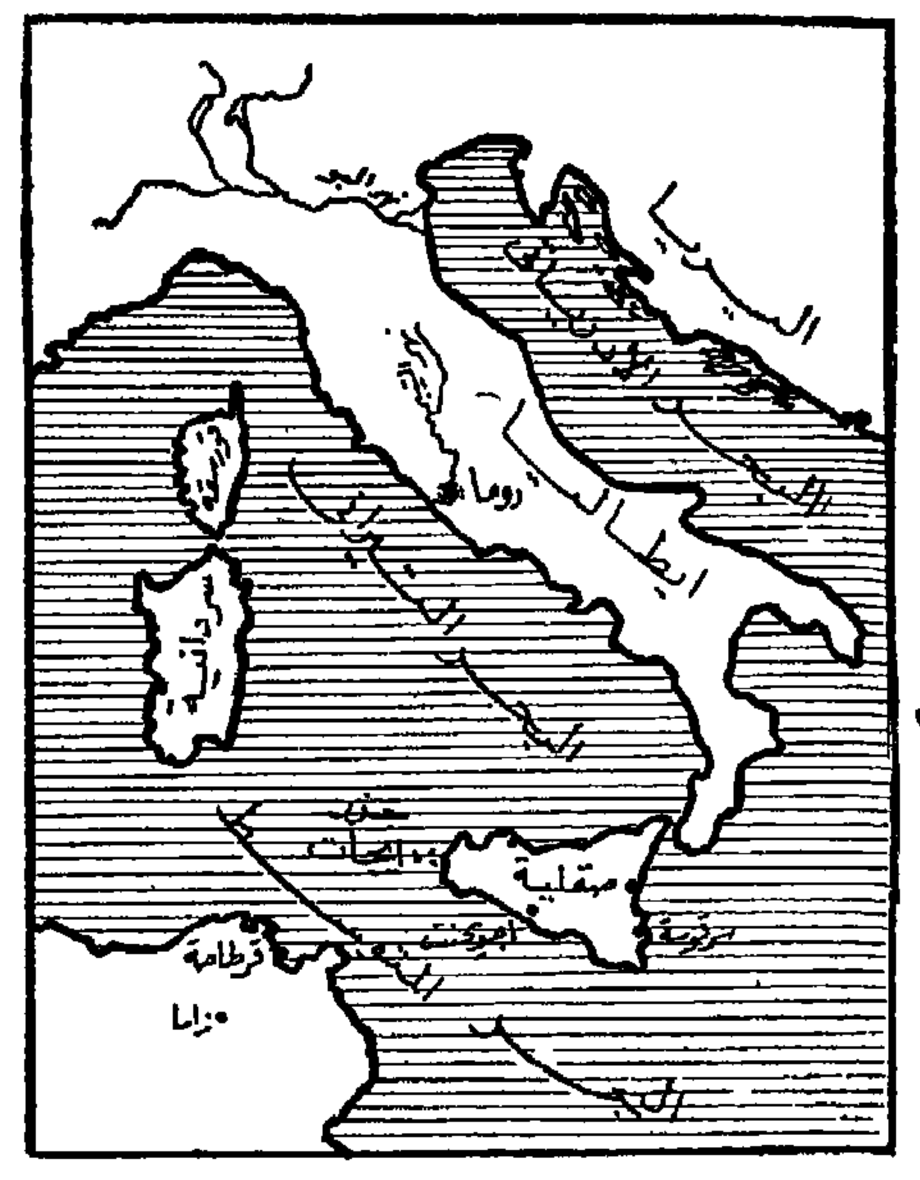
التوسع خارج إيطاليا . إلا أن روما واجهت منذ عام ٢٦٤ ق م خطراً هدد كيانها من قِبَل دولة قرطاجة[٢] الإفريقية ، حاولت قرطاجة أن توسع رقعتها على حساب الدويلات الإغريقية المنتثرة فى البحر الأبيض المتوسط . فشنت على صقلية الإغريقية حرباً دامت ثلاثة قرون ، كادت بعدها أن تحقق مآربها لولا تدخل روما التى أضرمت نار الحرب باحتلالها مدينة مسينة Messina فى صقلية ، سنة ٢٦٤ ق م .

وهكذا ابتدأت الحروب البونية [٣] الثلاثة التى انتهت بتخريب قرطاجة سنة ١٤٦ ق م .

الحروب البونية

الحرب الأولى (٢٦٤ — ٢٤١ ق م) : هُزمت فيها قرطاجة فى معركة جزر إيجات البحرية ، فاضطرت إلى التخلى عن صقلية التى أصبحت ولاية رومانية .

الحرب الثانية (٢١٨ — ٢٠١ ق م) : كان بطلها هنيبعل Hannibal القرطاجى ، الذى اقتحم بجيوشه جبال الألب Alpes قادماً من أسبانيا[٤] ،



جزر ايجات :

حيث هزم الأسطول الرومانى بقيادة نائب القنصل كاتولوس Catulus أسطول قرطاجة فى ١٠ مارس سنة ٢٤١ ق. م. فابرمت قرطاجة الصلح .

....

واقترب من مدينة روما بعد أن بدد جيوشها ، ولكنه تلكأ بدلا من أن يبادر بالهجوم على المدينة ، فى حين أسرع القائد الرومانى إسكيبيو Scipio إلى شن هجوم بحرى على قرطاجـــة ، فهُزمت فى موقعة السهول الكبيرة عام ٢٠٣ ق م . ثم هُزِم هنيبعل نفسه بعد عودته إلى الشمال الإفريقى عند مدينة زاما Zama ، عام ٢٠٢ ق م ، فأسرعت قرطاجة إلى طلب الصلح .

الحرب الثالثة : (١٤٩ — ١٤٦ ق م) نهضت قرطاجة نهضة سريعة بعد وقعة زاما ، فأثارت مخاوف روما التى عملت على اختلاق ما يبرر مهاجمتها ،

ليتسنى لها القضاء عليها قضاء مبرماً قبل تفاقم أمرها ، فشجعت ماسينيسا Massinissa ، ملك نوميديا Numidia ، وهى مقاطعة تقع غربى قرطاجة ، على الاعتداء على حدودها ، فردت قرطاجة بإعلان الحرب على ماسينيسا ، وهذا ما كان يتمناه الرومان ، إذ أن إعلان الحرب كان محرماً على قرطاجة إلا بعد موافقة روما ، فجردت حملة بقيادة إسكيبيو إيميليانوس Scipio Emilianus ، فدمرت قرطاجة وأحرقتها عن آخرها .

الفتوح الرومانية فى الشرق والغرب

إلى منتصف القرن الثانى ق م .

وهذه الحروب لم تؤثر فى مجهود حربى آخر فى الميدانين الشرقى والغربى :

أما فى الشرق ، فأخضعت جيوش روما شبه جزيرة البلقان ومملكة برجاموم فى آسيا الصغرى بين سنتى ٢٠١ و ١٢٣ ق م .

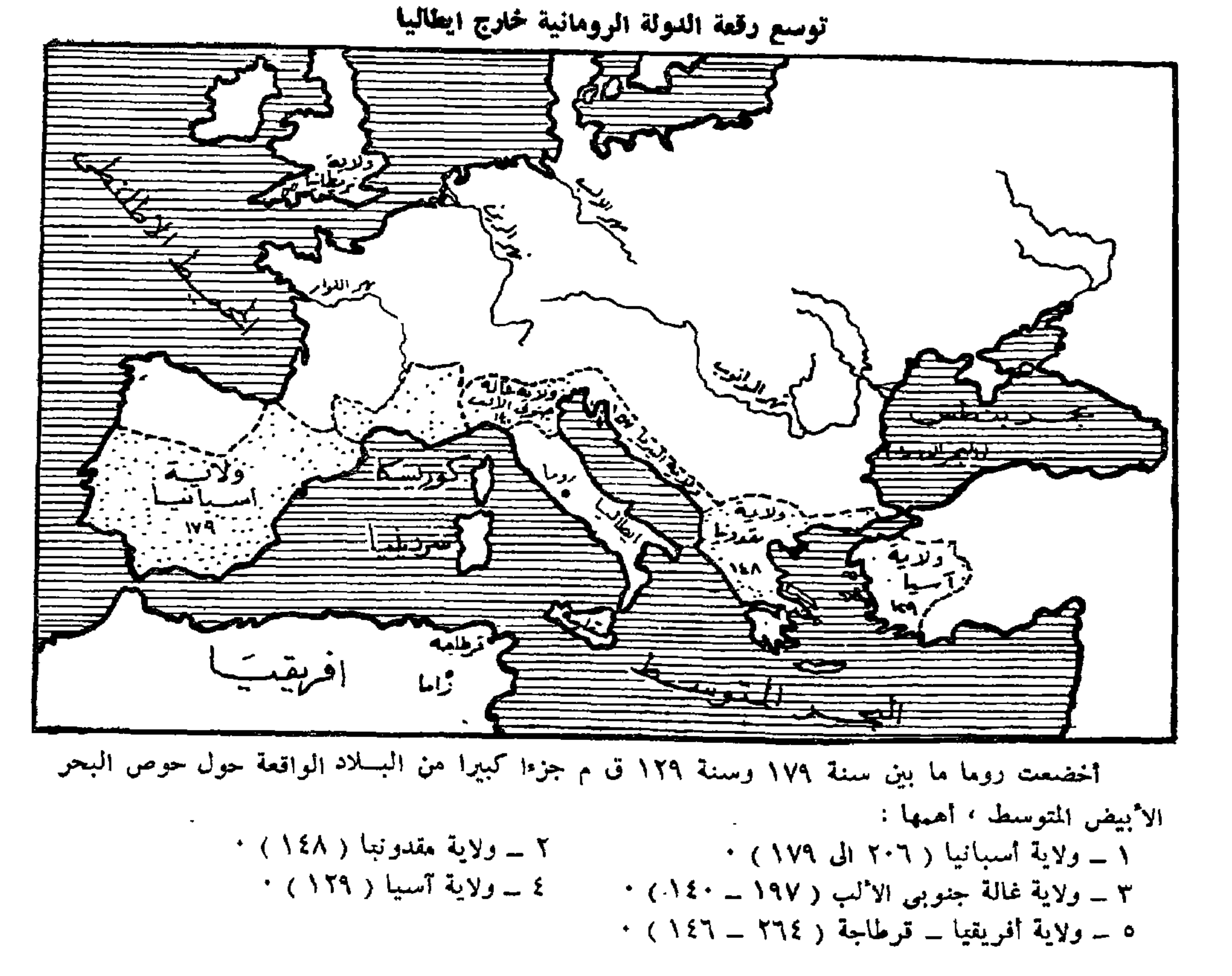
وأما فى الغرب ، فاستطاعت أن تخضع بلاد الأسبان عام ١٧٨ ق م ، وجنوبى بلاد الغال عام ١٢١ ق م .

والطرف الشرقى من أفريقيا الشمالية ، عام ١٤٦ ق م . (خريطة ٣) .

الحكم المطلق

ولكن الانتصارات والفتوحات المتلاحقة أحدثت شيئاً خطيراً ، فقد أفسحت المجال للشخصية الفرديه الفذة ، شخصية القائد المظفر المعبود من الجند ، للتطلع إلى المناصب المدنية العليا عن طريق القوة ، ومن جهة أخرى ، فإنها جلبت للرومان من الثراء ما استرخت له طباعهم ، حتى لكأنهم صوروا أنفسهم أصدق تصوير فى الشعار الذى كانوا يرددونه. عندما تتأزم الأمور : خبزاً ولهواً (٥).

توسع رقعة الدولة الرومانية خارج ايطاليا



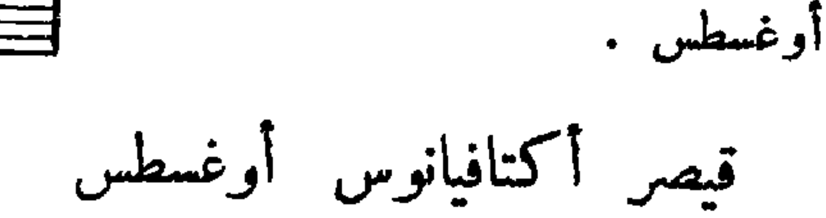
أخضعت روما ما بين سنة ١٧٩ وسنة ١٢٩ ق م جزءا كبيرا من البلاد الواقعة حول حوض البحر الأبيض المتوسط ، اهمها :

١ ــ ولاية أسبانيا (٢٠٦ الى ١٧٩) ٠
٢ ــ ولاية مقدونيا (١٤٨) ٠
٣ ــ ولاية غالة جنوبى الألب (١٩٧ ــ ١٤٠) ٠
٤ ــ ولاية آسيا (١٢٩) ٠
٥ ــ ولاية أفريقيا ــ قرطاجة (٢٦٤ ــ ١٤٦) ٠

وكان هذا كافياً لتمهيد السبيل للحكم الذاتى المطلق ، وقد تم ذلك للقائد أكتافيانوس Octavianus .

كان اكتافيانوس فى التاسعة عشرة عندما قُتل عمه يوليوس قيصر سنة ٤٤ ق م . وكان يطمح إلى الانفراد فى الحكم . فقرب أولا القائد ماركوس أنطونيوس ، واشتركا معاً فى محاربة الجمهوريين الذين تحصنوا فى بلاد الإغريق . . . ثم انتهز فرصة انغماس أنطونيوس فى نزواته مع كليوباتره واستصدر من السناتو أمراً بعدم تجديد سلطات شريكه ومنافسة .

ودارت الحرب بين الخصمين عند مدينة أكتيوم(٦) Actium ، سنة ٣١ ق م ، فدُمر أسطول أنطونيوس وأصبح أكتافيانوس سيد العالم الرومانى الأوحد واتخذ منذئذٍ اسم قيصر أكتافيانوس أوغسطس .



قيصر أكتافيانوس أوغسطس

تجلت فى أكتافيانوس الشخصية الرومانية فى أبهى مظاهرها ، فكان الحاكم العبقرى المتفانى فى سبيل رفعة روما وتطوير نظمها ، ولكن بالطرق الشرعية المعهودة ، فقد كانت قانونية الحكم من أقدس المبادىء التى بنى عليها الرومان مدنيتهم .

الواقع أن أوغسطس جمع بين يديه ، إبتداء من سنة ٢٣ ق م ، معظم سلطات الدولة ، ولكنه كان حريصاً كل الحرص على أن يكون استئثاره بها

قانونى الشكل وشرعى المظهر ، ولم يكن الأمر هيناً فى مدينة متشعبة بالمبادىء الديموقراطية وبتقديس القوانين المقررة . كانت السلطات فى روما ممثلة فى مجلس الشيوخ وفى الجمعية الكورية ، أى فى الشعب لا فى الأفراد ، ولو أن كلا من السناتو والشعب كان يُنيب عنه موظفين يتولون مباشرةً هذه السلطات باسمهما ، فكان شعار السلطة : (باسم) السناتو والشعب الرومانى : "Senatus PopulesQue Romanum"(٧).

وتجلى دهاء أوغسطس فى أنه استطاع أن يستأثر بالسلطات كلها دون أن يثير مخاوف الرومان وغيرتهم ، مكتفياً بتلقى السلطات والألقاب هبة و « تكليفاً » ، لا بحكم انتصاراته العظيمة أو رئاسته للجيوش أو وراثته ليوليوس قيصر . فنراه مثلا يمتنع عن استعمال لقب الإمبراطور(٨) Imperator كى لا يُظن أن حكمه استبدادى قائم على القوة ، فكان يلجأ إلى لقب Princeps أى المواطن الأول .

وفى عام ٢٧ ق م ، عندما استقرت الأمور لأوغسطس بعد إخماد الحروب الأهلية ، رأى أن يتنازل عن جميع سلطاته الاستثنائية لإعادتها إلى مجلس الشيوخ وإلى الشعب الرومانى ، مكتفياً بمنصب القنصل(٩) الذى ظل يتمتع به خمس سنوات بالاشتراك مع زميل له ، أى إلى سنة ٢٣ ق م .

عندئذ ، أى فى عام ٢٣ ق م ، منح السناتو أوغسطس ، بإيعاز منه ، سلطات جديدة ستصبح من بعده أساساً للنظام الإمبراطورى الرومانى ، ومن أهم هذه السلطات :

١ — سلطة التريبيون Tribunus التى وضعت بين يديه زمام السلطة التشريعية بتخويله حق اقتراح القوانين والتشريعات ، وحق الفيتو Veto أى حق الاعتراض ، الذى يستتبع إيقاف تنفيذ القوانين أو تعطيلها ، كما مكنه من السلطة القضائية العليا فى روما .

٢ — سلطة نائب القنصل Proconsul ، أى القنصل السابق[١٠] التى خولته حق الإشراف على الشئون الخارجية ، أى على إدارة الولايات بصفة خاصة ، والإشراف على الجيش . وبما أن الفرق الرومانية كانت ترابط على الحدود ، فاستلزمت هذه السلطة وضع ولايات الثغور تحت إشراف الإمبراطور الخاص ، دون السناتو .

وقد استكملت هـــذه السلطات عام ١١ ق م بسلطة الكاهن الأعظم Pontifex Maximus أى كبير الكهنة ، فأصبح الرئيس الأعلى للديانة الرومانية[١١] .

ولا شك أن أوغسطس أحسن استعمال سلطاته وحقوقه هذه غير العادية ، فأصلح القوانين وطهر مجلس السناتو والمجالس الشعبية وملأ الوظائف بالأكفاء من الناس ، وامتدت عنايته إلى الأقاليم فوضع حداً لاستبداد كبار الموظفين الذين كانوا من طبقـــة القناصل السابقين ، ثم البرايتوريين Praetor ، وكثيراً ما كانوا يخضعون ولايتهم إلى النهب المنظم الدقيق ، يستنزفون مواردها لصالحهم الخاص ؛ وقد نجح أوغسطس فى رفع مستوى الأسرة وتدعيم الأخلاق .

حكم الولايات

قسمت البلاد التى أخضعتها روما إلى ولايات ، وكان يحكمها أول الأمر ، فى عهد الجمهورية ، القناصل السابقون Proconsul ، ثم البرايتوريون ، بعد ارتقاء طبقة الشعب Plebs إلى القنصلية .

أما أوغسطس فقد قسم الولايات إلى نوعين :

١ — ولايات سيناتورية ، بقيت على نظامها الإدارى القديم ، أى بقيت خاضعة للسناتو ، ولكنها وضعت تحت مراقبة ممثلى الامبراطور .

٢ — ولايات إمبراطورية ، وهى الولايات التى على الحدود ، فوضعت تحت حكم موظفين يعينهم الإمبراطور نفسه ، وكانت ترابط فيها الفيالق الرومانية ، كما أسلفنا .

الوراثة

ولكنه لم يوجد حلا لمشكلة الوراثة ولم يحاول سن تشريعات خاصة بتوريث السلطات الإمبراطورية الاستثنائية لخلفه ، مع التسليم بأنه أشار إلى رغبته فى تطبيق مبــــدأ الوراثة واختيار خلفه ، عندما تبنى بعض الأشخاص ممن رآهم جديرين بولاية العرش ، إلا أنه لم يوفق فى اختياره ، واضطر آخر الأمر إلى تبنى تيبيريوس[١٢] Tiberius ابن زوجته ليفيا Livia رغم كراهته له ، وعمل على تقليده سلطات كبيرة غير عادية كسلطة التريبيون ، استعداداً للطوارئ .

الواقع أن رجال السناتو أدركوا بعد وفاة أوغسطس سنة ١٤ م ، ما فى الرجوع إلى النظام الجمهورى من مغامرة محفوفة بالأخطار ، إذ ما زالت المآسى التى سببها تناحر القواد فى الثلاثين سنة التى سبقت وقعة أكتيوم ، شاخصة فى الأذهان . وزاد الظروف ارتباكا غموضُ موقف تيبيريوس ، إذ لم يكن أحد يستطيع أن يتكهن بما عساه أن يفعل إذا امتنع السناتو عن إقراره فى سلطات أوغسطس . ففضل الشيوخ أأمن السبل ومنحوا تيبيريوس سلطات أوغسطس وألقابه ، وبذلك تقرر مصير الدولة الرومانية نحو الإمبراطورية ، أى نحو الحكم الفردى المطلق المستبد .

الإمبراطورية

إن هذه الفترة من التاريخ الرومانى التى تمتد إلى سنة ٤٧٦ م ، أى إلى سقوط روما ، فترة معقدة مضطربة ، يضيق بنا المقام إذا تناولناها بالتفصيل

والتدقيق ، لذلك رأينا أن نعرض بإيجاز أهم معالمها ، على أن نشير أثناء هذا العرض إلى الحوادث والشخصيات التى يقتضيها المقام ، وسنركز الكلام حول نقط ثلاثة :

الصراع بين النظامين الإمبراطورى والجمهورى

الحـــالة الاقتصادية

الحروب الخارجية

١ — الامبراطورية أو الجمهورية

إن الصراع المستميت الذى سجله التاريخ بين الإمبراطورية وبين المجالس الرومانية والسناتو على الأخص ، كان فى الحقيقة صراعاً بين نظام الحكم الفردى المستبد والنظام الجمهورى الاستشارى ، وكان لابد أن ينتهى هذا الصراع بانتصار الجانب الذى بيده القوة المسلحة ، أى الإمبراطور .

(ا) لم يعد السناتو يملك تعيين الأباطرة ، رغم الاتفاق الذى تم بين أوغسطس والسناتو سنة ٢٧ ق م ، والذى أصبح بمقتضاه تعيين الإمبراطور ، دون أى تدخل من القوات العسكرية ، منوطاً بالسناتو .

وبدأت حركة الاغتيال والتشاحن على الحكم منذ عهد خليفة تيبيريوس ، الإمبراطور جايوس كاليجولا (٣٧ — ٤١ م) Gaïus Caligula

فاخذت القوات ، ممثلة فى فرق الجيش المرابطة فى الولايات أو فى الحرس الإمبراطورى ، تحتكر اختيار الأباطرة من بين قوادها ، وكأن العرش منحة للقادة المظفرين ، فإذا انتصر أحدهم على زملائه أسرع السناتو مكرهاً إلى إقرار الأمر الواقع بمنحه الألقاب والسلطات التى منحت لأوغسطس ، ولو أن هذا الإقرار لم يخرج عن كونه إجراء تقليدياً شكلياً لابد منه لتوفر الصفة القانونية الشرعية .

(ب) استلزمت هذه الأوضاع كسب رجال الجيش والحرس الإمبراطورى واستمالتهم بشتى الوسائل ، فهذا الإمبراطور نيرفا (٩٦ — ٩٨ م) Nerva يتبنى قائداً فى الجيش وهو ترايانوس[١٣] Trajanus ليورثه العرش من بعده ؛ وهذا دوميتيانوس (٨١ — ٩٦)[١٤] Domitianus يرفع رواتب الجند إلى مالا يقل عن الثلث ، ويقفو الإمبراطور كراكلا (٢١١ — ٢١٧) Caracalla أثره ، فتصل مرتبات الجند إلى أرقام خيالية ، تهدد ميزانية الدولة بالانهيار ، وكان ستيموس سفيروس (١٩٣ — ٢١١) Septimus Severus قبله قد اعترف بزواج العسكريين ، فقضى قراره هـذا على الروح العسكرية فى الجيش .

فلا غرو بعد ذلك إذا شعرت الفرق المحاربة أو فرق الحرس الإمبراطورى بأنهم هم الأوصياء على العرش ، ليس عليهم إلا فرض رغباتهم ، ولا على الأباطرة خلائفهم سوى السمع والطاعة .

(حـ) وأخذ الأباطرة يعملون على تجريد السناتو من حقوقه ، فإذا ما اجتمعت السلطات فى أيدى إمبراطور ما ، دأب جاهداً على التسلط على السناتو لاغتصاب اختصاصاته ، قاصراً مهمته على التصديق على الأوامر لاغير ؛ ونخص بالذكر من بين هؤلاء الأباطرة فسباسيانوس[١٥] Vespasianus ودوميثيانوس وهادريانوس[١٦] Hadrianus . وإمعاناً فى سلب السناتو حقوقه المدنية ، فرض الأباطرة رقابتهم على الولايات التى كان السناتو يشرف على إدارتها ، كما سبق أن بينا ، وعينو للوظائف المدنية الكبرى موظفين اختاروهم من طبقة الفرسان أو العبيد المعتقين لا من طبقة السناتو ، كما أجبروا السناتو على منح الحكام فى الولايات — وكانوا من قواد الجيش — السلطات القضائية التى كانت من اختصاص الحكام المدنيين .

٢ — الحالة الاقتصادية

أخذت الحالة الاقتصادية فى التدهور بسبب الالتزامات الثقيلة التى فرضتها

الحروب وشئون الدفاع وإقامة الحصون ، وبسبب الإسراف فى رفع رواتب الجند وما أنفقه الأباطرة فى تجميل المدن وإنشاء الحمامات والسقايات .

أما الإيرادات فكانت أسوأ منها حالا إذ اتصف نظام جباية الضرائب بعدم الاستقرار والقسوة ، وأخيراً رأت الدولة أن تجعله على ذمة البلديات ومسئوليتها ، كما اضطرت إلى جباية الضرائب عينا لانقداً ، نظراً إلى تفشى عملية تزييف العملة .

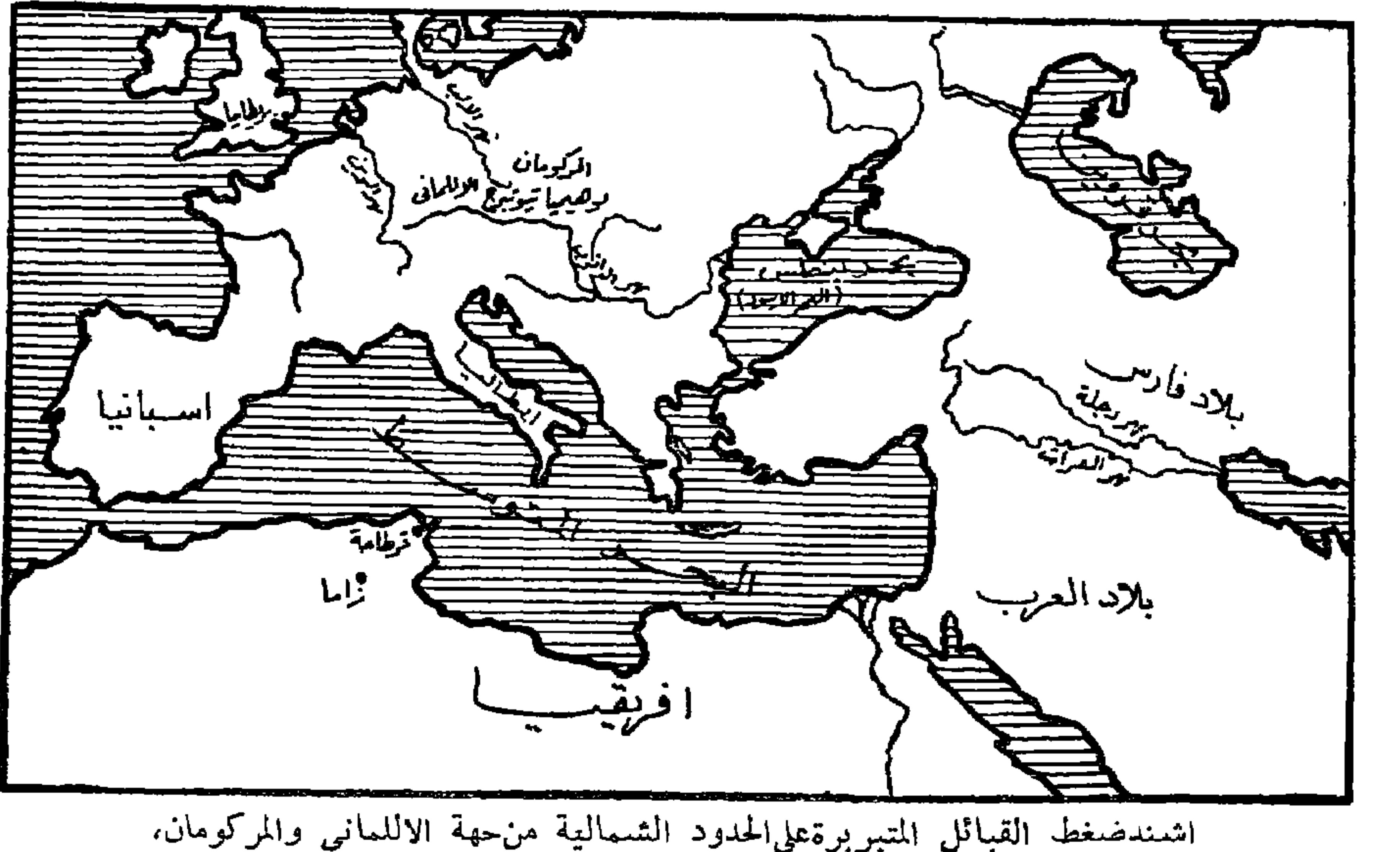
٣ — الحروب

اشتد الضغط على أطراف الإمبراطورية فى الشرق والشمال حتى كادت هذه الفترة برمتها لاتخلو من الحروب التى نذكر منها :

حرب الألمانى : وقد انتصر فيها القائد الألمانى أرمينيوس[١٧] Arminius على القائد الرومانى فاروس Varus ، فى معركة تيوتبرج ، وأباد فرقه الثلاثة عام ٩ م . ولم يثأر لهذا العار إلا القائد جرمانيكوس[١٨] Germanicus عام ١٧م .

حروب قبائل المركومان[١٩] : احتل المركومان بوهيميا عام ٨٥ م . ولما يئست الدولة من صدهم عن حدود الدانوب ، اضطر الامبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) Marcus Aurelius إلى السماح لهم بالاستقرار فى أجزاء الإمبراطورية الواقعة عند نهر الدانوب الأوسط ، وكانت هذه سابقة خطيرة جداً ، لم تلبث أن أصبحت إجراء عادياً فيما بعد ، وسنرى الإمبراطور أوريليوس كلوديوس القوطى (٢٦٨ — ٢٧٠) Aurelius Claudius يضطر مكرهاً إلى أن يوطن عدداً من القوط فى ولايات الدانوب ، بعد أن أوقف غزوهم

الحرب الفارسية : من يوم أن تأسست الإمبراطورية الفارسية الجديدة سنة ٢٢٧ على يد أردشير أصبحت الحرب سجالا بينها وبين الرومان ، واستلزمت



اشتد ضغط القبائل المتبربرة على الحدود الشمالية من جهة الاللمانى والمركومان،
كما دامت المناوشات والحروب سجالا على الحدود الشرقية — بلاد فارس ٠

الظروف إقامة الإمبراطور Alexander Severus (٢٢٢ — ٢٣٥) فى الشرق ، كما قاد الإمبراطور كاروس (٢٨١ — ٢٨٣) Carus حملة موفقة فى بلاد ما بين النهرين وفيما وراء نهر دجلة ، إلا أنه مرض هناك ولقى حتفه ، فاضطر الجند ابنه إلى إيقاف القتال(٢٠) .

شخصيتان

بعد هذا المنظور التاريخى العام ، نرى لزاماً علينا أن نقف عند شخصيتين كان لهما أكبر الأثر فى تطور الإمبراطورية .

الإمبراطور دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤ — ٣٠٥)(٢١) :

كان دقلديانوس قائداً فى الليريا ، نادى به جنده امبراطوراً عام ٢٨٤ م . وأما الذى جعل عهده ذا أهمية فى التاريخ ، فهو ما قام به من تطوير للنظام الإدارى ، رغبة فى القضاء على الفوضى وإقراراً للنظام ، حين قرر أن تكون مقاليد الحكم بيد امبراطورين إثنين ، يعاونهما قيصران ، على أن يستبدل بروما كمركز للامبراطورية أربع مدن متفرقة فى أقسام الامبراطورية الأربع ، وهى : تريف Treves فى غالة ، وميلانو Milano فى إيطاليا ، وسرميوم Sirmium فى إلليريا ، ونيكوميديا Nicomedia فى آسيا الصغرى ، وذلك لتيسير مراقبة الحدود .

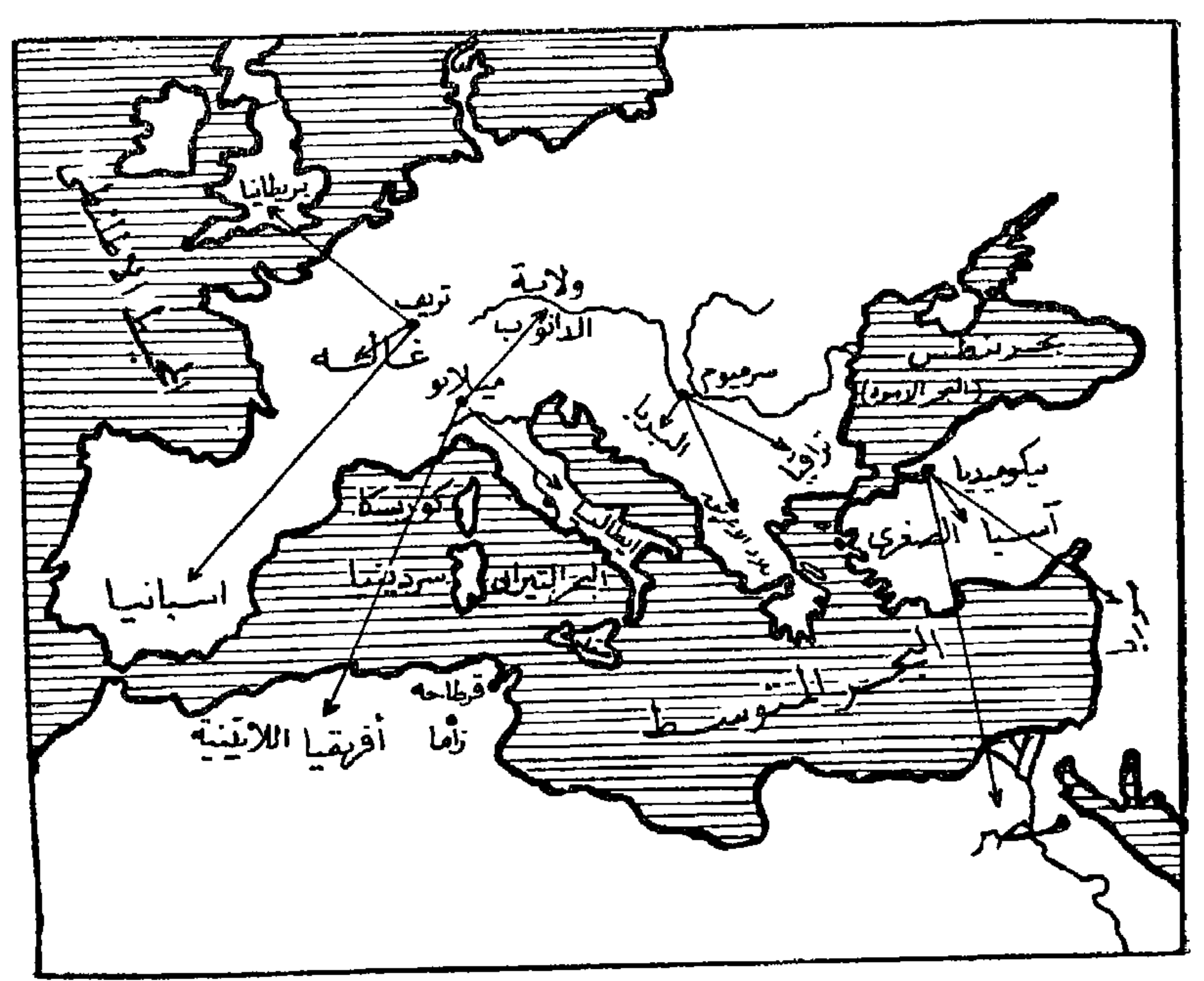
هذا وقد فصل دقلديانوس السلطة العسكرية تماماً عن السلطة المدنية ، وقد استكمل هذه التعديلات بإيجاد جهاز إدارى دقيق فى كل إقليم ، وجهاز مركزى قوى فى مقر الإمبراطورية .

الامبراطور قسطنطين Constantin

فى سنة ٣٠٦ م ، تكرر ما كان يخشاه دقلديانوس ، وما كان أعد العدة لتلافيه ، أى أن حامية يورك ببريطانيا نادت بقائدها قسطنطين إمبراطورا ، خلفاً لأبيه قسطنطيوس ، فهيأت لانقلاب فى التاريخ من

العسير تحديد مداه ، إذ أن الإمبراطور الشاب تخطى كل العقبات التى وقفت فى سبيله إلى العرش ، ثم قرر مع الإمبراطور ليكينيوس Licinius فى اجتماعهما التاريخى فى ميلانو سنة ٣١٣ م المساواة بين جميع الأديان ، فوضع بذلك حداً للاضطهاد الذى كانت المسيحية تعانى منه منذ سنة ٦٥ ، أى مدة ٣٥٩ سنة .

ولم يطل الوئام بين الإمبراطورين ، فما لبثت الحرب أن شبت بينهما ،



فسم دقلديانوس الامبراطورية الرومانية الى قيادتين كبيرتين على رأس كل واحده امبراطور ، يعاونه قيصر يشرف على نصف قيادته ، وبذلك انقسمت ممتلكات الدولة الرومانية الى أربع قيادات، مقرها نيكوميديا وسرميوم وميلانو وتريف، وتبين الخريطة مقر كل قيادة والولايات التابعة لها.

لكن قسطنطين هزم ليكينيوس مرة أولى عام ٣١٤ ، وعاد فأنزل به الهزيمة مرة ثانية عام ٣٢٤ م ، فى الأناضول ، وبذا أعاد وحدة الامبراطورية وحكمها بمفرده إلى موته عام ٣٣٧ م .

يتضح مما تقدم أن عهد قسطنطين تقسمه حوادث سنتى ٣١٢ و ٣٢٤ إلى ثلاث مراحل :

١ — لا أطيل الوقوف عند الفترة الأولى ، ٣٠٦ — ٣١٢ ، تلك التى وصفها المؤرخ سير جون ا . هامرتن[٢٢] « بالصراع حول السلطة العليا » ومجمل القول أنها كانت فترة فتن وحروب داخلية للتخلص من المنافسين ، ولا أدل على فوضى هذه السنين الست من أن عدد الأباطرة الذين قاموا معاً فى آن واحد بلغ الستة ! وهم جاليريوس Galerius ، وتولى مقاطعة الدانوب وآسيا الصغرى ، وسيفيروس Severus ، وتولى الغرب (ميلانو) ، وماكسيميوس Maximius ، وتولى الشرق ، وقسطنطين ، وتولى الشمال (تريف)[٢٣] ؛ فضلا عن الإمبراطور السابق ماكسيميان Maximianus الذى كان قد أرغم على التنازل عن العرش ، فعاد يحارب لاسترداده ، وابنه ماكسنتيوس Maxentius الذى منحه السناتو لقب أوغسطس ، رغبة فى استعادة نفوذه .

وقد عالج قسطنطين الموقف تارة بالشدة والعنف وأخرى بالدهاء والمداهنة ؛ وقد خدمته فى نضاله خصومات الأباطرة وتناحرهم .

وعند ما كان عام ٣١٢ ، أى بعد هزيمة ماكسنتيوس عند جسر ملفيوس ، لم يجد قسطنطين قبالته إلا إمبراطورا واحداً ، ليكينيوس Licinius ، وكان قد عينه جاليريوس إمبراطورا بعد مقتل سيفيروس ؛ إلا أن القوى كانت متكافئة ، فاقتضت الحكمة السياسية أن يتظاهر الخصمان بالود والوفاق ، ريثما يتقوى كل منهما على صاحبه .

٢ — قضى قسطنطين المرحلة الثانية من حكمه ، من سنة ٣١٢ إلى

سنة ٣٢٣ فى حالة تهيؤ وتحفز ، استعداداً للمعركة الحاسمة أو للضربة القاضية .

ونكتفى بالتلميح هنا إلى الحملات التى شنها بمساعدة ابنه كرسبوس Crispus على الألمانى والقوط ؛ وكذلك نشير إلى جهوده الموفقة فى تنظيم الأداة الحكومية وتنسيق أسبابها ، كما نذكر ما قام به من إصلاح الجيش وإعادة تنظيمه ، وسوف نتناول النقطتين الأخيرتين بالبحث والتفصيل عند الكلام عن المرحلة الثالثة .

ولكننا نقف برهة عند القرار الذى يعتبر من الأحداث الفاصلة فى التاريخ — أقصد اعتراف الدولة بوجود المسيحية .

مهما كانت الدواعى التى حدت قسطنطين إلى هذه الخطوة الجريئة ، ولا يمكن أن تكون كلها دوافع دينية نزيهة ، بطبيعة الحال ، فإن التفاهم بين السلطتين المدنية والدينية أخذ يزداد ، وأخذت العلاقات تتوثق إلى درجة أن الكنيسة لجأت إلى الامبراطور لحل بعض مشاكلها الدينية ، كما فعلت فى حركة الدوناتيين[٢٤] Donatistes ، وهم طائفة من المسيحيين خرجوا على عقيدة الجماعة ، وكما استعانت به أيضاً عند عقد مؤتمر نيقية Nicaea أو مجمع نيقية المسكونى سنة ٣٢٥ .

ولا شك أن هذا التدخل كان يرضى نزعة الإمبراطور إلى الاستبداد فى الحكم ، كما أرضى رغبته فى إزالة أسباب الخلاف بين رعاياه وإعادة وحدة العقائد المفصومة ، لكنه شجع قسطنطين على أن يحسب نفسه رئيسا أعلى للكنيسة ومرجعا للخلافات العقائدية . ومن هنا نجمت للكنيسة الشرقية متاعب لا حصر لها ، أحدثها خضوع السلطة الروحية للسلطة الزمنية ، وربط الدين بالتقاليد المميزة لجنس معين أو لثقافة معينة ، فتحكمت العصبيات فى المبادىء وسارعت إلى توسيع هوة الشقاق بين قسمى الكنيسة الشرقى والغربى .

وبالرغم من هذا كله ، فإن قسطنطين لم يعتبر المسيحية ديناً للدولة ، بل

ولم يُقبل على الاعتماد ، وهو باب الدخول إلى الدين المسيحى ، إلا وهو على فراش الموت ، وإن قيل إنه اعتنق المسيحية سنة ٣٢٣ . كما أن وفاته على هذا الدين لم تمنع مدينة روما من إقامة حفلات التأليه له ، أسوة بالأباطرة الوثنيين الذين سبقوه .

٣ — تبدأ المرحلة الثالثة بانتصار قسطنطين على إمبراطور الشرق ليكينيوس سنة ٣٢٣ ، ودامت إلى وفاته أى أربع عشرة سنة ، انفرد فى أثنائها بحكم الإمبراطورية الرومانية بأسرها دون منازع .

(ا) وجدير بنا أن نذكر جهوده لإعادة تنظيم الأداة الحكومية المركزية والمحلية .

أما نظام الحكم المركزى ، فسار بخطى واسعة نحو الحكم الفردى المطلق ، فالسناتو انقلب إلى هيئة محكمة عليا لا أكثر ، ووظيفة القنصل وغيرها من الوظائف الكبرى التى كانت روما قد أوجدتها للحد من النفوذ الفردى ، أضحت ألقاباً فخرية وشارات ورتباً ليس إلا .

وأما نظام الحكم المحلى فقد ناله الكثير من التطوير ، ولكن فى ظل الإطار الرباعى الذى اقترحه دقلديانوس ، كما أسلفنا ؛ على أنه سار على مبدأ فصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، وعين لتولِّى السلطة المدنية حاكما فى كل ولاية من الولايات الأربعة ، وجعله مسئولا أمامه عن الشئون القضائية والمالية ؛ ويعاونه نواب على الأبرشيات Dioceses ، وهى أقسام الولايات الإثنا عشر . ويكتمل هذا التنظيم الهرمى فى المديريات الست عشرة والمائة .

وقد سرى هذا النظام الهرمى فى توزيع السلطة العسكرية : الإمبراطور فى القمة ، والرئيسان Magistri ، وهما قائدا الفرسان والمشاة فى الولايات ، والدوقات Duces والكونتات Comites ، الذين كانوا يعملون تحت إمرتهم . . الخ .

(ب) وشيء آخر يستحق التنويه ، هو بلا شك ، إنشاء العاصمة الجديدة ، القسطنطينية على البسفور ، فى مكان بيزنطة القديمة . فقد انتقل إليها الإمبراطور سنة ٣٣٠ ، بعد أن استغرقت أعمال التصميم والتخطيط والبناء خمس سنوات ، جعلت منها أعجوبة من أعاجيب الدهر ، تليق بمقر حكومة عالمية ، تسيطر على أغلب بلدان البحر الأبيض ، فضلا عما كان لها من أهمية كبرى بسبب موقعها الاستراتيجى والتجارى الممتاز .

ضعف وتدهور

وكان تصريف دولاب هذه السلطات فى الشرق والغرب منوطاً بشخصية قسطنطين الجبارة .

وقد ولى الحكم من بعده أباطرة كانوا أضأل من أن يملأوا الفراغ الذى تركه ، لا نستثنى منهم سوى ثيودوسيوس Theodosius .

ولكن هذا الإمبراطور الذى لقب بالعظيم لم يعمل أكثر من تخفيف سرعة التدهور ، ثم لم تلبث المياه أن عادت إلى مجراها ، والإمبراطورية أن تنقسم بعد موته إلى شرقية وغربية ، وسيكون لكل شق مصيره المحتوم .

وما الحيلة وقد اختنق الشعور بالوطنية وسوف يصبح صد هجمات المتبربرين المقبلة مرتهناً بجيوش مرتزقة من المتبربرين أنفسهم ، لا يحمون تراثاً ولا يدافعون عن حمى . . . فلا غرابة إن أخذت القبائل الجرمانية تتوغل رويدا رويدا داخل حدود الإمبراطورية ، فيستولى القوط الغربيون على روما سنة ٤١٠ ، ثم يعقبهم الوندال ثم الهيروليون الذين سيقوضون أركان الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦[٢٥] .

شروح وتعليقات

(١) ونسوق مثلا لما حققه الشعب من انتصار ، ارتقاءه لوظيفة القنصل نفسها التى كانت وقفا على الأشراف Patricianus أول الأمر . لقد ثار الشعب عام ٤٩٣ ق.م. لحرمانه من الحقوق التى كان يتمتع بها الأشراف ، وهجر المدينة الى الجبل المقدس Monte Sacro احتجاجا وتهديدا . فاضطر الأشراف الى منحهم وظيفة التريبيون (أنظر فيما بعد ....) ثم نالوا عام ٣٦٧ ق.م. وظيفة القنصل ، ولكن بعد أن جردت من أحد اختصاصاتها ، وهو الاشراف على الشئون المدنية ، وقد أسند هذا الاشراف الى موظف جديد هو ألبرايتور Praetor .

(٢) تعزو الأساطير تأسيس مدينة قرطاجة الى ديدون Didon أخت بجماليون Pigmalion ملك مدينة صور Tyrus الفينيقية فى القرن التاسع ق م ، وقد ورثت قرطاجة مركز مدينة صور التجارى بعد تخريب هذه المدينة عام ٥٧٤ ق م ، وكان تدمير مدينة صور على يد بختنصر ملك بابل .

(٣) من كلمة Poenus اللاتينية التى معناها قرطاجى وأصلها كلمة φοίνιε اليونانية ، ومعناها فينيقى .

(٤) غزا هاملكار Hamilcar ، زعيم قرطاجة اسبانيا وأسس عام ٢٢٣ ق م مستعمرة قاطاجنة على الساحل الغربى من شبه الجزيرة ليتمكن من تحسين حالة قرطاجة المادية بعد استيلاء الرومان على جزيرة صقلية ، نتيجة لانتصارهم على القرطاجيين فى الحرب البونية الأولى ، وقد اتخذ هنيبعل هذه المستعمرة قاعدة للهجوم على ايطاليا . أما هاملكار فقتل وهو يحارب الأسبان سنة ٢٢٨ ق م .

(٥) Panem et Circenses

(٦) أكتيوم : مدينة قديمة تقع على ساحل بلاد الاغريق الغربى ، التقى فيها أسطول أكتافيانوس بأسطول انطونيوس وكليوباتره المشترك ، ولكن لم تكد المعركة تنشب بين الفريقين حتى انسحب أسطول كليوباتره وقفل راجعا الى الاسكندرية ، ولم يكن من انطونيوس العشيق الا أن أسرع فى اثر كليوباتره، غير عابىء بأسطوله ولا بكرامته ، فاستسلم الأسطول كما استسلمت الفيالق التى كانت ترابط برا ، وكان ذلك فى ٢ سبتمبر سنة ٣١ ق م.

(٧) كان هذا الشعار ممثلا بالحروف الأربعة S.P.Q.R. منقوشا على المبانى العامة وعلى مقاعد الحكام والقضاة .. الخ .

(٨) كان الجند يطلقون لقب الامبراطور على القائد الأعلى عند احرازه انتصارا عظيما ، فكان السناتو يصدق على هذا اللقب الذى كان يسقط بمجرد انتهاء مراسيم حفلات النصر الدينية بعد عودة القائد المظفر على رأس جيوشه الى روما • وقد احتفظ يوليوس قيصر بهذا اللقب طول حياته ، أما قيصر أكتافيانوس أوغسطس فقد أوعز الى السناتو بمنحه اياه بعد فترة القنصلية الخامسة ، سنة ٢٣ ق م ، وقد أصبح هذا اللقب على مرور الزمن لقب رئيس الدولة •

(٩) أنظر ص ١٣

(١٠) خلق هذا اللقب عام ٣٢٧ ق•م• عندما قرر الشعب الرومانى استبقاء أحد القناصلة فى منصبه ، لأنه كان مشتبكا فى احدى الحروب وقد اقتضى الموقف الحربى استمراره فى عمله رغم انتهاء مدة خدمته وهى سنة واحدة ، وقد أصبح هذا الاجراء ، مع مرور الزمن ، ولاسيما بعد الحرب البونية الثالثة (١٤٦) اجراء عاديا ، قصد به الحد من نفوذ طبقة كبار الموظفين •

(١١) وكانت الرئاسة العليا للدين من أهم اختصاصات الملك ، قبل أن يسقط النظام الملكى (عام ٥١٠ ق م) •

(١٢) تيبيريوس : ١٤ — ٢٧ م : كان أوغسطس قد قلد تيبيريوس ابن زوجته ليفيا حكم ولايتى غالة وجرمانيا ثم استدعاه الى روما سنة ٤ م وتبناه، ثم طلب له سنة ١٤ م ، أى قبل موته بشهرين ، سلطة التريبيون لعشر سنوات ، فلما مات أوغسطس اعتبر تيبيريوس خلفه الشرعى •

(١٣) ترايانوس اسبانى الأصل وهو أول من ارتقى عرش الامبراطورية من الولايات ، وأحبه الرومان رغم أنه قضى شطرا كبيرا من سنى حكمه فى الجبهة الشرقية محاربا الداشيين والبارثيين ، ويجمع المؤرخون على أن عهده كان من أسعد عصور التاريخ الرومانى •

(١٤) دوميتيانوس • خلف أخاه تيتوس على العرش •

(١٥) فسباسيانوس (٦٩ — ٧٩ م) : عمل على تولية ابنه تيتوس امبراطورا من بعده •

(١٦) هادريانوس (١١٧ — ١٣٨ م) ، وكان من أسرة اسبانية رومانية•

(١٧) أرمينيوس : وهو قائد جرمانى اسمه الأصلى (هرمان) Hermann أفنى سنة ٩ م فيالق القائد الرومانى فاروس الثلاث فى غابة تيوتبر Teutberg الواقعة شمال شرقى اقليم وستفاليا فى المانيا ، حيث أقيم له بعد ذلك تمثال ضخم •

(١٨) القائد جرمانيكوس : ابن عم الامبراطور تيبيريوس وقائد الجبهة الجرمانية الشمالية ، هاجم أرمينيوس فى غابة تيوتبرج سنة ١٥ م وهزمه شر هزيمة ، وانتقم للفيالق الرومانية التى أبيدت فى وقعة تيوتبرج الأولى سنة ٩ م٠

(١٩) المركومانيون Markomannen قبيلة جرمانية كانت منازلها فى جرمانية الشمالية ، ولكنها استطاعت أن تنزح الى الجنوب وتحتل بوهيميا عام ١٠ م فى عهد الامبراطور أوغسطس ٠

(٢٠) ومن معالم هذه الفترة من التاريخ ظهور المسيحية وانتشارها فى العالم الرومانى ، وقد خصصنا الفصل الثانى لمعالجة هذا الموضوع ٠

(٢١) دقلديانوس : كان جنديا الليريا ارتفع الى قيادة الجيش العليا بكفايته، واستطاع بذكائه الفذ أن يلمس أن الشرق أصبح مركز الثقل فى العالم الرومانى ، فهجر روما الى نيكوميديا ، قبل أن يقدم على تنفيذ مشروعه الدورى سنة ٢٨٦ م ، الذى قضى بتقسيم الامبراطورية الى قيادتين عسكريتين غير مستقلتين ٠ ثم الى تقسيم كل قيادة الى نصفين ، كما هو مبين أعلاه ٠

(٢٢) كتابه « تاريخ العالم » المجلد الرابع ص ١١٤

(٢٣) هى مدينة Augusta Trevirorum وتسمى حاليا Trèves

(٢٤) الدونانيون ، أى أتباع دوناتوس الذى ثار سنة ٣١٢ م على أسقف قرطاجة متهما اياه بالاسراف فى العطف على الذين ارتدوا عن الدين ، خوفا من التعذيب والموت ، فى فترة الاضطهادات ، ثم التمسوا العودة الى حظيرة الكنيسة تائبين ٠

(٢٥) وسنقف عند هذه الحوادث بشىء من التفصيل فى الفصل الثالث ٠

الفصل الثاني

المسيحية : الدعوة وخطواتها الأولى

الموجـــز :

تمهيــــد : أوراق الاعتماد .

شخصيـــة السيد المسيح : صور زائفة .

الصورة الحقيقية .

تعاليم السيد المسيح .

الدعاة الأوائــــل الاضطهادات .

المسيحية والحضارة الرومانية : التطعيم العلمي .

الحركات الانفصالية .

النظام والإدارة .

مـــلاحظتان : (١) مركز البابوية فى روما .

(٢) البرابرة والمذهب الكاثوليكى .

تمهيـــد :

اجتمع الإمبراطور قسطنطين بزميله ليكينيوس Licinius ، فى شهر فبراير من سنة ٣١٣ ، بعد أن قضى عام ٣١٢ على جيوش الإمبراطور مكسنتيوس Maxentius[١] فى معركة جسر ملفيوس Milvius ؛ وعندئذ أبلغه تصميمه على أن يضع حداً لموجات الاضطهاد التى سامت المسيحيين ألواناً من التعذيب والتشهير والقتل مدة قرنين ونصف قرن من الزمن ، أى منذ حريق روما أيام نيرون سنة ٦٤ .

ولا يفهم من هذا الكلام أن أعمال الظلم العنيف بقيت على حدتها مائتين وتسعة وأربعين عاماً ؛ الواقع أنها جاءت متواترة متقطعة ، ولم يأمر بها مرسوم أو قانون خاص إلا فى عهد الإمبراطور ديكيوس Decius سنة ٢٤٩ .

وبما أن الإشراف على الكنيسة قبل هذا المرسوم كان من اختصاص الإدارة البوليسية لا المحاكم ، فكان المسيحيون يعاملون بحذر شديد ، شأن الجمعيات غير المرخص بها . فأقل ما كانوا يرمون به خروجهم على الولاء للدولة ، وكانت علامة الولاء تقديم فروض العبادة للإمبراطور ، وهذا بالطبع ما كان يأباه الدين المسيحى كل الإباء[٢] .

وكما أن نوبات الاضطهاد لم تكن متماسكة الحلقات ، فهى لم تكن كذلك عامة شاملة لجميع أجزاء الإمبراطورية فى آن واحد ، إذ بينما لجأ المسيحيون فى روما الدينية إلى سراديب المدافن لإقامة الشعائر الدينية حرصاً على كيانهم ، كان نصارى الإسكندرية يتمتعون بمركز مرموق ، أتاح لهم إقامة مدارس دينية لتدريس العقائد واللاهوت والفلسفة . . . وقد تنقلب الآية ، كما حصل لكنيسة مصر ، فى عهد الإمبراطور سفيروس .

وتمضى خمسة شهور على اجتماع ميلانو السالف الذكر ، يستعيد الامبراطور ليكينيوس فى أثنائها ولاء المقاطعات الشرقية ، وإذا بقسطنطين يصدر القانون المعروف بمرسوم ميلانو ، الذى يقضى بإعادة أموال الكنائس المصادرة وبمعاملة رجال الكنيسة كما يعامل كهنة الديانات الوثنية [٣] .

هذه ولا ريب كانت خطوة جريئة ، انطوت فيها صفحة مظلمة من صفحات التاريخ الرومانى ، فانطلقت من قيودها قوة دينية وأخلاقية جبارة ، سوف يكون لها أثر فعال فى تطوير الحضارة الرومانية .

شخصية السيد المسيح

وأما كلمـــة المسيحية ، فهى نسبة إلى يسوع المسيح ، كما يسميه أتباعه . ونرى أن من حق القارىء علينا أن نعرفه بأبعاد هذه الشخصية الفريدة ، كما فهمها أصحاب هذه الديانة ، من دراسة المصدر الأول الذى هو بمثابة العمدة والأساس ، أى الإنجيل[٤] ، الذى يعتبره المسيحيون دستورهم الدينى والمثل الأعلى الذى يحتذون حـــذوه فى حياتهم الخاصة والعامة .

والإنجيل فى الواقع عبارة عن أربعة كتيِّبات ، وضعها اثنان من الرسل هما متى ويوحنا ، واثنان من الأتباع أو التلاميذ وهما لوقا ومرقس . أما موضوع هـذه الكتيبات فهو واحد ، لا يخرج عن كونه وصفاً لسيرة السيد ، المسيح بما تشتمل عليه من أفعال ومعجزات وآلام ومن أقوال وتعاليم ، تساق للقارىء دون ترتيب زمنى دقيق ودون هدف تعليمى أو جدلى مقصود .

وإذا كان الإنسان فى بعض نماذجه قابلا للتحليل والتصنيف ، فإن بعض نماذجه الأخرى تأبى هذا التشريح ، سواء لأنها مسرفة فى التعقيد ، أو لأنها مسرفة فى البساطة ؛ وقد يكون عجزنا مرجعه إلى أن الشخصية المراد دراستها ليست من مقاييسنا المعهودة المصنفة فى شىء .

صور زائفة

لا شك أن الذى يريد أن يتمثل شخصية السيد المسيح يحتاج إلى شىء غير قليل من الاحتراس والفطنة ، إذ أن لهذه الشخصية جانباً براقا يفرض نفسه على الباحث المتعجل غير المدقق ، فيصرفه عن الجوانب الأخرى ، فلا تلبث الصورة أن تخرج ناقصة مشوهة لا تثبت أمام التحليل العلمى المجرد ، أريد جانب الخوارق والمعجزات ، فإذا فتحت كتاب الأناجيل ، طالعك منذ البداية نجم يبزغ(٥) ، وملائكة تنزل على الأرض مبشرة أو محذرة أو مرشدة ؛ وما تكاد تقلب الصفحات حتى يتملكك العجب من جموع المرضى الذين يشفون والجياع الذين يطعمون ... والموتى الذين يبعثون .

فلا عجب أن يصيب الإنسانَ نوع من الذهول يحول دون فهمه لشخصية السيد المسيح ولرسالته فهماً كاملا . وهذا ما حصل لفئة من بنى إسرائيل ، طغى عليهم الإعجاب فراحوا يعقدون عليه الآمال العراض ، آمالهم فى استعادة استقلالهم وإحياء أمجاد ملوكهم السالفين ، داود وسليمان . وما الذى يمنعهم عندئذ من الاستعانة بالكتاب المقدس لتعزيز أمانيهم ؟ ولا أيسر من أن تؤول الآيات ، عن حسن نية وسوء فهم ، فتأتى مصدقة لأوهامهم ، محققة لمآربهم الدنيوية . ومهما يكن من أمر ، فليس هناك ما يحول دون تحقيق هذه الأحلام الحلوة الجميلة : أن السيد المسيح خطيب لسن ، إذا حل فى مدينة أو قرية تجمع من حوله السكان ، وقد يتبعونه ثلاثة أيام غير عابئين بالمأوى ولا بالمأكل . . ثم إن الذى له هذا السلطان العجيب لا على الأجسام فحسب بل على قوى

الطبيعة العمياء وعلى الموت نفسه ، لا يستعصى عليه بطبيعة الحال القيام بدور الزعامة .

أتريد أن تعرف قيمة هـذا التصوير أو مقدار صدقه ؟ تصفح الأناجيل ، تجـد أن هـذه الشخصية تتمرد وتأبى الإذعان إلى ما يراد بها ، وحسبك الإعلان الصريح الذى يذيعه السيد المسيح فى أثنـاء محاكمته : « إن مملكتى ليست من هذا العالم »[٦] ، ذلك خلاف مواقفه الأخرى الكثيرة التى تنكـّر فيها للزعامة الدنيوية أيا كانت[٧] .

المصلح الاجتماعى والدينى : وقد بحثت الشخصية والرسالة كلهما فئة أخرى من الناس ، فرأتها صراعا بين نبى شاب ذكى القلب وبين أوضاع دينيـة واجتماعية دبت الشيخوخة فى أوصالها ، فتحجرت وجمـدت ، وخرجت من النفس إلى الجسد وتركت اللب إلى القشور ، فلا هيبة إلا للنص ولا قيمة إلا للظواهر ولا سلطان إلا ذلك الذى يوفره المال والولد والتقوى الزائفة . وهل يرجى من مصلح ذاق البؤس مدة ثلاثين سنـة[٨] قاسى فيها من شظف العيش وانتهاك القوى فى العمل اليدوى المتواصل لـكسب قوته وقوت والديه ، فى الوقت الذى كان يرى فيه بذخ الأثرياء ، عَبَـدَة « مامون » إله المال ، وقسوتهم على الفقراء المعدمين ؛ كما كان يرى رياء رجال الدين الذين « يقولون ولا يفعلون » . . . هل كان يرجى من مثـله سوى الثورة العارمة الهوجاء على الغنى والأغنياء ، وعلى المظاهر والرياء ، وعلى شريعة النصوص العمياء ليقيم على الأنقاض شريعة الروح وشريعة الحب وشريعة الإخاء ؟ .

ولا عجب عندئذ أن يتنـكر له ، بل ويتحالف عليه تجار المال وتجار الدين وكل من دمغ فسادهم وأزاح الحجاب عن عيوبهم ونفاقهم ، فيحملوا عليه حملة لا هوادة فيها ، حملة مقنعة أول الأمر ، فإذا ما أخفقت ، استعانوا عليه بأعدائهم الرومان ، ولا غرو ، فقد أصبح خطر هذا النبى أولى بالدرء والاتقاء من شر المستعمرين الأعداء .

هل هذه الصورة ، صورة المصلح الاجتماعى والدينى ، تنطبق تماماً على ما نقرؤه من نصوص فى الأناجيل ؟

لا شك أن السيد المسيح أراد الإصلاح وسعى لتحقيقه ، كما بيّنّا وسنبين فيما بعد ، عند الكلام عن المجتمع الجديد الذى عمل على تكوينه ؛ ولكن يجب أن نأتى بملاحظتين قبل بحث هذا السؤال .

ملاحظتنا الأولى أن العيوب والنقائص التى حاربها السيد المسيح ، كما يفهم من الأناجيل ، إنما هى أولا عيوب النفس الإنسانية لا عيوب طبقة بعينها ، والمظالم التى ارتفع صوته فى مقارعتها إنما هى تلك التى تنتج عن انحراف النفس وجنوحها عن القانون الأخلاقى وعن مفهوم الدين الصحيح وليس تلك التى تنتج عن عدم توفر العدالة الاجتماعية أو عن الظلم الذى تعانيه الطبقات الكادحة المنبوذة ؛ إن المسيح لا يدعو إلى المساواة بين الطبقات من حيث هى ، وإنما دعا إلى نبذ الأحقاد والضغائن ، وإلى الحساسية الاجتماعية التى تجعلك تريد لغيرك ماتريده لنفسك .. وبهذا تتحقق العدالة والمساواة ..

وأما الملاحظة الثانية ، وهى أساسية ، فمؤداها أن هذا الإصلاح نفسه إنما يطالب به السيد المسيح لا لإزالة الظلم وتوفر العدالة فحسب ، ولكن قبل كل شيء تقرباً إلى الله وتمثلا به وحباً له ؛ هذا هو فى نظر المتفحص للإنجيل الهدف الأول ، وهو دون شك هدف يفوق المجتمع من حيث هو مجتمع ، ويسمو فوق الفرد نفسه ، ليرتقى بالفرد وبالمجتمع إلى الله .

ثم نعود فنتساءل : إذا لم يكن السيد المسيح سوى مصلح اجتماعى دينى ، وهو صاحب هذا السلطان الجبار الذى أخضع له الأجسام وعاهاتها ، والطبيعة وقوانينها ، كما كان صاحب هذا السحر العجيب على القلوب والعقول ، إذا كان هذا شأنه ، فلماذا هذا التسليم للموت وهو فى زهرة شبابه ؟ كيف يُعقل أن يرضى لرسالته ، بل لحياته ، الانهيار والتحطيم ، ولم تمض على إعلان

دعوته ثلاث سنوات بعد ! ما الذى حداه إلى قبول الإخفاق والفشل والموت ، إذا صحت رواية الأناجيل أنه تنبأ بالمأساة التى طوحت به أكثر من مرة[٩] ، ليخفف من وطأة الصدمة على تلاميذه عند حلولها . . . لماذا ينطلق لملاقاة الخائن[١٠] وجماعته المقبلين للقبض عليه ؟ . . . لماذا يقضى على نفسه وعلى رسالته بإعلانه أمام المجلس اليهودى الأكبر السنهدران[١١] أنه المسيح ابن الله الحى ! . . لماذا ؟ . . لماذا ؟ . .

وهكذا تتوارد الأسئلة المحيرة التى تتعذر الإجابة عليها فى نطاق المنظور القائل بأن السيد المسيح ليس إلا مصلحاً اجتماعياً ودينياً لا غير . .

الصورة الحقيقية :

غير أننا إذا تصفحنا الأناجيل ، سرعان ماتواجهنا نصوص تزيدنا حيرة على حيرة . نقرأ مثلا فى متى ٢٦ : ٦٤ « سوف ترون ابن الإنسان جالساً عن يمين الله » ، وهو رد السيد المسيح على رئيس الكهنة أمام المجمع اليهودى الأكبر ، على سؤال وُجهه إليه هذا نصه : « أستحلفك الله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح بن الله ؟ » متى ٢٦ : ٦٣ . ولا يفهم المجمع إلا أنه تورط فأقر فى موقف رسمى ما كان قد نوه به مراراً فى أحاديثه العامة والخاصة ، بدليل ثورة الاستنكار التى عمت الأعضاء وقول رئيس الكهنة : « لقد جدّف ، فما حاجتنا بعد إلى شهود ؟ » متى ٢٦ : ٦٥ .

ونقرأ فى يوحنا ٨ : ٥٨ قول السيد المسيح لليهود : « الحق الحق أقول لكم ، قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن » . .

ويوحنا ذاته قال فى موضع آخر: « والكلمة صار جسداً وسكن فيما بيننا » يوحنا ١ : ١٤

هذه هى النصوص ، مطروحة كما هى على بساط البحث ، محيرة مقلقة . وإذا كان

المسيحى يعتصم من قلق الحيرة بالإيمان ، الإيمان بأن المسيح إله حل فى الجسد ، على حد قول النصوص ، إلا أن إيمانه لا يوضح عقيدته هذه ولا يزيل عنها الغموض ، فإذا واجهته بالجهد والإعياء الذى تعانى منهما فى سبيل الفهم وإدراك هذه العقيدة بجلاء ، أجابك بأنه لا داعى لهذا الجهد ولا لمحاولة سبر كنه العقائد الموحاة ، مادام الأمر لا مجال للشك فيه : ألم يدلل السيد المسيح على صدقه بقيامته من القبر فى اليوم الثالث لموته ، بعد أن تنبأ بهذا الموت وبهذه القيامة ، على حسب رواية الأناجيل الثابتة ؟

تعاليم السيد المسيح

يُستدل من تحرى الأناجيل أن السيد المسيح كان يرمى من وراء تعاليمه إلى خلق مجتمع جديد ، دأب مدة تبشيره على أن يصوره لمستمعيه ، وكان أغلبهم من الطبقة الفقيرة الساذجة التفكير ، عن طريق الأمثال البسيطة[١٢] المستقاة من الطبيعة المحيطة أو من أعمال الناس اليومية ، حسبما سمحت الظروف ودعت إليه المناسبات والفرص .

وإذا أردنا أن نبحث عن مميزات هذا المجتمع الذى كان السيد المسيح يسميه ملكوت الله أو ملكوت السماوات ، وجب علينا أن نتبين أولا نوع العلاقة التى قررها ، بين الله والإنسان ، ثم بين الإنسان والإنسان .

١ — ليست صلة الله سبحانه وتعالى بالإنسان صلة الخالق والمدبر المشرع والسيد فحسب : إن الله محبة ؛ لقد أحب الإنسان فجبله على صورته ، ثم أرسل ابنه وكلمته ليعيد الإنسان إلى صورته الأولى التى شوهتها الخطايا والآثام ، وليهديه إلى معرفة الله وحبه ، ليكون له مثلا يقتدى به وعوناً يستعين به على قوى الشر والفساد[١٣] .

٢ ــ أما علاقة الإنسان بالإنسان ، فإن المسيحية ، وإن لم تجهل المبدأ السامى الذى ينادى بأن يفعل الإنسان لغيره ما يريده لنفسه ، إلا أن تعاليم السيد المسيح ترقى بهذه العلاقة فوق هذا المستوى الطبيعى بمراحل ، حينما تطالب الإنسان بأن يتمثل بالله فى تنظيم صلته بالإنسان أخيه ، على أساس اعتبار الإنسانية كلها أسرة واحدة ، ربُّها ومدبرها الله سبحانه وتعالى ، تنحدر منه حقوق الأخوة وواجباتها كما تستمد الأرض الضوء والطاقة من الشمس . إن المسيحى مطالب بحب أخيه الإنسان أياً كان ، لأن الله أبا الجميع أحبه (يوحنا ١٥ : ٩ ، ١٢) وإذا أراد الكمال ، عليه أن يذهب فى محبته للناس إلى درجة التغاضى عن الشر والظلم ، وإلى الصفح والتسامح ، لأنه هو نفسه فى أمس الحاجة إلى رحمة الله وعفوه ، وقد أكثر السيد المسيح من تحذير الناس مغبة القسوة وعدم التسامح ، حتى إنه جعل دخول الجنة مرتهناً بالعطف الصادق على ذى الحاجة : الفقير والجائع ، العريان ، والسجين[١٤] ، وبالصفح عن المسيء .

وأما جزاء الصالحين فى الآخرة ، فيصفه الانجيل بأنه التمتع برؤية الله والملكوت الذى أعده للذين يحبونه ، مكافأة على إيمانهم وأعمالهم ، أى على مقدار إخلاصهم لله وتلبيتهم لمشيئته ، مهما كلفهم ذلك من تحمل للشدائد ، أو أدى بهم إلى التعرض للاضطهاد والموت ، فالحياة الدنيا فانية ، والحرص على طاعة الله وعلى حياة النفس والروح أولى من الحرص على المال والبنين ، بل وعلى الحياة الدنيا نفسها .

الدعاة الأوائل

لقد أشرنا أكثر من مرة إلى رواية الأناجيل لحادث القيامة[١٥] ويفهم من رسائل القديس بولس[١٦] أن هذا الحادث كان فى نظره كما كان فى نظر المسيحيين الأوائل من أهم دعائم الدين الجديد[١٧] .

وقد فوجىء الرسل الحواريون[١٨] أنفسهم بالقيامة، بالرغم من تنبؤ سيدهم بها قبل موته ، حتى استبد بهم الاضطراب والشك عندما ظهر لهم ، ولم يصدقوا أعينهم وآذانهم إلا بعد أن قدم لهم السيد المسيح البراهين المثبتة لحقيقة شخصه ، على حسب رواية الأناجيل .

ويُفهم من قراءة كتاب الأعمال[١٩] ، أن الرسل اتخذوا من حادث القيامة أساساً لدعوتهم ونقطة البداية فى إعلان « البشرى الحسنة » بين البيئات اليهودية فى أورشليم[٢٠] وما جاورها من القرى ، غير آبهين بالمعارضة ولا بالتهديد والتعذيب .

وأما أسلوبهم فى التبشير ، فكان لا يستند إلى أساليب الإقناع العقلى من جدل وحكمة أو فلسفة ، بل عمدوا إلى رواية سيرة سيدهم ، وأعادوا على مسامع الناس تعاليمه وأمثاله وأخبار معجزاته[٢١] ، داعين الناس إلى الإيمان به والاعتماد باسمه ، والعمل على تطبيق تعاليمه ووصاياه . فاستجاب إلى ندائهم نفر كثير ، أغلبهم من الفقراء والطبقة الكادحة .

الاضطهادات

وأخذت مجتمعات متفرقة من الأتباع تتكون رويداً رويداً هنا وهناك . وسهر الرسل ومساعدوهم على تنظيم شئونها الدينية والاجتماعية وأحوالها الخاصة ، ثم نصبوا عليها شيوخاً وأساقفة ليكونوا لها رعاة ومرشدين .

وسرعان ما تنكر لهم المجتمع اليهودى ، كما كان قد تنكر لسيدهم من قبل ؛ فكان هذا حافزاً للرسل على أن يتجهوا إلى الشعوب غير اليهودية . فانتشروا فى الولايات الرومانية الشرقية ، واجتازوا آسيا الصغرى ثم بلاد اليونان ، إلى أن وصلوا إلى روما عاصمة الإمبراطورية . ونشطت فيها

حركتهم ، وازداد عدد أتباعهم ، إلى أن تنبهت الوثنية إلى خطرهم ، كما تنبهت لذلك الدولة نفسها ، فأشفقت من الخلاف وتفريق الشمل ؛ وكان نيرون[٢٢] أول إمبراطور أصدر أمراً بالقبض على المسيحيين وبمعاقبتهم ، وذلك بعد الحريق الذى أشعله فى روما ، سنة ٦٤ . وقد اقتدى بنيرون فى اضطهاده المسيحية عدد من الأباطرة ، كما أسلفنا فى أول هذا الباب .

وكان مقدراً لقسطنطين أن يوقف حملة القمع والاضطهاد هذه التى كانت صفحة سوداء فى تاريخ الامبراطورية الرومانية ، شأن كل قمع للحريات ، وأحقها بالتقديس حرية العقيدة الدينية .

المسيحية والحضارة الإغريقية الرومانية

وفى هذه الأثناء ، لم تثبت المسيحية الناشئة لما أصابها من خطوب ومحن فحسب ، لكنها أظهرت استعدادا قوياً لاستيعاب أهم مقومات التراث الرومانى اليونانى ، فأخذت تتقوى به وتتذرع لخوض معركة البقاء ولمنازلة العالم المثقف ، مستعينة عليه بسلاح العقل والفلسفة والمنطق . وكان سبيلها إلى هذ الغرض انضمام نخبة من كبار المفكرين إلى صفوفها ، جندوا مواهبهم فى خدمة الدين واتخذوا له من الفلسفة اليونانية ومن الفصاحة الرومانية قوالب راحوا يصبون فيها العقائد والمفاهيم ليخرجوها لمعاصريهم فى إطار قوى من الفكر المدعم والقول المتين المفحم ، استطاعوا به دحض الاتهامات التى عمدت إليها الوثنية فى نضالها للمحافظة على مكانتها بعد أن أصبحت مهددة بالتدهور والانهيار . وإذا كان من الغلو والإسراف القول بأن هؤلاء المفكرين ، أمثال جوستان وترتوليان وأوريجين Justin, Tertullien, Origène ، قد نجحوا فى إقناع أعدائهم بصدق مبادئهم ، أو استطاعوا أن يحملوا الدولة على تغيير سياسة

التفرقة والاضطهاد تجاه رعاياها المسيحيين ، إلا أنهم أدوا بكتاباتهم وأقوالهم رسالة لم تكن أقل أثراً من تلك التى أداها الشهداء بدمائهم .

الحركات الانفصالية

وسارت حركة التطعيم هذه ، تطعيم العقائد بالحجج والبراهين العقلية ، بخطى حثيثة ؛ فصيغت العقائد فى نصوص دقيقة ، ضماناً لثبات المعانى وحفظها من التطور اللغوى أو من تلاعب ناقصى الفهم أو أصحاب الأغراض .

ولم تكن صيانة التراث الدينى أمراً هيناً يسيراً ، فسرعان ما قامت الحركات الانفصالية ، متذرعة بالخلافات النظرية وبالحرص على سلامة الدين ، بينما كانت فى الحقيقة تأتمر بالعصبيات الإقليمية أو القومية ، كما كانت فى بعض الأحيان تسيرها حزازات ومطامع شخصية ، ليس للدين فيها ناقة ولا جمل . وسوف يتسع الشقاق ويؤدى إلى سوء الظن ، ثم إلى قيام الشيع والمذاهب وفصم عروة الوئام بين الكنائس المتفرقة فى البلاد ، فينفصل الأريوسيون بعد تحريم صاحبهم أريوس فى مجمع نيقية المسكونى عام ٣٢٥ ؛ وينشق النسطوريون عقب استنكار نظريتهم الخاصة بأقنوم السيد المسيح فى مجمع أفسس المسكونى عام ٤٣١ ؛ ثم ينفصل المونوفيزيتيون فى سوريا ومصر على أثر انعقاد مجمع خلقدونيا عام ٤٥١ ، وقد تلقبوا باليعقوبيين نسبة إلى أحد دعاتهم يعقوب البراديعى .

ونحن نجتزىء هنا بذكر بعض هـــذه الحركات الانفصالية التى تمت فى الفترة التى نخصها بالدراسة فى هـذا الكتاب ، وسنسرد أخبار الحركات الأخرى ، وأهمها الانشقاق الأرثوذكسى ، فى الجزء الثانى ، إن شاء الله .

النظام والإدارة

ولم تكن استفادة المسيحية من الحضارة الرومانية قاصرة على القطاع العقلي النظرى ، فامتدت أيضاً وشملت القطاع الإدارى . فقد اقتبست الكنيسة سواء من روما ، أو من القسطنطينية ، على مر السنين ، نظامهما الشامل الدقيق ، ما كان منه فى النطاق المحلى أو فى النطاق المركزى . أما فيما يتعلق بنظام الكنائس المتفرقة فى المدن والقرى ، فقد ذكرنا حرص الرؤساء على تكوين الجماعات المنظمة وإسناد شئونها الدينية والاجتماعية إلى شيوخ أتقياء مجربين ، على رأسهم أساقفة فكبار أساقفة ، ليتولوا رعايتها . وقد حرص هؤلاء بدورهم على إعداد من يصلح لأداء مهمتهم بعد موتهم ، وهكذا دواليك إلى أيامنا هذه .

وكان هؤلاء الرؤســـاء المحليون يستمدون نفوذهم الشرعى وسلطاتهم الدينية من رئيس أعلى هو البابا ، ومقره مدينة روما . وتنص رواية الأناجيل على أن السيد المسيح أسند السلطة الروحية العليا فى بيعته لأحد حوارييه وهو القديس بطرس(٢٣) ؛ واستشهد بطرس فى روما أيام نيرون ، فكان طبيعياً أن تنتقل زعامته لمن عينته الكنيسة خلفاً له على كرسى روما . وقد أبدى خلفاؤه بوجه عام استعداداً حسناً ومقدرة لا بأس بها على التطور والتكييف ، ولكنها اتخذت موقفاً حازما فيما يتعلق بالعقائد الأساسية ، التى تعتبرها موحاة ، فصمدت لموجات التبديل والتغيير باعتبارها بدعاً شديدة الخطر على الدين .

ولم يكد ينتهى القرن الثالث الميلادى حتى كانت عملية التطوير التى أجملناها قد بلغت شأواً بعيداً ، رغم العقبات التى وقفت فى سبيلها ، نجملها فى عداء العالم الرومانى وقتل كثير من الزعماء وعدم توفر الأمن والاستقرار ، بل

ورغم الخلافات الدينية الداخلية التى فرقت الكلمة وبعثرت الجهود . وبدت الكنيسة فى نظر كثير من العقلاء المشفقين على الحضارة الرومانية من الانهيار بسبب استشراء الفساد والانحلال الأخلاقى ، بدت وكأنها المرفأ الأمين الذى ينبغى على هذه الحضارة أن تعتصم به إذا ما رامت الحفاظ على التراث الإنسانى المهدد بالزوال .

ماهى الاعتبارات التى حدت الإمبراطور قسطنطين إلى قلب سياسة الدولة تجاه المسيحية ؟ أهى ما ذكرنا ؟ أم هى حكمة سياسية بعيدة النظر ، دفعت هذا الشاب الطموح إلى أن يستغل ما للمسيحية من نفوذ معنوى وروحى ومالها من أمانة وإخلاص ، فى محاولة ترميم صرح الدولة المتصدع ؟ . . مهما يكن من أمر ، فإن الخطوة التى أقدم قسطنطين على تنفيذها كانت جريئة جداً ، ولم يصرفه عن قصده قلة عدد المسيحيين بالنسبة إلى السواد الأعظم من رعايا الدولة[٢٤] ولا قلة نفوذهم السياسى . إلا أننا نكاد نفهم من سيرة هذا الإمبراطور أن ميله إلى المسيحيين كجماعة ينبغى الاعتماد عليها والانتفاع بمزاياها كان أوضح من ميله إلى المسيحية ذاتها ، ولا يخفى أنه لم يُقبِل على التعميد إلا قبيل وفاته .

ملاحظتان

ونرى قبل أن نختتم هذا الفصل أن نورد ملاحظتين قد تكونان سابقتين لأوانهما إلا أنهما ستلقيان ضوءاً ينير أمامنا السبيل فى الفصول التالية

١ — مركز البابوية

أولى هاتين الملاحظتين تتصل بالبابوية وبالدور السياسى والدنيوى الذى سوف تجد نفسها مضطرة إلى النهوض به .

إن هجمات البرابرة التى سنتناولها بالتفصيل فى الفصل الثالث ، وما استتبعها

من اضطراب وفساد فى نظام الدوله الغربية ، وفى روما على وجه الخصوص ، سوف تفرض على البابوات مهمة رعاية مصالح شعب روما وسكان المقاطعات المجاورة ، بدلا من الحكومة العاجزة المقصرة ، وسوف تؤدى بها هذه المهمة بدورها إلى تكوين دولة مستقلة ، يتحقق كيانها على يد ملوك الفرنجة الكارولنجيين كما سنرى فيما يلى(٢٥) . وهذه الدولة البابوية سوف تقوم بدور خطير فى تاريخ إيطاليا ، بل وفى تاريخ العالم المسيحى عامة ، إلى أن تقلصت ممتلكاتها لحساب الدولة الإيطالية الحديثة ، سنة ١٨٦٠ ، حتى أصبحت منذ سنة ١٨٧٠ لا تزيد على حى من أحياء مدينة روما .

وقد ترتب على هذه الظروف نفسها أن انتحت الكنيسة الغربية منحى استقلالياً بالنسبة إلى الدولة وسلطانها ، فأبت التدخل فى شئون الدين والعقيدة ، بينما ربطت الكنيسة الشرقية مصيرها بالبلاط الإمبراطورى البيزنطى ، فحظيت بمساندة الدولة لها ، إلا أنها تكلفت فى سبيل ذلك ثمناً باهظا ، فقد اعتبر كثير من الأباطرة أنفسهم وصاة وقيمين عليها ، فتدخلوا فى أمورها ، ومنهم من حاول البت فى الخلافات الدينية ، ومنهم من دفعه الغرور بسلطته إلى تحديد العقائد وفرضها على المخالفين بقوة القانون وحد السيف .

فلا تسل عن عاقبة هذه السياسة الدينية القصيرة النظر ، فى إمبراطورية مترامية الأطراف ، تضم أجناساً وقوميات ، ثقافاتها عريقة بقدر ما هى مختلفة متمايزة ، علماؤها شديدو المراس فى المناقشة والجدل بقدر ما كانوا حريصين على ألا تطغى السلطة المركزية المغالية فى حقوقها على قوميتهم ومقوماتها .

فلا عجب إن فقدت الدولة ولاء شطر كبير من رعاياها فى الولاية الواقعة على الحدود الشرقية ، ونخص بالذكر سوريا ومصر ، فوقف أهلها كالمتفرجين عندما دخل العرب بلادهم فاتحين وانتزعوها من رقعة الدولة البيزنطية ، وهم غير مكترثين ، بل وكثيراً ما كانوا مرحبين .

٢ — البرابرة والمذهب الكاثوليكى

وأما الملاحظة الثانية فتقتصر على الدولة الرومانية الغربية . فقد لاحظ المؤرخون أنه من بين الشعوب المتبربرة التى أنشأت دولا على حساب الدولة الرومانية لانكاد نجد غير الفرنجة الذين أسسوا دولة بقيت وعمرت وقامت بدور لا بأس به فى هضم الحضارة الرومانية وتنمية التراث الإنسانى . ويرى بعض المؤرخين أنه ليس من قبيل الصدف أن تكون هذه الدولة هى الوحيدة التى اعتنقت المسيحية على المذهب الكاثوليكى ، بينما كانت الشعوب المتبربرة الأخرى ، على المذهب الأريوسى ، ما عدا التتار (الهون) الوثنيين .

ويستدل المؤرخون من ذلك على مدى تأثير الكنيسة وسعة سلطانها ، كما يقفون على الدور الذى لعبته فى توصيل التراث الإنسانى وتربية الشعوب المتبربرة التى سوف تصبح نواة للدول الأوربية الحديثة .

شروح وتعليقات

(١) يرى المؤرخون أن ما حدا الامبراطور على اصدار منشور ميلانو ، اعتقاده أن النصر الذى أحرزه علىمنافسه مكسنتيوس Maxentius عند جسر ملفيوس Milvius انما هو مدين به للسيد المسيح ولعلامة الصليب الذى أمر بنقشه على الأعلام الامبراطورية ، عقب رؤيا ظهرت له قبل المعركة ، على حد رواية قسطنطين نفسه ، وهى رواية نقلها بعض المؤرخين بشىء من الحذر بل من الشك .

(٢) انج R. Inge ، نقلا عن تاريخ العالم ج ٤ : يذكر انج من سجل الأباطرة المضطهدين نيرون ، ودوميتيانوس وترايانوس، ومكسيمان القوطى، وديكيوس ، وفاليريانوس ، ودقلديانوس ، ومكسيميان ...

(٣) P. 1078, Grousset, Histoire Universelle, Tome I

(٤) ولفظة انجيل معربة من الكلمة اليونانية Εὐαγγέλιον ، ومعناها البشرى الحسنة ، أى بشرى مجىء السيد المسيح وبدء الدعوة الى ملكوت الله، « فقال لهم الملاك لا تخافوا فهاءنذا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب ». لوقا ٢ : ١٠ ، وسيأتى تفصيل ذلك فيما بعد .

(٥) متى « فانا رأينا نجمه فى المشرق فوامينا لنسجد له) متى ٢ : ٢ ، ثم أنظر لوقا ٢ : ١ ـ ٣٩

ولد السيد المسيح فى قرية صغيرة ، اسمها بيت لحم من أعمال فلسطين الجنوبية ، تقع على بعد ٨كيلومترات من بيت المقدس(أورشليم الكتاب المقدس). ويفهم من نص الأناجيل (لوقا ٢ : ١) ان المسيح ولد على اثر اعلان مرسوم قيصر أكتافيانوس أوغسطس بالاكتتاب العام ، فيكون بذلك مولده سنة٧٤٩ من تأسيس روما ، وهى تقابل السنة ٤ أو ٦ قبل الميلاد . ويرجع هذا الخطأ فى التقويم الى راهب اسمه ديونسيوس، حاول فى روما سنة ٥٤٠ بعد الميلاد تحديد سنة ميلاد السيد المسيح ، فأخطأ التقدير ٤ سنوات (أو ستة) ثم جاء شارلمان فعمم سنة ٨٠٠ التقويم الذى وضعه هذا الراهب وما زال قائما على هذا الخطأ حتى الآن .

(٦) « أجاب يسوع ان مملكتى ليست هذا العالم .. » يوحنا ١٨ : ٣٠

(٧) « واذ علم يسوع أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ويقيموه ملكا انصرف الى الجبل وحده » يوحنا ٦ : ١٥

(٨) لاتكاد الأناجيل تفيد الباحث شيئا عن هذه الفترة الطويلة من حياة السيد المسيح ، الا أن أبويه فرا به الى مصر خوفا من الملك هيرودس وهو لم يتجاوز بعد السنة الأولى من عمره ، ثم عادا به بعد موت هيرودس الى مدينة الناصرة فى مقاطعة الجليل ، شمالى فلسطين ، حيث عاش الى سن الثلاثين مع يوسف الذى كان يدعى أباه ، قائما بالأعمال اليدوية التى تستلزمها حياة القرية البسيطة الساذجة •

أنظر كتاب (حياة المسيح) للاستاذ عباس محمود العقاد •

(٩) ومن ذلك اليوم بدأ يسوع يبين لتلاميذه أنه ينبغى أن يمضى الى أورشليم ويتألم كثيرا من المشايخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل ويقوم فى اليوم الثالث » متى ١٦ : ٢١ ـ قارن متى ٢٦ : ٣١ ، ٣٢

(١٠) يوحنا ١٨ : ١ ـ ٤

(١١) السانهدران : المجلس الأكبر عند اليهود ، وكان يتكون من ٧١ عضوا ، منهم الكهنة والشيوخ والكتبة ، برياسة كبير الكهنة ، للنظر فى الأمور الجنائية والادارية الكبرى ، وكان له الحق فى انزال عقوبة الاعدام ، ولكن ، تحت الاحتلال الرومانى ، كان لا بد من تصديق الحاكم الرومانى على هذا الحكم ليستوجب التنفيذ •

(١٢) والأمثال عبارة عن قصص قصيرة ، متصلة اتصالا وثيقا بنواحى حياة المستمعين ، كان السيد المسيح يوردها بأسلوب بسيط ، لتكون قريبة الى الفهم فتصيب المعنى المراد عن طريق القياس والتشبيه ، نذكر منها :

مثال الابن الضال (لوقا ١٥ : ١١ الى ٢٤)
مثال الزارع (متى ١٣ : ١ الى ٢٣)
مثال العذارى الحكيمات والعذارى الجاهلات (متى ٢٥ : ١ الى ١٣)
مثال السامرى الصالح (لوقا ١٠ : ٢٥ الى ٣٧)

(١٣) من تعاليم الديانة المسيحية أن الانسان لا يستطيع أن يؤدى أعمالا صالحة ترضى الله ارضاء تاما الا بعون الله تعالى ، وهذه المعونة هى ما يسمى بالنعمة ، وهى مكفولة للانسان الذى يطلبها ، لان الله جل جلاله يعطف على الانسان ، ولأن السيد المسيح قد استحق للانسان هذه النعمة بحياته وآلامه وموته •

(١٤) « لا تدينوا لكى لا تدانوا فانكم ••• بالكيل الذى تكيلون يكال لكم» متى ٧ : ٢٩ قارن متى ٢٥ : ٣١ ـ ٤٦ •

(١٥) متى ٢٧ : ٦٢ الى ٢٨ : ١٥ مرقس ١٦ : ١ ـ ١٤
لوقا ٢٤ : ١ ـ ٣٤ يوحنا ٢٠ : ١ ـ ٢٩

(١٦) قارن بولس ، الرسالة الأولى الى الكورنثيين ١٥ : = ١ ـ ٥٨

لم يتتلمذ القديس بولس على السيد المسيح ، انما اعتنق المسيحية على أثر رؤية مشهورة ، وهو فى طريقه الى دمشق (الأعمال ٩ : ١ ـ ١٩) ولنا من

ما تشمئز النفس من سماعه ، وأشهر جرائمه احراق نصف مدينة روما سنة ٦٤ ، ثم الصاق هذه الجريمة بالمسيحيين وهو يحاول ابعاد التهمة عنه ، فأمر بحرقهم على أعمدة فى حدائقه ، وأخيرا نفد صبر الناس على الأذى ، فزحف القائد جاليا ، والى اسبانيا، على ايطاليا ، أما نيرون فانتحر ومات ميتة مزرية قبيل القبض عليه بلحظات .

(٢٣) « وأنا أقول لك أنت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبنى كنيستى » متى ١٦ : ١٣ ـ ١٩   قارن يوحنا ٢١ : ١٥ ـ ١٧

(٢٤) ذكر « فشر » فى كتابه « تاريخ أوروبا » نقلا عن المؤرخ «بيورى» أن عدد المسيحيين وقت ذاك كان بمقدار الخمس من سكان الامبراطورية ، بينما رأى غيره من المؤرخين أن عددهم كان قد بلغ نصف سكان القسم الشرقى وثلث سكان القسم الغربى . ونرى أن الرأى الثانى لا يخلو من الغلو .

(٢٥) أنظر الفصل السادس .

الفصل الثالث

هجرات القبائل المتبربرة

الموجـــز :

تمهيـــد : هذه الهجرات هى من أهم ظواهر العصور الوسطى .

١ ـــ قبائل المتبربرين قبيل الهجرات : التتـــار .

الجرمان الغربيون والشرقيون .

القوط الغربيون والشرقيون .

الونـــدال .

البرجنـديون .

اللبـارديون .

٢ ـــ الهجرات : القوط الغربيون ، سنة ٣٧٨

الوندال ، سنة ٤٠٦

البرجنديون ، سنة ٤١٣

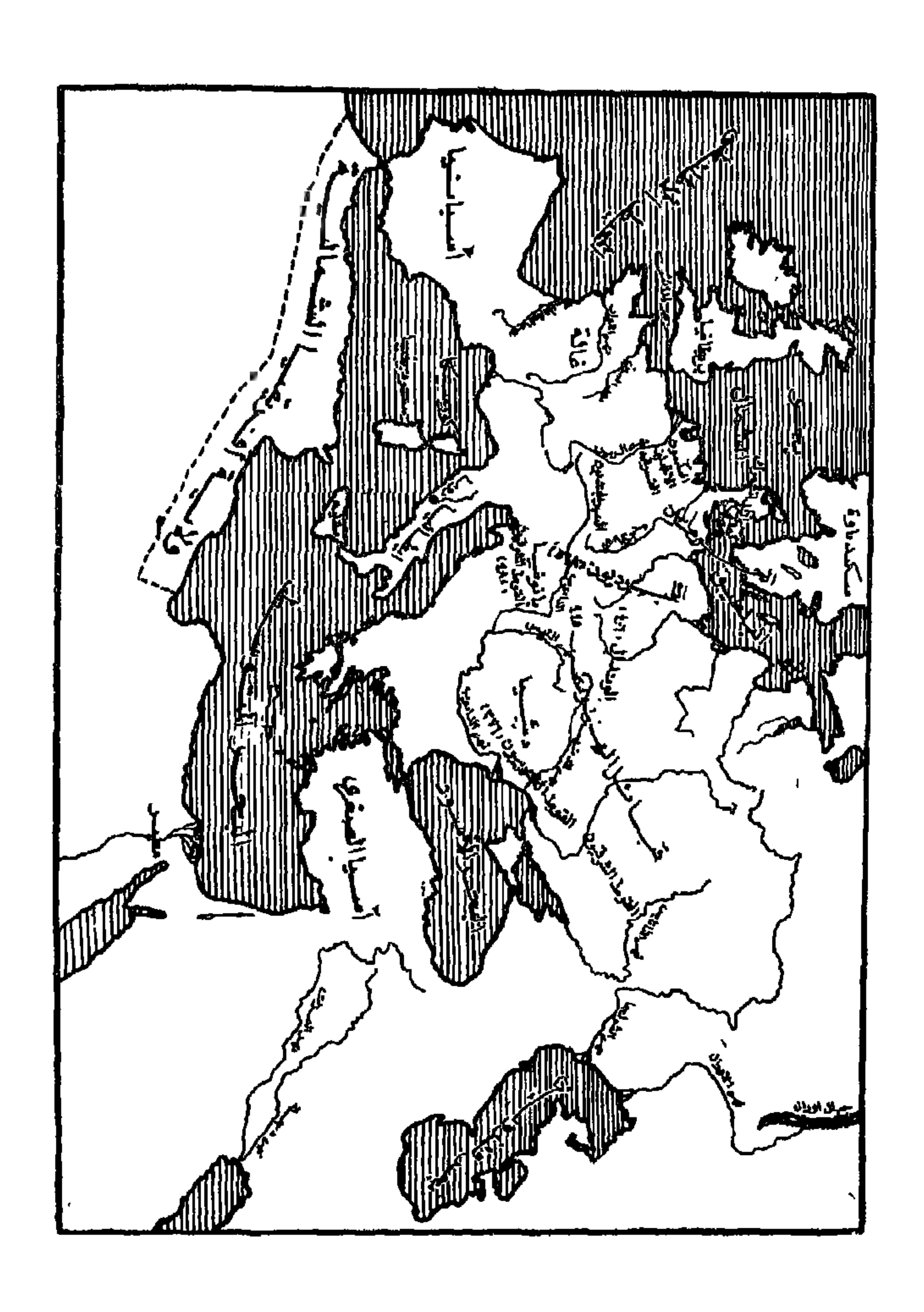
الهون ، سنة ٤٥١

السكسون والإنجليز ، سنة ٤٥٣

الهيروليون ، سنة ٤٧٦

القوط الشرقيون ، سنة ٤٨٩

اللمبارديون ، سنة ٥٦٥



تمهيـــد

كتب عبد الحميد العبادى فى الفصل الأول من كتابه (الدولة الإسلامية) :

« يقوم تاريخ العصور الوسطى على ثلاث ظواهر تاريخية .

فالظاهرة الأولى — هى انتشار الديانة المسيحية من فلسطين إلى غيرها من بلاد الدولة الرومانية الوثنية ، وذلك منـــذ أواخر العصور أى قبيل العصور الوسطى .

والظاهرة الثانية — هجرة القبائل التيوتونية — أى الجرمانية — من مواطنها إلى تلك البلاد الرومانية واستقرارها بالأقاليم الغربية منها مع اعتناقها المسيحية تدريجياً منذ القرن الرابع الميلادى .

أما الظاهرة الثالثة — فهى قيام الدين الإسلامى فى شبه جزيرة العرب واعتناق العرب الإسلام والتوسع العربى الإسلامى الكبير منـذ القرن السابع الميـــلادى . »

وبعـد أن عرضنا فى الفصـل الثانى للظاهرة الأولى ، سنتناول فى هـذا الفصل الظاهرة الثانية وهى هجرة القبائل الجرمانية إلى البـــلاد الرومانية واستقرارها فيها .

ونرى لزاماً علينا ، إمعاناً فى التيسير والتوضيح ، أن نعرف القارئ بهذه القبائل أولا ، فنذكر بإيجاز مهد كل قبيلة أو شعب ، ثم فروعه أو فصائله ، ثم منازله قبيل الشروع فى هجرته إلى الأراضى الرومانية ، وسيكون هذا تمهيداً لدراسة الهجرات ذاتها بشىء من التفصيل .

البرابرة قبيل الهجرات

تكاد تنتمى جميع القبائل المتبربرة إلى أرومتين : المغول التتار ، وهم من جنس أورال ألتاى ، والجرمان الاسكندناويين .

ولا علينا أن نهمل شأن جماعات أخرى ، كالصقالبة والآفار مثلا ، لقلة شأنهم فى الفترة التى نحن فى صـــدد دراستها ، بالقياس إلى أثر المغول أو الجرمان .

(١) التتــار Tartares

نقصد بهذه التسمية قبائل الهون Huns ، وهى من القبائل المغولية المرتحلة . اندفعوا إلى أوروبا لأسباب مجهولة — قد تكون نتيجة للضغط الذى تعرضوا إليه من جانب إمبراطورية جوان جوان (١) فى آسيا ، فنزحوا من جنوب غربى آسيا واحتلوا الأراضى الممتدة ما بين بحر قزوين والبحر الأسود . وفجأة بدأ نشاطهم فى الركن الشمالى الشرقى من العالم الرومانى فى بلاد داشيا ، رومانيا الحالية ، عام ٣٧٢ ، إذ انقضوا على القوط فأخضعوا الشرقيين منهم وأدخلوهم تحت حكمهم ، بينما طاردوا الغربيين صوب حدود نهر الدانوب إلى الجنوب ، حيث وصلوا عام ٣٧٦ ، كما سنبين فيما بعد .

غير أن سنة ٤٤٥ شهدت تولية أتيلا ملكا عليهم ، فبدأ بإرساء أركان مملكة واسعة الأرجاء ، بإخضاع القبائل الجرمانية والصقالبية التى كانت تقطن ما بين بحر البلطيك ، وكان يسمى إذ ذاك Mare Suevicum ، والبحر الأسود ، ونهر التانايس Tanais ونهر الإلب Elbe . وبعد هذا التمهيد أخذ أتيلا يعد العدة لغزو الإمبراطورية الرومانية كما سنبينه فى أوانه .

(٢) الجرمان Germains

يرى المؤرخون أن موطن الجرمان أو التيوتون Teutons الأصلي شبه جزيرة اسكندناوة Scandinavia والدانمرك Danemark وما يجاوره من أعمال ألمانيا الشمالية الحالية .

(ا) أما الجرمان الغربيون الذين كانوا يقطنون المقاطعات الغربية ذات المياه والمراعى والأراضى الخصيبة ، فقد آثروا حياة الاستقرار واحترفوا الرعى ثم الزراعة ، ما عدا قبائل السكسون والإنجليز الذين كانوا يعيشون على البحر ، فآثروا حياة المغامرة والقرصنة فى بحر الشمال ومضيق بحر المانش Manche .

وأهم قبائل الجرمان الغربيين دون شك قبائل الفرنجة Francs الذين يدخلون فى التاريخ لأول مرة فى عهد الإمبراطور جورديانوس Gordianus الثالث (٢٣٨ — ٢٤٤) ، فحاربهم القائد التريبيون أورليانوس وحاول صدهم عن بلاد الغال Gaule ، سنة ٢٤١ ، غير أنهم أخذوا يتسللون رويداً رويداً دون أن تتخذ حركتهم صفة الهجرة الشاملة أو الغزو العنيف .

ولم تمر العقود الأولى من القرن الرابع ، إلا وكانوا قد استقروا فى حوض نهر الراين Rhin أو Rhenus ، وكونوا مجموعتين : السالبين Saliens أى البحريين ، والريبواريين Ripuaires أى البريين ، وسوف يتزعم الساليون حركة توسع قوية ، تمكنهم من السيطرة على بلاد الغال بأسرها .

(ب) الجرمان الشرقيون . وأما الفرع الآخر من الجرمان فهم الجرمان الشرقيون ، ولعل الظروف هى التى جعلت حب المغامرة والحرب تطغى على طباع هذه الفئة التى أطلق عليها اسم الجرمان الشرقيين لأنهم لم يميلوا صوب الغرب كإخوانهم الغربيين ، ولكنهم استمروا فى زحفهم تجاه الجنوب الغربى ،

فصادفوا بقاعا موحشة وغابات كثيفة مخيفة وعرة ، خلاف ما كان من نصيب إخوانهم الغربيين ، فباتوا على عنفهم وحبهم للتشاجر والمقامرة وشهوتهم للحرب ، لا يعرفون نظاما سوى خضوعهم لقوادهم فى فترات القتال خضوعا أعمى لا يدانيه سوى حبهم للحرية الشخصية ونزعتهم للروح الديموقراطية فى وقت السلم .

ولم يكن الجرمان الشرقيون أمة واحدة ، فلم تلبث الأحداث أن فرقتهم إلى فروع متعددة ، أهمها القوط والوندال والبرجنديون واللمبارديون .

(١) القوط Goths . تنقسم الأرومة القوطية إلى فرعين : الغربى والشرقى .

أما القوط الغربيون Wisigoths ، فكانوا بعد نزوحهم من شمالى أوروبا قد استوطنوا حوض نهر الدنيستر فى داشيا[٢] إلا أن الهون الذين انتابتهم الحمى الحربية فى الربع الأخير من القرن الرابع انقضوا عليهم وأوقعوا بهم الهزيمة عام ٣٧٢ ، ففرت فلولهم صوب الجنوب خوفا من أن يستعبدهم الهون كما فعلوا بإخوانهم الشرقيين ، وتوقفوا على حدود الدولة الرومانية الشرقية على نهر الدانوب ، عام ٣٧٦ ، ملتمسين من الإمبراطور فالنز[٣] Valens الملجأ والمأوى ، وكان عددهم نحو ٨٠ ألفاً .

وأما القوط الشرقيون فقد قوض الهون ملكهم سنة ٣٧٢ وأخضعوهم لسلطانهم وأدمجوهم فى جموعهم المتنقلة ، فاضطروا إلى مشاركتهم فى غزواتهم وحروبهم ، لا سيما فى أثناء زعامة أتيلا (٤٤٥ — ٤٥٣) ، إلا أن موت هذا الطاغية الجبار سنة ٤٥٣ ذهب بالقوة التى كانت تؤلف بين أشتات القبائل الخاضعة للهون ، فثارت لحريتها المسلوبة ، بزعامة قبائل الجيبيدى ، وأنزلت الهزيمة بالهون على نهر تيداو Tidao فى سهول بانونيا Pannonia ، وبقى القوط الشرقيون فى هذا الإقليم يتقلبون فى حياتهم العشائرية التى سادها طابع الضيق والعنف المترتب على طبيعة الأرض الوعرة وظهور الزعماء وسقوطهم ، الأمر الذى جعل المؤرخين يصفون هذه الفترة

بطابع التغير ، إلى أن وليهم حاكم عرف باسم تيودوريك Théodoric — وهو لفظ محرف من كلمة تيوداريكو القوطية الذى معناها حاكم القوط — فانتخبته قبيلة من قبائلهم ملكا ، وكان نشطا طموحا ، فاستطاع أن يوحد صفوف القوط الشرقيين ، ثم زحف على شبه جزيرة البلقان ليلتمس من الإمبراطور موطناً لشعبه فى مقدونيا ووظيفة رفيعة فى إدارة الدولة ، فحقق له الإمبراطور أمنيته سنة ٤٨٤ .

ب — الوندال ، Vandales . نزحوا من جرمانيا فراراً من الهون ، قاصدين حوض نهر الدانوب ، سنة ٤٠٦ ، غير أنهم ما لبثوا أن انقسموا إلى جماعتين ، اتخذت إحداهما طريق إيطاليا ، بينما اتجهت الأخرى صوب الشمال الغربى قاصدة بلاد غالة .

حـ — البرجنديون ، Burgondes . كانوا يقطنون شمال جرمانيا ثم أخذوا يتسللون غرباً إلى أن وصلوا نهر الراين وعبروه إلى غالة ، فى أوائل القرن الخامس .

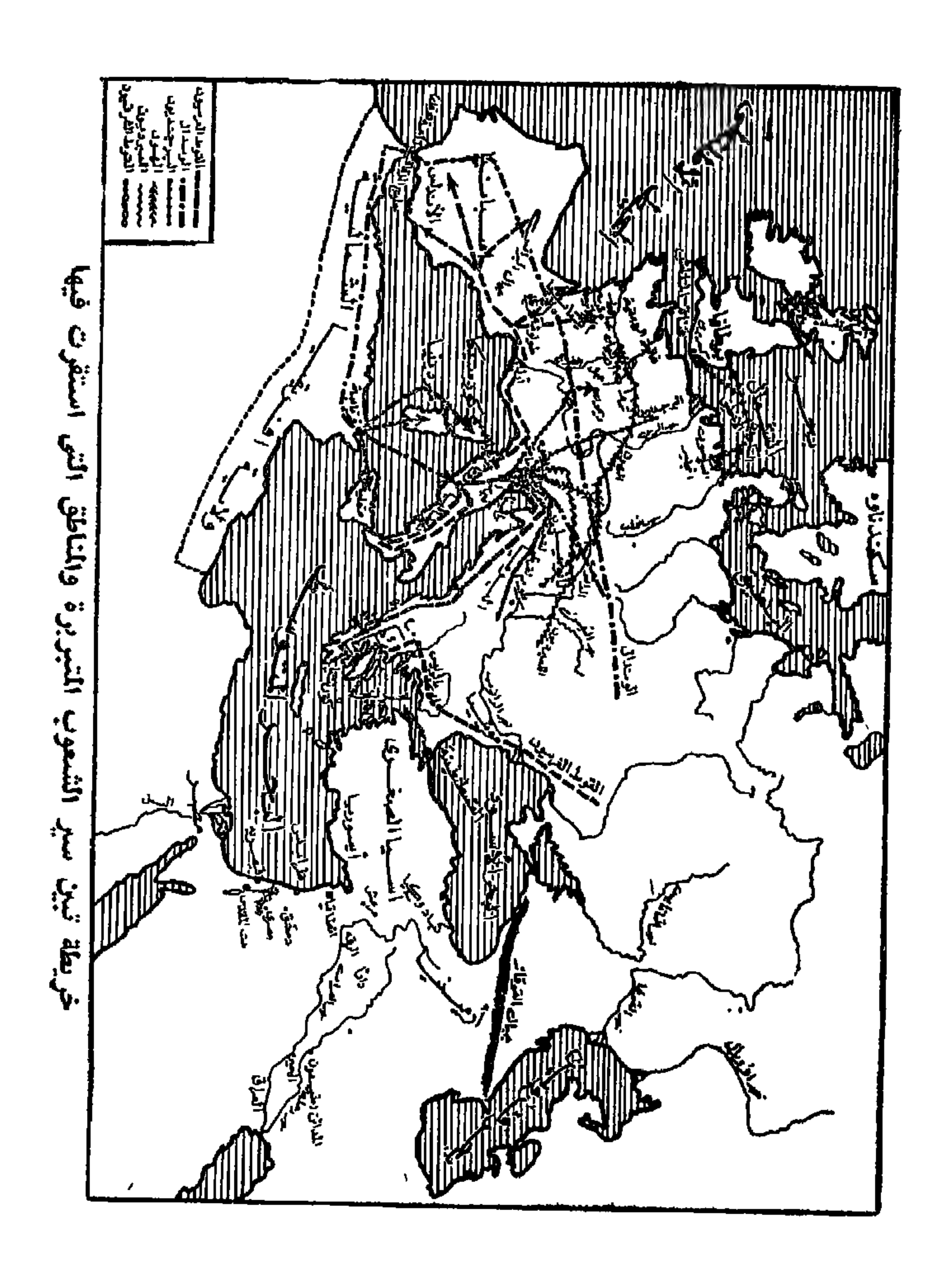
ى — اللمبارديون ، Lombards . اشتهرت قبائل اللمبارديين بقوة بأسها وشجاعتها ، رغم قلة عدد أفرادها . ونزح اللمبارديون من حوض نهر الإلب Elbe فى جرمانيا ، فى القرن الرابع ، متجهين صوب الجنوب ، والتقوا بالحضارة الرومانية الشرقية على نهر الدانوب ، واعتنقوا المسيحية على المذهب الأريوسى . لكن الهون ثم الهيروليين أخضعوهم لحكمهم ؛ غير أنهم استطاعوا أن يهزموا الهيروليين عام ٥٠٨ ، بعد مقتل أدواكر (٤٩٣) واحتلوا بانونيا ؛ وظلوا على حالهم زمن حكم الملك تيودوريك العظيم Théodoric le Grand القوطى على إيطاليا . ولما تولى زعامتهم الملك الطموح البوان Alboin (٥٦٨ — ٥٧٣)[٥] وجد الفرصة سانحة لغزو إيطاليا .

٢ — الهجرات

كان لابد من هذا التعريف الموجز، لتيسير إدراك معالم هذه الحقبة المعقدة من التاريخ. ونستطيع الآن أن نتتبع موجات الغزو المختلفة، لنقف على مدى الانقلاب الذى أحدثته فى ملامح الدولة الرومانية، هذا الانقلاب الذى سوف تتمخض عنه الدول الحديثة فى أوروبا. وسنتخذ بداية لهذا العرض تاريخ أول هجوم شنته كل جماعة من الجماعات والشعوب المتبربرة، وهو عبارة عن بداية نزوحها من مواطنها، كما أسلفنا، لاقتحام حدود الإمبراطورية الرومانية؛ ثم سنتتبعها موجزين، إلى أن يتبين لنا مصيرها واضحاً فى صفحات التاريخ.

(١) القوط الغربيون Wisigoths

انتهى المطاف بالقوط الغربيين المطارَدين من الهون إلى حدود نهر الدانوب الأدنى، فأذن لهم الإمبراطور فالنز مُكرها بالاستيطان فى إقليم موئيسيا[٦] Moesia، على ألا يعبروا الحدود إلا بعد إلقاء أسلحتهم. لكن الحكومة الإمبراطورية عجزت عن إخضاعهم لهذا الشرط، كما عجزت عن استيعاب هذه الجموع الغفيرة من الرحّل — وقد بلغ عددهم ٨٠ ألفاً — فنشبت الاضطرابات، ثم قامت الحرب، وكانت آخرتها انهزامَ فالنز وقتله قرب أدريانوبوليس[٧] Adrianopolis، سنة ٣٧٨، بفضل فرق الخيالة البرابرة — وكان استعمالها جديداً على الرومان. ورأى تيودوسيوس[٨] Theodosius الإمبراطور الجديد، أن سياسة اللين قد تكون أجدى لإدماج هؤلاء المتبربرين ثم هضمهم، لكنه مات سنة ٣٩٥، وانقلبت سياسة الدولة فى الشرق على يد ابنه المستضعف أركاديوس Arcadius، فثار القوط الغربيون بزعامة ملكهم ألاريك Alaric وراحوا يدمرون جنوبى شبه جزيرة البلقان، فاضطر أركاديوس إلى العودة إلى سياسة أبيه، واسترضى ألاريك بتعيينه قائداً على جند الليريا، فأوقف



خريطة تبين سير الشعوب المتبربرة والمناطق التى استقرت فيها

أعمال التخريب ويمم شطر إيطاليا الشمالية ، عام ٤٠١ ؛ ولكن ستيلخو[٩] Stilicon تصدى له فى بولنسيا Pollentia ، حيث هزمه عام ٤٠٢ ، ثم عاد فهزمه مرة ثانية بالقرب من فيرونا فى السنة التالية واضطره للجلاء عن إيطاليا .

لكن لم تلبث أن استجدت ظروف دفعت ألاريك إلى العودة : منها أن السناتو ذاته أغراه بالمال ليتصدى لقوات القائد قسطنطين[١٠] Constantin المغتصب للقب الإمبراطور ، ومنها إعدام ستيلخو بتهمة الخيانة ، ومنها انحياز عدد كبير من المتبربرين المرتزقة فى جيش إيطاليا إلى جيش القوط بعد المذبحة التى أعقبت قتل ستيلخو . فاستولى ألاريك على روما سنة ٤١٠ ، واستباحها جنده ثلاثة أيام . لكنه مات سنة ٤١٢ ، فارتد القوط الغربيون إلى الشمال ثم اجتاحوا غالة الجنوبية ودخلوا أسبانيا ، وقد كان الوندال قد سبقوهم إليها ؛ واضطر إمبراطور الغرب هونوريوس Honorius بدوره إلى الرجوع إلى سياسة المسالمة والضيافة القهرية التى سار عليها والده تيودوسيوس ، فتعاهد مع القوط وأدخلهم فى خدمته ومنحهم أرض أكيتانيا[١١] Aquitania مكافأة لهم على تطهير بلاد الأسبان من العناصر المتبربرة الأخرى ، فتأسست بذلك مملكة تولوزا Tolosa ، سنة ٤١٨ ، وقد امتدت على جانبي جبال البرانس وشملت فى أوج عظمتها — أيام الملك يوريك[١٢] Euric (٤٦٦ — ٤٨٤) — الأراضى الممتدة من نهر اللوار شمالا إلى خليج الزقاق (جبل طارق) جنوباً ، باستثناء الركن الشمالى الغربى من أسبانيا .

وكان القوط الغربيون مسيحيين على المذهب الأريوسى ، فلم يندمجوا فى سكان غالة الكاثوليك ، وهم المعروفون باسم الغالورومان ؛ لذلك ساند الأساقفة كلوفيس ملك الفرنجة فى محاربته إياهم وطردهم من بلاد الغال ، بعد معركة فوييه[١٣] Vouillé ، سنة ٥١٧ ، فانحصر ملكهم فى أسبانيا ، واستمر إلى الفتح العربى .

(٢) الوندال Vandales ، سنة ٤٠٦

إن نشاط الهون المؤذن بهجماتهم الرهيبة دفع قبائل الوندال إلى الفرار من جرمانيا ؛ فقصدوا نهر الدانوب ، ولكنهم انقسموا إلى جماعتين ، جماعة اتجهت إلى إيطاليا بزعامة راداجايسوس Radagaisus ، فاصطدمت بستيليخو فى جبال فيزولا بالقرب من فلورنسيا Florentia ، فهزمهم وأبادهم سنة ٤٠٦ ؛ واتجهت الجماعة الأخرى غرباً إلى بلاد غالة حيث مكثوا سنتين فى الجنوب بمقاطعة أكتانيا ، ثم اجتازوا جبال البرانس واستوطنوا جنوبى أسبانيا سنة ٤٢٩ ، إلى أن استدعاهم إلى شمال أفريقيا الوالى الرومانى بونيفاكيوس[١٤] Bonifacius ، بعد أن خرج على طاعة الإمبراطور ؛ فقدموا ولكنهم استولوا على البلاد لحسابهم ، وبعد عشر سنوات كلها حروب وتخريب ، أسس ملكهم جنسريك دولة قوية ، استندت إلى بحرية عظيمة ، وكانت عاصمتها قرطاجة ، سنة ٤٣٩ . وغزا أسطوله جزيرتى كورسيكا Corsica وسردينيا Sardinia وجانباً من صقلية Sicilia ؛ ولما كانت سنة ٤٥٥ ، استدعته إيودوكسيا[١٥] Eudoxia أرملة الإمبراطور فالنتينيانوس فى الغرب ، فأسرع إلى روما واستباحها مدة أسبوعين بوحشية لا مثيل لها ، بقيت وصمة عار مقرونة بالوندال .

وتواترت الروايات أن جنسريك عمد إلى جميع وسائل الحيلة والدهاء ليؤلب الدول المتبربرة على الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، ليشغل عنه الجيوش الرومانية ، كما أخذ يحرض أتيلا ملك الهون على غزو أوربا الغربية ؛ ومهما يكن من شيء ، فإن بليزاريوس Belisarius قائد جستنيان هزم الوندال هزيمة لا بعث بعدها وقوض ملكهم عام ٥٣٣ .

(٣) البرجنديون Burgondes ، سنة ٤١٣

تسلل البرجنديون من جرمانيا الشمالية إلى حوض نهر الراين فى زمرة الشعوب التى قادها راداجايسوس ، زعيم السويفى عام ٤٠٦ ، لمحاصرة فلورنسيا ،

لعل ذلك كان بدافع ضغط قبائل الجبيدى Gépides . لكن ستليخو ، رغم قلة عدة جيشه ، إذ لم يكن لديه معه سوى ٣٠ ألفاً بينما بلغ جيش المتبربرين ٢٠٠ ألف ، أوقع بهم الهزيمة ، كما أسلفنا فى جبال فيزولا ، سنة ٤٠٦ ، وفرت جحافلهم على أعقابها تجاه الغرب ، منتشرة كالسيل العارم ، فاتجه اللان والوندال صوب جبال البرانس وعبروها إلى أسبانيا ، بينما استقر البرجنديون فى حوض نهرى السون والرون الأعلى ، عام ٤١٣ ، وكانوا قـــد اعتنقوا المسيحية على مذهب أريوس ، وكانوا أقل عنفاً وألين عريكة من اللان أو الوندال ، فهيأت لهم حياةُ الاستقرار ، سبل الارتقاء فى مدارج التمدن .

وجرى معهم الإمبراطور هونوريوس على مبـدأ الاستضافة المعروف ، فأقرهم فيما اغتصبوه من أملاك الدولة ، على أن يحموا ممرات جبال الألب من غزوات القبائل الجرمانية الأخرى .

وبذا تأسست المملكة البرجندية عام ٤١٣ ، وكان ملكها حينئذ جنديكير ولم يقدر لها أن تعمر طويلا ؛ ولما كان كلوفيس ملك الفرنجة قد ضم إلى مملكته مقاطعة الغالوروما ، ومملكة الألليمانى ، ما بين نهر الراين وجبال الفوج ، فرأى أن يتذرع بعداء ملك برجنديا لأسرة زوجه كلوتيلد ، فغزا بلاده وهزم البرجنديين فى موقعـة ديجون ، سنة ٥٠٠ ، وفرض عليهم الجزية السنوية ؛ ولكنه لم يقوض عرشهم ، فعمّر بعد ذلك ٣١ سنة ، إلى أن أزاله ابنا كلوفيس كلوتير وشيلدبير ، سنة ٥٣١ .

(٤) الهون Huns ، سنة ٤٥١

أخذ شر الهون يتفاقم كما أسلفنا عندما تولى الزعامة عليهم الملك أتيلا ، عام ٤٤٥ ، فأخضع ما بقى من القبائل الجرمانية وأنشأ فى جرمانيا مملكة واسعة الأرجاء ، ثم عبر نهر الدانوب ، ودمر فى طريقه إلى القسطنطينية ٧٠ مدينة ؛ فأسرع الإمبراطور تيودسيوس إلى شراء انسحابه بمنحه مقاطعات واسعة فى حوض نهر الدانوب ، وبتعهده بدفع الجزية السنوية .

أما الإمبراطور مركيانوس ، وكان جندياً شجاعاً ، فأبى هذا الذل ، وقال لمبعوثى أتيلا : إنى أحتفظ بالذهب لأصدقائى وأما أعدائى فلدىّ ما يكفيهم من الحديد والنار .

هل أثّر هذا الجواب فى أتيلا ؟ أم فضل الطاغيةُ أن يستجيب لتحريض جانسريك على غزو بلاد الغال ؟ مهما يكن من أمر ، فقد توجه أتيلا إلى الغرب مدمراً كل مقاومة ، وضرب الحصار حول مدينة أورليان ؛ لكن قدوم القائد الرومانى أيتيوس[١٦] AEtius على رأس جيش كبير من الفرنجة والقوط الغربيين والغالورومان ، أقنع أتيلا بالانسحاب ، فتعقبه أيتيوس والتحم الجيشان بالقرب من مدينة تروّا ، عام ٤٥١ ، فارتد أتيلا مهزوما ، وعبر نهر الراين قافلا إلى جرمانيا .

ولكنه أعاد الكرة مرة أخرى فى السنة التالية وزحف بجحافله المتوحشة ، فاجتاز إيطاليا الشمالية وسار إلى الجنوب مهدداً مدينة روما ، إلا أن البابا ليو الأول Leo (بابا من ٤٤٠ إلى ٤٦١)[١٧] استطاع بالتحذير وبالمال أن يقنعه بالعدول عن مواصلة السير إلى روما ، فعاد إلى بانونيا . وكان موته ، عام ٤٥٣ ، إيذاناً بحركة تمرد عنيفة بين القبائل الجرمانية التابعة ، أمثال القـــوط الشرقيـين والجيبيدى Gépides والهيروليين Hérules ، فتحررت من ربقة الهون بعد انتصارها عليهم فى بانونيا عام ٤٥٣ ، كما أسلفنا ؛ أما ما بقى من الهون فعاشوا مستضعفين فى حوض الدانوب الأسفل (موئيسيا) .

(٥) السكسون والانجليز Saxons, Angles ، سنة ٤٥٣

إن هجمات البرابرة على إيطاليا منذ أوائل القرن الخامس أدت إلى سحب القوات الرومانية من الأطراف غير المهددة — ومنها الجزيرة البريطانية ،

فتجرأت جموع الكلت والبكتيين الذين كانت روما قد حشرتهم فى شمال الجزيرة خلف الحائط الذى شيده الإمبراطور هاردريانوس Hadrianus سنة ١٢٣ ، بعد أن عجزت القوات الرومانية عن إخضاعهم ، فأخذوا يجهزون الحملات على البريطان ، ولما تفاقم شرهم ، استنجد البريطان سنة ٤٥٣ ، بقوم من القراصنة من قبائل السكسون ؛ لكن المغيثين أبوا الرحيل بعد انتهاء مهمتهم ، واستقروا فى الجنوب وأنشأوا أربع مقاطعات أو ممالك ما بين سنتى ٤٩١ ، ٥٢٦ ؛ وما لبث إخوانهم الإنجليز أن حذوا حذوهم سنة ٥١٧ ، فنزلوا فى بريطانيا وأسسوا بدورهم ثلاث ممالك بين سنتى ٥١٧ و ٥٤٨ ، وتوحدت هذه الممالك مع الممالك السكسونية ، مكونة « الممالك الإنجليزية السكسونية السبعة » .

ونشطت الحركة المسيحية بعد قدوم الراهب أغسطين[١٩] Augustin ، وقام رئيس أساقفة كنتربرى Cantorbery ، تيودور الطرسوسى ، بدور حاسم فى التنظيم الكنسى ، كما ترتب على جهوده ظهور الوعى القومى فى بريطانيا . وراح يعمل جاهداً على تطعيم الحضارة الإنجليزية بالتراث الأغريقى الرومانى ، فمهد لمدرسة يورك York ، التى كان لها أكبر الفضل فى نشر الثقافة فى أوربا ، كما مهد لظهور شخصيتين تمثّل فيهما امتزاج الثقافة القديمة بالحديثة أصدق تمثيل ، الأولى شخصية بيدا الوقور Bède le Vénérable ، باعث الأدب الانجليزى ، والثانية شخصية الكوين Alcuin ، صاحب الفضل الأكبر فى النهضة المدرسية والعلمية فى مملكة شارلمان .

(٦) الهيروليون Hérules ، سنة ٤٧٦

كانت الحقبة التى مرت بها الإمبراطورية الغربية ما بين نهب روما على يد جانسريك ملك الوندال ، سنة ٤٥٥ كما تقدم ، والقضاء على الإمبراطورية الغربية سنة ٤٧٦ ، من أعصب الحقب ؛ ولم يبالغ المؤرخون الذين وصفوها بفترة الاحتضار ، لما سادها من اضطراب شامل وفوضى

منقطعة النظير ؛ واستولى الخوف على السكان من جراء تأليات الجيوش المتوحشة التى كانت تسمى بالرومانية والتى كان منوط بها السهر على الحضارة والسلام الرومانى . والذى زاد الطين بلة أن الإمبراطورية لم تعدم الرجال الأكفاء الجديرين بإنقاذ الموقف فحسب ، لكن المناصب الكبرى ، دون استثناء منصب الإمبراطور ، أصبحت نهباً للأهواء والمطامع ، كما أصبحت السلطة العسكرية أداة طيعة لتحقيق المآرب الشخصية ؛ وهذه الأداة نفسها ، أى الجيش ، كادت تحتكرها القبائل البربرية ، فجُنّدت وهى محتفظة بنظامها وبوحدتها القبلية ، بل وبزعمائها . فهل من الغريب أن يؤول الأمر بأحد هؤلاء الزعماء إلى السأم من إحداث الانقلابات لحساب غيره ، وأن يطمع على الأقل بشىء من الاستقرار لقومه وبمنصب رفيع لنفسه ؟ هذه بإيجاز هى قصة أدواكر Odoacer[٢٠] زعيم الهيروليين .

والهيروليون من قبائل الجرمان الذين تحرروا من نير الهون بعد موت أتيلا ، سنة ٤٥٣ ، ثم دخلوا فى خدمة الإمبراطورية الغربية واستُعملوا كغيرهم من البرابرة أداة لخلع الأباطرة وتنصيب القواد وأبناء القواد الأطفال . ولما التمس زعيمهم أدواكر من والد الإمبراطور الطفل أن يستقطعه ثلث إيطاليا ليستقر فيها قومُه ، استعظم الوصىُّ الأمر ، فلم يكن من أدواكر إلا أن ثار مع قومه وأسر هذا الوصى ، واسمه أوريستيز[٢١] Orestis ، فى بافيا Pavia ، وأمر بقتله ثم نفى ابنه روميلوس أوغسطولوس Romulus Augustutus وأعلن نهاية الإمبراطورية الغربية وإلحاقها بالإمبراطورية الشرقية . تم لأدواكر كل ذلك دون أن يفطن أحد إلى خطورة هذا الحادث وأهميته ، ولا إمبراطور الشرق زينون Zeno[٢٢] نفسه ، صاحب القسطنطينية ، الذى أنعم على أدواكر بلقب البطريق أى الحاكم على إيطاليا . فحكم هذا المتبربر أرض الرومان كملك مستقل ، إلى سنة ٤٨٩ .

(٧) القوط الشرقيون Ostrogoths ، سنة ٤٨٩

بقى القوط الشرقيون فى بانونيا ، منذ سنة ٤٥٤ . فلما انتخبوا تيودوريك العظيم زعيما ، سنة ٤٧١ ، زحف على الدانوب الأسفل مطالباً الإمبراطور ليو الأول[٢٣] Leo (٤٦٧ — ٤٧٤) بمقاطعة مقدونيا ليستقر فيها قومُه ، كما طالبه بوظيفة رفيعة من وظائف الدولة ، أسوة بكثير من القواد البرابرة . فلم يجد زينون مفراً من تعيينه بطريقاً وقنصلا ، سنة ٤٨٤ ؛ ثم أسرع إلى تلبية رغبته ، فأرسله إلى إيطاليا لطرد أدواكر .

غزا تيودوريك إيطاليا وهزم الهيرول واضطرهم إلى الاعتصام فى رافنا Ravenna ، ثم ضرب حولها حصاراً دام ثلاث سنوات دون نتيجة حاسمة ، فتظاهر بمسالمة أدواكر ليظفر به ، وقتله فى مأدبة دعاه إلى حضورها ثم أجرى مذبحة بين قواده وجنده سنة ٤٩٣ ، فخلا له المسرح وحكم إيطاليا من سنة ٤٩٣ إلى موته فى سنة ٥٢٦ ، حكما كأحسن ما يمكن أن ينهض به ملك عريق الحضارة ، بعد أن اعترف به إمبراطور الشرق وأقره على العرش .

وأبدى تيودوريك رغبة صادقة فعّالة فى دفع قومه فى ركب الحضارة الرومانية ، فترك الوظائف المدنية فى يد الرومان ، وسار على التشريع الرومانى ، وسادت سياسته روحٌ قوية من السماحة الدينية تجاه الإيطاليين الكاثوليك ، وكان القوط مسيحيين على المذهب الأريوسى . ورغم ذلك لم يَقبل الإيطاليون حكمه ولم يرضوا به ، ولعل هذا هو أحد أسباب الغيظ والقسوة التى أساءت إلى سمعته فى أواخر سنوات حكمه .

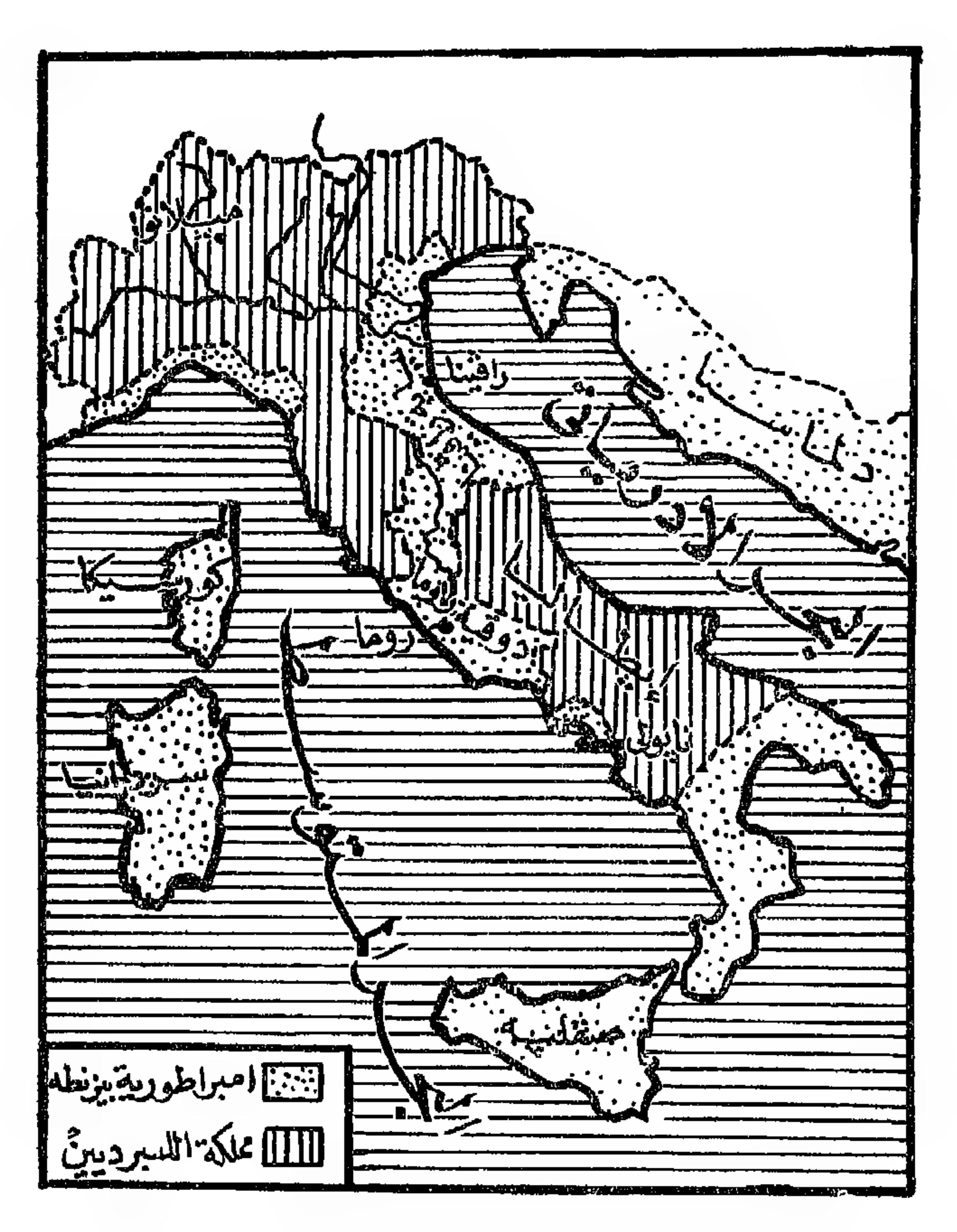
لما مات تيودوريك سنة ٥٢٦ كان خلفاؤه أعجز عن أن ينهضوا بأعباء الملك ، وشغلهم التشاحن على العرش ، فأطمع فيهم الإمبراطور جستنيان ، فأنفذ قائده بليزاريوس ، فاستولى على صقلية ، سنة ٥٣٥ ، وسقطت

العاصمة ، رافنا ، سنة ٥٤٠ . لكن القوط ثاروا بزعامة توتيلا[٢٤] Totila ، سنة ٥٤١ ، واستردوا جنوب إيطاليا وإيطاليا الوسطى ، غير أن جستنيان رماهم بالقائد نارسيس[٢٥] Narsès الذى هزم توتيلا فى الشمال وقتله ، فعادت إيطاليا إلى حظيرة الإمبراطورية الشرقية ، وأصبحت نيابةً (ارخـونية) عاصمتها رافنا .

هذا وإن كان جستنيان قد فلح فى استرجاع إيطاليا ، فإنه لم يستطع أن يقيم فيها حكومة قوية ، وسوف تتداعى إيطاليا تحت ضربات اللمبارديين سنة ٥٦٨ ، بعد أن دام مُلك القوط الشرقيين ٦٤ سنة .

(٨) اللمبارديون Lombards ، سنة ٥٦٥

هـل السبب المباشر لغزو اللمبارديين شمالى إيطاليا هو خيانة القـائد نارسيس ، أرخون رافنا ؟ لاشك أن إيطاليا خرجت من الحرب القوطية البيزنطية منهوكة القوى ، لاسيا وأن جيوش بليزاريوس ونارسيس لم تكن إلا من المتبربرين المرتزقة ، فتمادى كلا الجانبين فى الأعمال الوحشـية على السواء ، وكان ضحيتها سكان إيطاليا المنكوبين ، فلقى عدد كبير حتفهم قتلا وتنكيلا أو بسبب المجاعات والأوبئة . وأما الحكومة التى أوجدها جستنيان بعد أن أزال ملك القوط ، فقـد أظهرت العجز التـام عن الاضطلاع بمقتضيات الموقف ، ولعل النـائب نارسيس ذاته نجح فى تبغيض الحكم البيزنطى للإيطاليين ، لما أبداه من تكالب على جمع المال . وهنا تقول بعض الروايات إنه لم يكد يبلغـه نبأ فصله وعزله حتى أسرع إلى استدعاء اللمبارديين . . . ومهما يكن من أمر هذه الروايات ، فإن ما كان معروفاً من ثروة إيطاليا الشمالية وخصب تربتها وضعف السلطة الإمبراطورية فيها ، كان من أقوى المغريات لتحريض ملك اللمبارديين البوان Alboin على الاستيلاء عليها ، فدخلتها جيوشه عام ٥٦٥ ، وكأنه قد بقى شىء فيها قابل للسلب أو



ايطاليا بعد زحف اللمبارديين

التجريد ، فانقضت فترة سادتها الفوضى والحروب الداخلية ، ولم تهدأ ثائرة الفاتحين إلا أيام حكم الملك أوتارى Authari ، (٥٨٣ — ٥٩٠) وزوجه الملكة ثيــودولند Theodelinde ، التى كانت متحمسة للكاثوليكية الرومانية ؛ وكان لهذه الملكة كما كان للمبشرين الذين أوفدهم البابا جريجوريوس الكبير[٢٦] Gregorius ، الفضــل الأكبر فى إقلاع اللباردیین عن عادات البداوة والوحشية وبذل الجهود فى سبيل فهم المدنيــة الرومانية ؛ وبفضل استقرارهم ، استطاعوا أن ينظموا شئون دولتهم ، لاسيما فى عهد ملكهم ليوتبراند Liutbrand (٧١٢ — ٧٤٤) .

وكأن رغبة ليوتبراند فى إجلاء البيزنطيين عن إيطاليا لتخلُص للباردیین والى دفعته إلى إخضاع بعض المقاطعات الإيطالية (الدوقيات) ، كانت تحمل فى طياتها تهديداً للأملاك البابوية ، فخشى البابا من هذه الحركة التى أخذت صورة خطيرة فى عهد الملك استولف Astolf (٧٤٩ — ٧٥٦) ، إذ أن استمرار الزحف دفع البابا ستيفانوس Stephanus إلى التحالف مع ببين Pépin ، عاهل البيت الكارولنجى الناشىء ، فجهز ببين حملتين ناجحتين وانتزع من اللمباردیین منطقة رافنا والمدن الخمسة المجاورة ، ومنحها للبابا فى سنة ٧٥٦ غير أن معاودة اللمباردیین الهجوم على الممتلكات البابوية واستنجاد البابا أدريان ، دفعا شرلمان ملك الفرنجة إلى عبور الألب ، فأوقع الهزيمــة بملك اللمباردیین ديزيديريوس Desiderius ، واستولى على مملكته ، ثم جاء إلى روما وأقر منحة ببين وأضاف إليها دوقيتى بارم وسبوليت Spoletium ، Parma ، وبذلك زال من الوجود حكم اللمباردیین ، بعد أن دام ٢٠٠ سنة ؛ وقد خلفوا اسمهم على إيطاليا الشمالية التى ما زالت تسمى لمبارديا حتى الآن .

شروح وتعليقات

(١) وشعب جوان هذا نزح ، فى أواسط القرن الرابع الميلادى ، من منغوليا ومنشوريا ، متجها الى آسيا الجنوبية الغربية ، حيث كانت منازل قبائل الهون ، التي تملكها الرعب ، فأسرعت بدورها ، سنة ٣٥٥ ، الى الفرار تجاه الغرب ، ميممة شطر نهر الفولجا •

(٢) رومانيا الحالية •

(٣) أشركه أخوه فالنتينان فى الحكم ، وولاه الشرق عام ٣٦٤ ، وكان ضعيف الشخصية ، ظاهر التردد ، لم يقو على صد سابور ، ملك الفرس ، عن أرمينيا ، ولم يستطع صد القوط الغربيين ، الفارين أمام الهون ، عن اقتحام حدود الدانوب ، فهزموه أمام مدينة ادريانوبوليس ، وقتل فى ٩ أغسطس سنة ٣٧٨ •

(٤) أما بانونيا Pannonia فتقع جنوبى غربى نهر الدانوب ، وتشمل جزءا من النمسا وهنغاريا ويوغوسلافيا الحالية ، وكانت سرميوم من أهم مدنها • وقد احتلها ، منذ القرن الخامس الميلادى، الهون، ثم القوط الشرقيون، ثم اللمبارديون ، ثم بعد نزوح اللمبارديين الى ايطاليا الشمالية ، وقعت فى أيدى الآفار ، سنة ٥٦٨ •

(٥) البوان • كان البوان ملكا لقبائل اللمبارديين ، النازلة فى السهول ما بين الدانوب ورافده التيس ، رأى أن يتحالف مع قبائل الآفار ، ليحارب الجيبيد ، ولكنه أدرك سوء تدبيره هذا ، الذى أدى الى تقوية نفوذ الآفار ، فقرر الانسحاب من سهول الدانوب ، ويمم شطر ايطاليا الشمالية سنة ٥٦٨، أى فى السنة التالية لعزل القائد نارسيس عن ولاية ايطاليا • وقد قتلته زوجته ، انتقاما لأبيها الذى كان قد قتله بعد زواجه منها •

(٦) تقع هذه المقاطعة على الضفة الجنوبية لحوض الدانوب الأدنى •

(٧) مدينة أدرنة الحالية •

(٨) قتل الامبراطور فالنز فى موقعة أدريانوبوليس (أدرنة) عام ٣٧٨ ، كما أسلفنا ، فعين امبراطور الغرب جراسيان القائد تيودوسيوس، خلفا له (٣٧٩) ، وقد عين تيودوسيوس ، عام ٣٩٤ ، ابنيه هونوريوس واركاديوس لبرثوه حكم الغرب والشرق • هذا وقد اسكن القوط الغربيين حلفاء فى موئسيا عند مصب الدانوب •

(٩) ولد فلافيوس سنيليحو لأب وندالى وأم رومانية ، وكان ذا جدارة وشجاعه فائقتين ، فعينه تيودوسيوس وصيا على ابنه هونوريوس ، حينما قلده حكم الغرب (٣٩٤) ، وهو فى العاشرة من العمر ، ولكن سيليخو طمع فى أن يمند نفوذه على الامبراطور اركاديوس فى الامبراطوريه الشرقية ، بعد موت تيودوسيوس (٣٩٥) ، فتصدى له روفينوس Rufinus وزير أركاديوس Arcadius وقام باستدعاء القوط الغربيين للنيل منه ، لكن سيليخو هزمهم فى بولنسيا Pollentia فى غالة جنوبى الالب(٤٠٣)، كما هزم راداجايسوس Radagaisus أمام فلورنسا Florentia (٤٠٦) ، ولكن أعداءه لم يهدأ لهم بال حتى تخلصوا منه ، فاتهموه بالخيانة ، ولم ينشأ أن يقاومهم بالقوة حقنا للدماء ، فقدم نفسه للموت ، وأعدم فى رافنا (عام ٤٠٨) ، ولم تمض ثلاث سنوات على قتله الا وكان ألاريك ، ملك القوط الغربيين ، قد استولى على روما ٠

(١٠) لما هزم سنيليخو جموع القبائل المتبربرة ، بقيادة راداجايسوس، أمام فلورنسيا عام ٤٠٦ ، ترك فلول المتبربرين تنسحب من ايطاليا وتجتاز بلاد الالب ، وتنتشر فى بلاد الغال ، ناهبة مخربة ، وهى فى طريقها الى اسبانيا ، فتذرع قسطنطين ، قائد الجيش الرومانى فى بريطانيا ، بحجة اعادة النظام والأمن الى غالة ليعلن نفسه امبراطورا ، فعبر المانش عام ٤٠٧، وحارب الألمانى ، ثم اضطر الوندال ومن معهم من الأجناس المتبربرة الأخرى الى الفرار الى اسبانيا ، فاضطر الامبراطور هونوريوس أن يعترف به اغسطسا فى مدينة ارل ٠ ولكن القائد الرومانى فلافيوس قنسطنطيوس حاصره فى أول عام ٤١١ وهزمه وأمر باعدامه ٠

(١١) احدى مقاطعات غالة منذ عهد الاحتلال الرومانى ، وكانت تقع بين نهر الجارون وجبال البرانس والمحيط الاطلنطى ٠

(١٢) هو ابن تيودوريك الثانى ملك القوط الغربيين ، ويعتبر أول ملك استقل بحكم القوط الغربيين ، فامتدت مملكته منذ عام ٤٧٦ ، من أعمدة هرقل (جبرلتارا الحالية) جنوبا الى نهر اللوار شمالا ، ومن المحيط الاطلنطى غربا الى جبال الالب شرقا ، ومملكته هى المعروفة بمملكة طولوشه ، وكان يدين هو وقومه بالمذهب الأريوسى ٠

(١٣) أنظر الى « كلوفس » ، فى الفصل السادس ، الكلام عن الوحدة السياسية ٠

(١٤) كان بونيفاسيوس واليا لافريقيا من قبل الامبراطور هونوريوس، ثم استبقته فى ولايته أخت الامبراطور حالا بلاكيديا، التى حكمت باسم ابنها القاصر فالنتنيان الثالث ٠ هل صحيح انه استدعى جنسريك (أو جيسريك) الوندالى الى افريقيا ليساعده على تنفيذ مآربه عندما جاء الأمر بعزله؟ الواقع

أن بونيفاسيوس أعيد الى ولايته ، وأنه حاول عبثا أن يصد الوندال ، بل هرم هزيمة منكرة وعاد الى رافنا وعرف كيف ينتزع القياده العليا للجيوش الامبراطورية ، الا أنه أثار نقمة اينيوس فاصطدما فى وقعة ريمنى Rimini ، وتوفى بونيفاسيوس على أثرها عام ٤٣٢ ·

(١٥) تزوجت من الامبراطور فالنتنيان الثالث سنة ٤٣٧ ، وعندما اغتيل زوجها عام ٤٥٥ ، اضطرها القاتل ماكسيم على الزواج منـه · ويقال انهـا استدعت الوندال من شمالى افريقيا لمساعدتها على التخلص من مكسيم هذا ، فغزا جنسريك ايطاليا الجنوبيـة واستباح مدينـة روما ، الا أنه عـاد الى افريقيا ومعه يودوكسيا أسيرة ، ثم أطلق سراحها فيما بعـد ، فتوفيت فى القسطنطينية ·

(١٦) كان قائدا للخيالة فى غالة (بتعيين من جالا بلاكيديا Galla Placidia الوصية على فالنتنيان الثالث) ، ثم بعـد موت بونيفاسيوس فرض نفسه مستشارا روحيا على فالنتنيان ، يوم أن بلغ سن ١٨ واستقل بالحكم سنة ٤٣٧ ، فكان الحاكم الحقيقى مدة ٢٠ سنة ، وحارب القوط الغربيين أصحاب مملكة تولوزا ، غربى وجنوبى غالة ·
واتهم لدى الامبراطور فالنتنيان بالخيانة العظمى، ومازال أعداؤه يحرضون الامبراطور عليه حتى ذبحه بيده عام ٤٥٥ ·

(١٧) انتخب بابا عام ٤٤٠ ، ويذكر عنه أنه ذهب على رأس بعثة لمقابلة أتيلا ، فى مدينة مانتو Mantoue ، فأقنع هذا القائد ، الذى كان يسمى نفسه « عذاب الله » ، بعدم مهاجمة روما ، فوعده أتيلا باخلاء ايطاليا نفسها مقابل دفع الجزية السنوية · مات سنة ٤٦١ ·

(١٨) وهو سـور ضخم يبلغ طـوله ١١٠ كم ، أمر بتشييده الامبراطور هادريانوس (١١٧ ــ ١٣٨) ، ليفصـل سكوتلاندا فى الشمال عن باقى جزيرة بريطانيا، وبذلك يضع حدا لهجمات قبائل الكاليدونيين والاسكتلنديين المستقلين فى الشمال ·
وهو عبارة عن حائط حجرى الى جانبه خندق وطريق عام ، تم بناؤه مابين ١٢٢ و١٢٧ م·

(١٩) مبشر من أصل بريطانى ، أرسله البابا جريجوريوس الكبير عام ٥٩٧ على رأس بعثة الى بريطانيا ، فقام مع رفاقه بنشاط دينى كبير فى مملكة كنت Kent بصـفة خاصـة ، ونشر الشـعائر اللاتينية التى لاقى بسببها بعض المعارضة من فئات من الكلتيين كانت تسير على الشعائر الكلتية · مات فى كنتربرى عام ٦٠٤ (أو ٦٠٧) ·

(٢٠) كان أدواكر الاسكيرى من أصل نبيل ، ارتقى الى رتبة ضابط فى الجيش الرومانى ، ثم انتخبه قومه ، ومعهم جماعـات من قبـائل أخرى من

الروجيين والهيرول ، ملكا على ايطاليا عام ٤٧٦ ، وبعد انتصاره على أورستيز وازالة عـرش روميلوس الصـغير ، اكتفى بلقب البـطريق ، أى الشريف Patricius ، والتمس من امبراطور الشرق زينون Zeno اعتباره نائبـا عنه فى الغرب • لكن زينون استجاب عام ٤٤٨ لمطالب تيودوريك ملك القوط الشرقيين ، فعينه قائدا للجند وولاه حكم ايطاليا ، ومعنى ذلك أنه كلفه بطرد أدواكر وقبائله منها ، كما هو مبين فى النص •

(٢١) كان قائدا لجند الامبراطور يوليوس نيبوس Julius Nepus الذى نصبه امبراطور الشرق ليـو الأول امبراطورا فى الغرب عام ٤٧٤ • لـكن أورستيز قام بطرده عام ٤٧٥ ، وعين هو ابنه امبراطورا ، وشاءت الأقدار أن يكون اسم هذا الابن ، وهو آخر امبراطور رومانى فى الغرب ، روميلوس أوغسطس ، وهو اسم مؤسس مدينة روما ، وقد أطلق عليه الامبراطور زينون اسم أوغسطولوس ، أى أوغسطس الصغير ، سخرية واستخفافا •

(٢٢) زينون امبراطور الشرق ٤٧٤ ـ ٤٩١

كان زينون أيسورى الأصل من آسيا الصغرى ، وكان قائدا لفرقة الجند الأيسوريين فى القسطنطينية ، فلما تفاقم أمر القوط الشرقيين فى العاصمة ، قربه الامبراطور ليو الأول وزوجه من ابنته ، ثم ارتقى العرش بعـد موت ليو الأول وابنه ليو الثانى عام ٤٧٤ ، وعمل على اضعاف القوط الشرقيين ، باذكاء الخلاف بين زعمائهم ، وتخلص أخـيرا من زعيمهم الشـاب تيودوريك بدفعه الى طرد أدواكر من ايطاليا عام ٤٨٨ • وتدخل فى الخلاف الذى نشب حول طبيعة السيد المسيح ، وأصدر قرار التوحيد الهينوتيكون Henoticon سنة ٤٨٢ ، ظانا أنه سيرضى الأرثوذكسيين والقائلين بالطبيعة الواحـدة ، ولكنه نجح فى توسيع هوة الخلاف والعـداء ، وانقسمت القسـطنطينية الى معارضين ومؤيدين ، وتمثل هذا الخلاف بالنـاديين الخضر والزرق المتنافسين فى الملعب ، لأن الخضر انحازوا الى أصحاب الطبيعة الواحدة ، بينما انحاز الزرق الى الأرثوذكسيين •

(٢٣) اختاره قائد الجند أسـبار Aspar امبراطورا بعـد موت امبراطور الشرق ماركيان Marcien عام ٤٥٧ ، لتحقيق مآرب فى نفسه ، لكن ليو أبى أن يخضع لنفوذ أسبار ، هذا القائد الجرمانى ، ولم يفته طموحه فى أن يجلس أحد أبنائه على العرش، فقاومه بالاعتماد على فرق من الجند الأيسوريين (أنظر التعليق على زينون) •

(٢٤) نودى به ملكا عام ٥٤١ ، اسـتغل ابتعـاد بليزاريوس عن رومـا ليستولى عليها عام ٥٤٧، وعاد الى فتح روما مرة ثانية عام ٥٤٩، بعد استدعاء بليزاريوس الى القسطنطينية للمرة الثانية ، ثم استولى على ايطاليا الجنوبية ، ولكنه هزم على يد نارسيس، خليفة بليزاريوس ، وقتل شمالى روما عام ٥٥٣ •

(٢٥) نارسيس Narsès (٤٩٢ـ٥٦٨) : قائد بيزنطى ، أرمنى الأصل ، نال حظوة لدى الامبراطورة تيودورا Theodora زوجة جسنيان ، وساهم بحسن سياسته فى قمع ثورة نيكا ، عين عام ٥٥٠ قائدا أعلى للجيوش التى كلفت بمحاربة القوط فى ايطاليا ، بعد تنحية بليزاريوس ، فأخضع ملكهم تو يلا سنة ٥٥٢ ، وخلفه تائيه Teia عام ٥٥٣ ، وطرد الفرنجه من ايطاليا عام ٥٥٤ ، ثم عين حاكما عليها بلقب بطريق ـ لكنه لم يكن اداريا بقدر ما كان جنديا ، وكان طمعه المسرف الى جانب اضطرابات البرابره ، الناتجة عن فلة جنده ، سببا فى تنفير الايطاليين من الحكم البيزنطى الأجنبى . هذا ولم يثبت ما يرويه بعض الكتاب من أنه استدعى اللمبارديين عندما أقالته الامبراطورة سوفيا سنة ٥٦٧ .

(٢٦) يعد من أعظم الباباوات الذين قادوا الكنيسة ، كان من أسرة سناتورية ، أنتخب بابا سنة ٥٩٠ ، وكان اداريا حازما ، مؤمنا بسلطانه على كل الكنائس ، وبمسئولينه فى دعم المسيحية فى العالم ، كما لم يهرب من المسئوليات المدنية التى فرضها عليه سنوات العوضى ، التى مرت بها ايطاليا تحت حكم اللمبارديين الأول ، فأشرف على ادارة المدن والخدمات الاجتماعية ألخ .. ويعد صاحب فكرة السيادة البابوية الزمنية ، التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ العصور الوسطى .

الفصل الرابع

بيزنطة فى ثلاثة قرون

الموجز :

تمهيد	: سر البقاء ، العاصمة
أعلام صنعوا التاريخ	: تيودوسيوس الثانى
	جستنيان
	حروبه : ضد الفرس ، والوندال ، والقوط الشرقيين ، والشعوب المتبربرة
	هدفه : إعادة مجد روما
	النهضة المعمارية
	القانون
بيزنطة ما بين ٥٦٥ و ٦١٠	: هيرقليوس
	حرب الفرس ، حرب العرب
فوضى وإفلاس	
ليو الثالث الأيسورى	: حصار القسطنطينية
	الإصلاح الاقتصادى ، والإدارى والدينى

تمهيد

رأينا فى الفصل السابق كيف سقطت الدولة الرومانية الغربية عام ٤٧٦م على يد أدواكر الاسكيرى أو الهيرولى . أما شقيقتها الشرقية فقد كتب لها البقاء ما يقرب من عشرة قرون بعد زوال الدولة الغربية[١] .

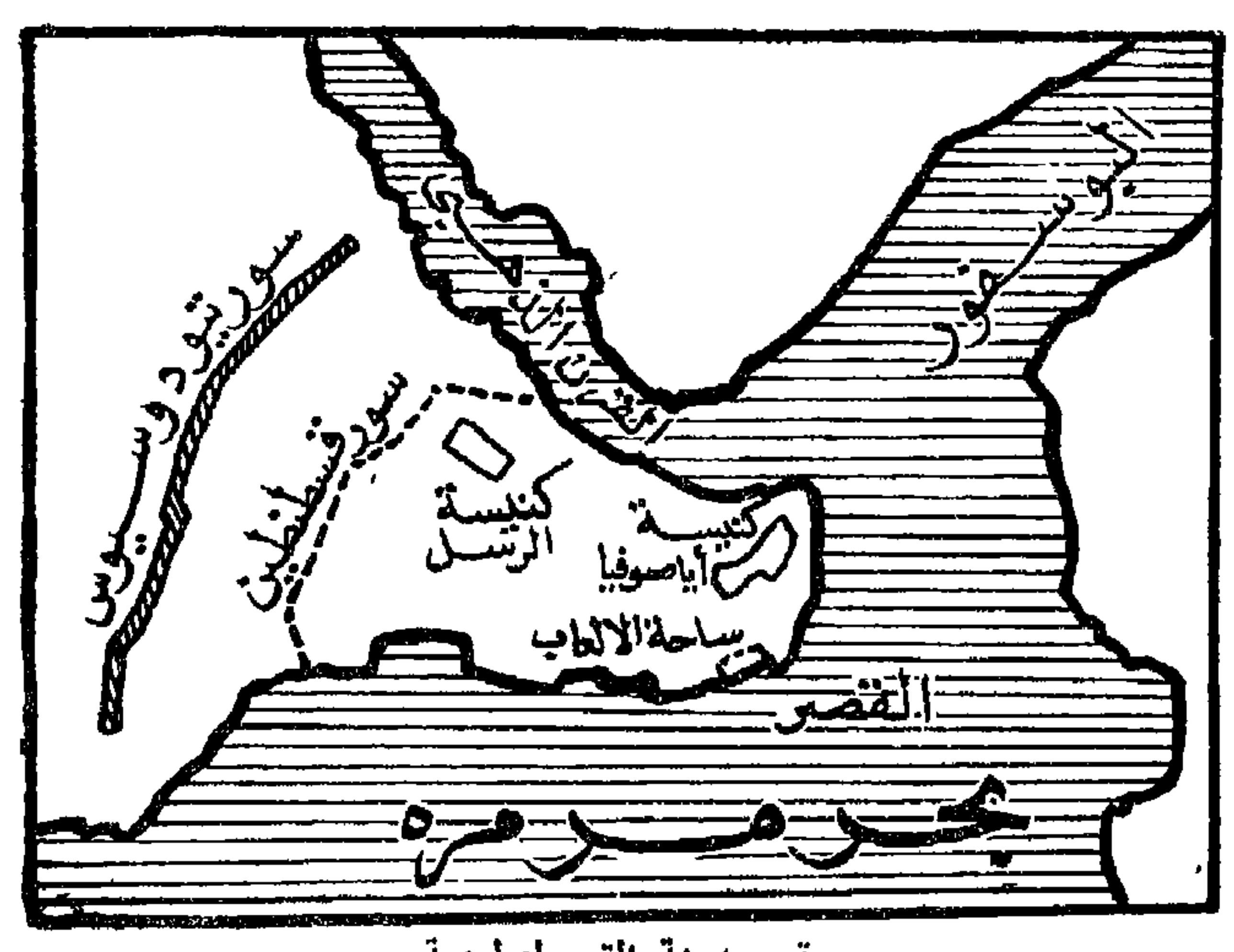
لا يظن أن بقاءها جاء نتيجة لعدم تعرضها للهجمات أو الغزوات ، فقد ظلت حدودها طوال هذه الحقبة ، وعلى وجه التخصيص منذ سقوط روما إلى منتصف القرن الثامن الميلادى ، ظلت حدودها عرضة لضربات قبائل المتبربرين فى الشمال ، أى على الدانوب ، وفى الشرق ، أى على حدود سوريا والعراق .

الخطر الشمالى ، المتبربرون . أما من جهة الشمال ، فلا نبالغ إذا قلنا أن ضغط الشعوب المتبربرة التى وردت أخبارها فى الفصل الثالث كان أكثر حدة فى الشرق منه فى الغرب ، كما أن كثيراً من هذه القبائل التى اشتهرت بالدمار والتخريب ، اندفعت أولا كالسيل العارم صوب حدود الدانوب ، وقد نجحت مراراً فى اقتحامها ، بل وفى العيث فى بلاد الإغريق ، كما فعل القوط الغربيون والقوط الشرقيون والهون . . . بل كثيراً ما هددوا القسطنطينية ذاتها . ولكن كثيراً ما استطاعت الدولة بعد زمن طال أو قصر ، أن تهزم الغزاة وتطاردهم متتبعة فلولهم عبر الدانوب ، فيستأنفون سيرهم تجاه الغرب ، قاصدين بلاد الغال ، أو سهول إيطاليا الشمالية الخصيبة .

وقد تكون الدولة أضعف من أن تبلغ هذا المأرب ، فترضخ حينئذ للأمر الواقع ، وتقطع هؤلاء الضيوف الثقال جزءاً من أراضيها جنوبى نهر الدانوب ، عاملة بمبدأ التحالف العسكرى ، أو الاستضافة الجبرية ، مقابل تعهد هؤلاء المتحالفين[٢] بحراسة الحدود من الهجمات الجديدة . وتدأب السياسة

الإغريقية بعد ذلك على بث التفرقة بين صفوف المتبربرين وإثارة التشاحن حول الزعامات ، وقد يفلت منها الزمام فلا تجد مفراً من دفع الجزية أو من توزيع الألقاب والوظائف على الرؤساء ، تفادياً لشرهم أو رغبة فى استمالتهم .

الواقع أن هذه السياسة لم تكن لتؤتى ثمرتها لولا موقع القسطنطينية المنيع ، على رأس شبه جزيرة ضيق ، يستحيل على أى غاز اقتحامه من جهة البر ، ما لم يسانده أسطول قوى ، إذا استولى على البحر قطع عن المدينة الامدادات التى كانت لا تستطيع أن تعيش بدونها .



موقع مدينة القسطنطينية

كانت المدينة محاطة بثلاثة أسوار ، شيد الأولَ الإمبراطور قسطنطين Constantin مؤسس المدينة ، وأنشأ الثانى الإمبراطور ثيودسيوس الثانى Théodosius ، عام ٤١٣ م ، على بعد كيلومتر واحد خارج السور الأول(٣) ؛ وأما السور الثالث ، فقد أمر بتشييده الإمبراطور أناستاسيوس

الأول Anastasius ، عام ٥١٢ م ، على مسافة ٢٥ كيلومتراً داخل الأراضى[٤] .

فلا غرو إذا انتهى أمر الهجمات بأن انكسرت شوكتها عرض هذه الاستحكامات ، وما كان يتقدمها من خطوط دفاعية أمامية .

الخطر الشرقى ، فارس . لم يكن الفرس بأقل خطراً على الدولة البيزنطية من متبربرى الشمال ، إلا أنهم شُغلوا عنها فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين بصد هجمات بعض الشعوب الأسيوية فى الشرق ، كما شغلتهم الثورات التى أثارها حكمهم القاسى فى أرمنيا[٥] . نضيف إلى هذا أن الدولة الساسانية[٦] كانت تعانى من داء الدكتاتورية والتعصب والتنازع على العرش ، وهو داء كثيراً ما أثار الأضغان بين الورثة على العرش ، فأوجد الأزمات الداخلية الكثيرة وأضعف سلطة بعض الملوك وأطاح البعض الآخر .

لكل هذه الأسباب ، كانت اعتداءات الفرس على الحدود البيزنطية متواترة وغير واسعة النطاق فى القرنين الخامس والسادس . بخلاف ما سيئول إليه الأمر منذ أوائل القرن السابع ، كما سيتبين لنا ذلك عند الكلام عن الإمبراطور هيرقليوس Heraclius[٧] .

هذه لمحة خاطفة عن أحوال الدولة البيزنطية ، نمهد بها لدراسة بعض الأعلام الذين أثّروا تأثيراً كبيراً فى تطوير المجتمع الرومانى الغربى والشرقى . وكانوا سبباً ، ولو غير مباشر ، فى إثارة وعيه ، فأخذ يشعر بذاتيته ويلتمس معالم شخصيته المتمايزة بين الشرق والغرب ، ويهتدى شيئاً فشيئاً إلى تقرير مصيره .

نختتم هذه اللمحة بملاحظة ذات شأن . منذ أن أسس قسطنطين مدينة القسطنطينية واتخذها عاصمة للإمبراطورية الموحدة ، ما زالت الدولة البيزنطية

حتى بعد الانقسام[٨] ، تعتبر نفسها وريثة لروما ، حضارة وسلطاناً ، وتعمل على تأكيد وحدة الإمبراطورية . منتهزة الفرص بقدر ما سمحت لها قوتها ، لإعلان إشرافها ورقابتها على الغرب أو للتدخل فى شئونه[٩] ، دون أن يثنيها عن ذلك استيلاء المتبربرين على معظم الولايات الغربية .

وقد قبل المتبربرون أنفسهم هذا الوضع ، بدليل أنه لم يجرؤ أحد منهم على أن يتخذ لنفسه لقب الإمبراطور فى الغرب ، ولا أدواكر ذاته ، كما أسلفنا فى الفصل السابق ، بل لقد أوفد بعثة تستأذن زينون إمبراطور الشرق فى أن يعتبر نفسه نائباً عنه فى حكم إيطاليا[١٠] . وقد أبدى كثير من المتبربرين هـذه الرغبة ذاتها ، بالرغم من أعمال العنف التى لجأوا إليها فى احتلالهم للأراضى الرومانية ، ورغم إقامة حكومات مستقلة كل الاستقلال عن بيزنطة . ويُرجع المؤرخون هـذه النزعة الغريبة التى خضع لها المتبربرون إلى الهيبة التى كانت تتمتع بها الدولة الرومانية القديمة فى نفوسهم ، وإلى اعتقادهم بأن الدولة البيزنطية ما هى إلا امتداد للدولة الرومانية ذات النظام والحضارة والقوة والمهابة .

أعلام صنعوا التاريخ

من الحقائق الثابتة أن الأمم والشعوب إنما تنهض وترتقى بفضل المصلحين الأفذاذ الذين تنجبهم ؛ وقد تتضاعف النتائج إذا كان هؤلاء الرجال من القادة ذوى النفوذ والسلطان .

إذا طبقنا هـذه النظرية على الفترة التى تعنينا ، أى منـــذ تقسيم ثيودوسيوس الأول ، سنة ٣٩٥ م ، إلى منتصف القرن الثامن الميلادى ، وإذا تصفحنا بوجه خاص التاريخ البيزنطى فى هـذه الحقبة ، هالنا افتقار الشرق الشديد للقادة المصلحين الذين كان لهم أثر ملموس فى توجيه سـير

التاريخ وفى تقرير مصير الأمم ، إذ لا نكاد نحصى أكثر من ثلاثة أباطرة ، هم : جستنيان ، وهيرقليوس ، وليو الأيسورى يستحقون أن يقف الباحث ليطلع على مآثرهم . وقد يصل عددهم إلى الأربعة إذا أضفنا إليهم ثيودوسيوس الثانى . هذا العدد ولاريب ، ليس بالكثير بل إنه مسرف فى القلة بالنسبة لفترة من الزمن تربو على الثلاثة قرون . وإذا كانت هذا القلة لا تكفى بطبيعة الحال للحكم على الحضارة البيزنطية بالعقم أو التخلف ، إلا أنه أمر لا يدفع إلى التفاؤل ، لا سيما وأن حكم هذا القلة القليلة من الأباطرة الكبار تخللته فترات من الاضطرابات والمحن ، كادت أن تذهب بالحسنات السابقة كلها ، بل وقد دفعت الأمة ، إلى شفا الهاوية ، هاوية الفوضى والإفلاس والاحتلال .

ثيودوسيوس الثانى Theodosius ، ٤٠٨ — ٤٥٠ م

إن الأثر الذى حفز سكان القسطنطينية إلى أن يخلصوا الشكر والثناء لهذا الإمبراطور هو دون شك هذا السور العظيم المعروف باسمه والذى أحاط به العاصمة من جهة البر . لقد استغرق بناؤه ٣٤ سنة ، من ٤١٣ إلى ٤٤٧ ، وكان فى الواقع عبارة عن ثلاثة أسوار متتالية ، يشرف السور الخارجى منها على خندق ملىء بالماء .

أما هل يعود الفضل فى إنشاء هذا السد المنيع الذى طالما تحطمت عليه هجمات المتبربرين إلى الإمبراطور نفسه . . أم إلى بلخيريا أخته وشريكته فى العرش(١١) ؟ فهذا سؤال ما زال موضع بحث لدى المؤرخين .

وأثر آخر لهذا الإمبراطور ، غاية فى الأهمية ، هو تلك المدونة المعروفة باسمه ، وهى أول مجموعة رسمية من القوانين ضمت تشريعات الدولتين الشرقية والغربية ، وأصبح لها حكم القانون فى الدولتين .

غير أن آخر أيام ثيودوسيوس شهدت غزو الهون بقيادة أتيلا ، وتدميرهم لأكثر من ٧٠ مدينة من بلاد الإغريق . وقد عجزت الإمبراطورية عن

الوقوف فى وجههم ، فاضطر ثيودوسيوس إلى إقطاعهم ما شاءوا من الأراضى الواقعة على حدود الدانوب . ولم يأمن شرهم إلا بعد أن تعهد لهم بدفع الجزية السنوية !

جستنيان Justinianus ، ٥٢٧ — ٥٦٥ م

تظهر شخصية جستنيان بارزة المعالم وسط سلسلة الأباطرة الذين توالوا على عرش القسطنطينية ، تتقاسمها الأضواء الساطعة والظلال الكالحة السوداء : تلمع شخصيته ويزهو عصره بالانتصارات الحربية والإنشاءات المعمارية والإشعاع الباهر فى ميدان الفلسفة والقانون ، ولكن ظلالا قاتمة تحاول أن تطمس هذه الأمجاد ، فهناك ثورات تقمع بسفك الدماء ، وهناك ضرائب ثقيلة تنوء بها الكواهل وتتعثر بسببها حركة الإنتاج والتبادل ، وهناك فى السنوات الأخيرة من هذا الحكم الطويل الذى دام ٣٨ سنة ، إفلاس وفقر ومجاعة .

عند ما آلت إلى جستنيان مقاليد الحكم سنة ٥٢٧ ، كان قد تجاوز الخامسة والثلاثين . ولم يكن عديم الخبرة بشئون الدولة ، إذ كان عمه الإمبراطور جستان Justinus[١٢] . قد أشركه فى الحكم ثمانى سنوات ، ثم اتخذه شريكا فى العرش ، قبل وفاته بسنة واحدة .

وكان من غريب المفارقات أن يقع هذا الشاب العاقل الحكيم فى حبائل تيودورا Theodora الراقصة ، ذات الأصل الوضيع والسمعة المشوبة . . . ولكن أغرب من هذا أنها أخلصت لزوجها كل الإخلاص ، وأثرت فيه أبلغ الأثر وأحسنه ، حتى إنها أنقذت عرشه بعزمها وشجاعتها فى ثورة نيقا[١٣] . ولعلها أنقذته فى غير هذه الثورة العارمة التى لم تخمدها إلا دماء أكثر من ٣٠ ألفاً من الضحايا .

حروب جستنيان

يتضح من دراسة سياسة جستنيان الخارجية أن الغاية التى كان يسعى جاهداً إلى تحقيقها لم تكن قريبة دانية .

حرب الفرس الأولى . ويُفهم هـذا بجلاء من أول حرب خاضها مع الفرس ، عندما استأنف ملكهم قوباذ العدوان بغزو العراق سنة ٥٢٧ ، ثم تقدم الملك المنذر الثالث ابن ماء السماء على رأس عرب الحيرة ، بواعز من الفرس ، عام ٥٢٩ ، حتى هدد مدينة أنطاكية ؛ ولم يمنع دفاع القائد بليزاريوس ، ولا الانتصار الذى أحرزه فى مدينة دارا Dara سنة ٥٣٠ ، لم يمنع الفرس من إنزال الهزيمة فى البيزنطيين فى مدينة كالينكوم Callinicum ، وهى مدينة الرقة على الفرات ، سنة ٥٣١ .

حرب الوندال . وفجأة يحدث فى السياسة البيزنطية تغيير ، وصفه بعض المؤرخين بكلمة مسرحى ، إذ أن الإمبراطور يبادر إلى عقد هدنة مع كسرى أنوشروان ابن قوباذ ، هدنة منكرة غير شريفة ، تعهّد بمقتضاها بدفع الجزية للفرس ، ثم إذا به يجرد حملة لغزو شمال أفريقيا الوندالية ، دون أن يقع من دولة الوندال أى اعتداء على أملاك الدولة البيزنطية[١٤] ! تحوّل غريب ، إذ أنه لا يُفهم كيف أن هذه الولاية أصبحت ذات أهمية بالغة تفوق الأخطار الناجمة عن الفرس الأعداء العتاة المتربصين فى الشرق ، ولا كيف يرضى الإمبراطور بهذا الصلح المهين الذليل ، ليشن حرباً هجومية استعمارية ، ليس لها من الظروف ما يبررها .

حرب إيطاليا . وقد يكون فى استئصال دولة الوندال ، الذين اشتهروا بأعمال التخريب والقرصنة حتى أصبح اسمهم يطلق فى بعض اللغات الأوربية

على أعمال التدمير المقصودة لذاتها ، قد يكون فى محو دولتهم من عالم الوجود ما تلتمس له المعاذير ؛ ولكننا عبثاً نبحث عما يبرر غزو إيطاليا ، وكان يحكمها القوط الشرقيون منذ سنة ٤٩٣ حكماً ما زال يثير إعجاب المؤرخين .

نشبت هذه الحرب على أثر مقتل ابنة ثيودوريك الكبير أمالثنتا ، قتلها ملك القوط الجديد ثيودوهات بعد أن استنجدت بجستنيان ليعيدها إلى عرشها . ودارت رحى الحرب ٢٠ سنة ، من سنة ٥٣٥ إلى سنة ٥٥٥ ، تناوبت فيها الانتصارات والهزائم . فقد احتلت الجيوش البيزنطية معظم المدن الإيطالية ، وحتى رافنا العاصمة القوطية ، قبل نهاية سنة ٥٣٩ ، ثم ظهر البطل القوطى توتيلا Totila ، عام ٥٤٣ ، وأجبر البيزنطيين على الانسحاب والتخلى عن إيطاليا (٥٤٦) ؛ وساعدنه على النجاح الدسائسُ التى دبرها أعداء القائد بليزاريوس فى القسطنطينية ، فتزعزعت ثقة الإمبراطور فى فائده ، وقتر عليه فى الامدادات ، فتشجع القوط وتقدموا فى جميع الميادين ، إلى أن أرسل القائدُ نارسيس من القسطنطينية ، وكان ذا حظوة ومكانة لدى الإمبراطور ، فتغلب على توتيلا سنة ٥٥٢ ، ثم على خلفه ثائية Theia ، وما زال بالقوط حتى استسلموا إلى آخرهم عام ٥٥٥ .

وانتهت الحرب الإيطالية بعد أن تفانى البيزنطيون والقوط على السواء ، فامحت دولة القوط الشرقيين ، وهلك السكان وهلكت الجيوش وذاق الأهالى فى إيطاليا ألواناً من البطش والبؤسَ والتخريب فى ميادين العمران والاقتصاد والحضارة ، جعلت هذه الحرب وصمة على جبين جستنيان ، لاسيما وأن القوط الشرقيين كانوا قد أظهروا استعداداً عجيباً لقبول الحضارة اللاتينية ، وقطعوا فى مضمارها شوطا بعيداً تحت حكم ثيودوريك الكبير .

حرب أسبانيا . وكأن تحقيق الطمع لا يزيد صاحبه إلا طمعاً وغروراً ، فها هو ذا جستيان يجهز حملة على أسبانيا بقيادة ليبريوس ، سنة ٥٥٤ ،

لمعاضدة ملك القوط الغربيين ، أثاناجيلد Athanagilde ، فى حربه ضد أجيلا Agila ، منافسه على العرش . ويعقد الظفر لأثاناجيلد ، فيتنازل للبيزنطيين عن مقاطعة الأندلس ، الواقعة فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة ، وسوف تبقى هذه المقاطعة فى حوزتهم طيلة قرن من الزمان .

هذا ويقال أن ضعف الشيخوخه هو الذى حال دون قيام جستنيان بمحاولة إرجاع غالة الفرنجية والجزيرة البريطانية إلى حظيرة الدولة الرومانية . . .

حربا الفرس الثانية والثالثه . فى عام ٥٤٠ م ، نقض كسرى أنوشروان ، ملك الفرس « الصلح المؤبد » الذى كان قد أبرمه مع جستنيان ، عام ٥٣١ ، أثناء انشغال الجيوش البيزنطية بمحاصرة القوط فى رافنا . وإذا بالمنذر ملك الحيرة يغير على ولاية سوريا ويستولى على مدينة أنطاكيا ولا يغادرها إلا بعد أن أعمل فيها التقتيل والسبى والنار .

وأسرع بليزاريوس من إيطاليا ، ولكن بعد أن اجتاح الإعصار الفارسى سوريا وشمال ما بين النهرين ؛ وتشاء الأقدار أن يتهم هذا القائد فى صحة عزمه ، لأنه تجنب المعركة الحاسمة نظراً لقلة عدده ، فيستدعى من الميدان ؛ وسرعان ما تحل الهزيمة بالبيزنطيين ، وما دام جستنيان صارفا عنايته إلى الميدان الغربى ، فكان لا مفر من عقد الهدنة مع كسرى ، بالشروط التى أملاها الفارسى ، بطبيعة الحال .

وقد عاد الفرس إلى الاعتداء مرة ثالثة عام ٥٥٠ م . ولكنهم هُزموا فى هذه المرة ، واستطاع جستنيان أن ينال بعض الحقوق الدينية لرعايا كسرى المسيحيين .

هجمات المتبربرين . وفى السنة نفسها التى شهدت هجوم الفرس الثانى ، اقتحم الهون والبلغار وقبائل متبربرة أخرى حدود نهر الدانوب ، وانتشروا

فى بلاد الإغريق ، مخربين ناهبين ، جرياً على تقاليدهم المتوحشة المعروفة ، حتى وصلوا إلى خليج كورنثيا Corinthia ، وحتى دخلوا ضواحى العاصمة ذاتها ، بينما ذهب الذعر بالإمبراطور كل مذهب ، فلم يسعه إلا أن يعتصم فى قصره ، حرصاً على حياته . وكذلك فى عام ٥٥٩ ، كاد الهون أن يستولوا على القسطنطينية ، بعد التصدع الذى أصاب أسوار أناستاسيوس ، على إثر زلزال شديد ، بينما فتح الصقالبة مدينة أدرينوبوليس (أدرنة) وهم فى طريقهم إلى العاصمة ؛ ولم يستطع بليزاريوس أن يصد المتبربرين عن العاصمة إلا بعد عناء كبير ، ولا دون بذل الأموال الطائلة ليشترى بها انسحابهم من شبه جزيرة المورة .

وفى هذا المقام يتبادر إلى الذهن قول ه . ل فِشر عن جستنيان ، فى الجزء الأول من كتابه (تاريخ أوربا) صفحة ٥١ : « بدت الإمبراطورية عاجزة عن حماية قرية واحدة من قرى شبه جزيرة البلقان من عبث البرابرة ، مع استعدادها لإرسال جيش بقضه وقضيضه إلى أسبانيا ، وتفكير الإمبراطور فى مشروعات ضخمة لغزو غاليا وبريطانيا » .

هدف جستنيان

هذا التناقض الغريب الذى يشير إليه فِشر يفقد غرابته إذا صح ما قيل عن جستنيان أنه كان مدفوعا برغبة قوية ، تسلطت على تفكيره ووجهت سياسته الخارجية ، وهى الرغبة فى إحياء أمجاد الدولة الرومانية القديمة . ولو أن هذا الطموح لم يفضِ به إلى خوض الحروب الهجومية العديدة ، وما استتبعته من تدمير للعمران وإزهاق للأرواح ، ولو أن طموحه لم يجره إلى فرض الضرائب الثقيلة التى استنزفت الموارد وشلت النشاط الإنتاجى وعرقلت التبادل التجارى ، لولا هذه المآسى لما استحق ذم التاريخ ونقده . ويا ليته اقتدى بالملك القوطى ثيودوريك ، الذى لم يشن حرباً واحدة

إلا مكرهاً ، فضلا عن أنه لم يغترّ قط بقوته وانتصاراته ، لينهج سياسة التوسع وما أدت إليه من إبادة وتدمير .

بقى لنا أن نقف لحظة عند ظاهرتين اثنتين ، هما بعث فن العمارة الرومانى وإحياء الدراسات القانونية .

النهضة المعمارية . لقد اقتضى إحياء الدولة الرومانية القديمة شيئاً غير قليل من مظاهر الأبهة والعظمة ، تجلت بصفة خاصة فى المبانى والمنشآت العامة ، نذكر منها إعادة تشييد القصر الإمبراطورى عام ٥٣٢ ، بعد الحريق الذى أصابه فى ثورة نيقا ، وإعادة بناء كاتدرائية أيا صوفيا ، التى تعد من عجائب العالم لما ازدانت به من صحائف الذهب والفسيفساء الرائعة والأثاث الفاخر ، ثم تشييد كنيسة الرسل التى أشرفت الإمبراطورة ثيودورا على بنائها ، وإقامة المبانى العامة من ملاعب وحمامات فى كل مدينة من مدن الإمبراطورية

كل هذه العظمة المعمارية التى أرادها جستنيان لإثبات رومانية الدولة ، لكانت جديرة بالتنويه ، لو أمكنه أن يراعى فى تحقيقها التناسب بين المنفعة العامة وحالة البلاد الاقتصادية ؛ ولكنها كانت كلها عبئاً على ميزانية الدولة وعلى كاهل الرعية على السواء . ولا تذكر هنا بطبيعة الحال المنشآت الحربية التى اقتضاها وجود القبائل على الحدود ، فعمل جستنيان على تدعيمها بعد ما تبين عدم دراية القبائل المتبربرة بفن الهجوم عليها .

جستنيان والقانون . ولكن جستنيان حقق معجزة فى مضمار المدنية والحضارة الإنسانية حينما أصدر مدونته العظمى فى القانون الرومانى ، التى اكتشفتها مدرسة بولونيا فى القرن الحادى عشر الميلادى .

وبالرغم من أننا سنتناول هذا الموضوع بشىء من التفصيل فى الفصل الخاص بالتراث الإنسانى ، إلا أنه ينبغى أن ننوه من الآن بالميزة التى

انفردت بها هذه المجموعة عن سائر المجموعات السابقة للقانون الرومانى وغير الرومانى ، كمجموعة ثيودوسيوس التى سبق الكلام عنها فى هذا الفصل . ذلك أن اللجنة التى عملت برئاسة القانونى تريبونيان Tribonianus على إعداد هذه المدونة ، لم تكتف بإخراج القوانين التقليدية الموروثة فى صيغة يفهمها أهل القرن السادس وحسب ، بل عرفت كيف تساير الظروف الجديدة التى نجمت عن ظهور المسيحية فى ميدان الحياة العامة وتأثير شرائعها فى المجتمع المسيحى ، كما راعت المكانة التى انتزعتها العناصر المتبربرة ، بعقليتها وتقاليدها وعُرفها . وأدى هذا التطور إلى تخليص القانون الرومانى من رومانيته ولاتينيته ، وإظهاره فى زى عالمى جعل نطاقه أوسع وأشمل . وهذه العالمية ، إذا صح هذا التعبير ، هى التى دفعت الجامعات إلى تدارسه بعد أن اكتشفته عقب موت جستنيان بخمسة قرون ؛ ولم تقِلّ حماسها بعد هذه الحقبة من الزمن ، عن تلك التى قوبل بها فى عهد جستنيان فى جامعات بيزنطة وبيروت[١٠] . وبعد هذه الخطوة ، أخذت المدونه تقتحم المحاكم ثم الحياة العملية ، قبل أن تعمد إليها الأممُ الحديثة ، تستوحيها وتسترشد بها فى وضع دساتيرها وسائر تشريعاتها .

بيزنطة ما بين سنتى ٥٦٥ و ٦١٠

فى هذه الفترة ، حكم الإمبراطورية أربعة أباطرة هم : جستنيان الثانى (٥٦٥) ، وطيبريوس الثانى Tiberius (٥٧٨) ، وموريكيوس أوموريس Maurice أو Mauricius (٥٧٢) ، وفوكاس Phocas (٦٠٢) .

أولّى جستنيان الثانى الأزمةَ الاقتصادية التى خلفها خالُه جستنيان كل اهتمامه ، إلا أنه شجع حركة التمرد ضد الفرس التى نشبت فى أرمنيا ، فثارت ثائرة الفرس ، ولولا الخطر التركى الذى كان يهددهم فى الشرق لما قبلوا شروط الهدنة التى عرضها عليهم جستنيان . ولكنها لم تكن إلا هدنة مؤقتة ،

فقد عادت الحرب لتظل سجالا بين الطرفين سنين طويلة . غير أن الموقف تطور قليلا بعد موت كسرى أنوشروان ، إذ قامت ثورة أرغمت كسرى الثانى على الهروب ، فلجأ إلى الإمبراطور موريكيوس نفسه ، فأعاده إلى عاصمته معززاً ؛ وقد تقاضى إقليم أرمنيا الشرقية ثمناً لنجدته ، سنة ٥٩١ .

وانتهج الإمبراطور سياسة التقشف التى كانت تحتمها الظروف ، ولكنها أثارت الساخطين على حكمه ، بزعامة فوكاس ، فسقط موريكيوس(١٦) واعتلى فوكاس العرش ، بينما نهض كسرى الثانى لينتقم لصديقه موريكيوس ، واخترقت جيوشه بقيادة شاهين Chahine بلاد آسيا الصغرى ، حتى وصل إلى ضاحية بيزنطة الأسيوية ، فى حين أن زحف جيش فارسى آخر بقيادة شاربراز Chahrbaraz على سوريا فخرب بيت المقدس ، ثم واصل زحفه تجاه الجنوب الغربى لفتح ممتلكات بيزنطة الإفريقية .

وقد ساءت الظروف على الحدود الغربية بسبب نشاط قبائل الآفار الفارّة من وجه الأتراك ، والتى حاولت أن تستقر ما بين نهر الدانوب ورافد التايس ، حيث كان يقيم اللمبارديون ، الذين أيقنوا بدورهم أن لا خلاص لهم من شر ضيوفهم المتوحشين إلا بمواصلة الزحف صوب الغرب ؛ وأغرتهم ثروة إيطاليا الشمالية وقلة الجيوش البيزنطية المرابطة فيها ، فيمموا شطرها ، ولم تمض خمس سنوات (٥٦٨ — ٥٧٢) إلا وكانوا قد احتلوا جزءاً كبيراً منها .

وأما الآفار أنفسهم ، ومعهم الصقالبة ، فظلوا يهددون الولايات الواقعة جنوبى الدانوب ، ويشغلون القوات البيزنطية المرابطة على الحدود . ولعل الخطر بلغ أشده سنة ٦٢٦ : فبينما كان الإمبراطور هيرقليوس ، يحارب الفرس فيما وراء جبال القوقاز ، إذا بجيش ضخم من الآفار والبلغار والصقالبة يضربون الحصار حول القسطنطينية من جهة البر ، فى حين أن القائد الفارسى شاربراز حاصر المدينة من جهة البحر . ولكن الهجمات كلها باءت بالفشل ، لمناعة الأسوار ، ولتحكم البيزنطيين فى البحر بواسطة النار الإغريقية .

هيرقليوس Heraclius ، ٦١٠ — ٥٤٢ م

لم يكن فوكاس محبوباً قط طول مدة حكمه ، وكأنه تعمد إغضاب أصحاب الرأى والنفوذ وإثارة سخطهم : فحزب الخضر ، الذين أجلسوه على العرش ، ساخط منذ مقتل الإمبراطورة قسطنطينا (٦٠٥) زوجة موريكيوس ؛ والزرق ساخطون بسبب سياسة الاضطهاد الذى انتهجها فوكاس تجاه المونوفيزيتيين[١٨] فى العاصمة وفى الولايات الشرقية ؛ والكنيسة البيزنطية ساخطة بسبب التودد الذى يبديه فوكاس لبابا رومية . وأما الفرس فى الخارج فقد وصل ملكهم كسرى الثانى إلى خلقدونية ، ضاحية القسطنطينية الآسيوية ، عام ٦٠٩ كما أسلفنا . . .

وفى هذا الجو العاصف المنذر بالشر تستيقظ العاصمة ذات صباح على نبأ توترت له الأعصاب ، نبأ قدوم أسطول ضخم أرسل به هيرقليوس[١٩] نائب إفريقيا ، بقيادة ابنه وسميّه هيرقليوس ، وعبورُه مضيق الدردانيل وسرعان ما تتحد كلمة الحزبين القويين ، الزرق والخضر ، وتندلع الثورة فى العاصمة ، ويُقتل فوكاس ، وينادَى بالقائد هيرقليوس إمبراطورا (أكتوبر ٦١٠) .

ومنذئذ أخذ بصيص من الأمل يلوح فى الأفق . . . ولكن كان على المتفائلين أن يصبروا ويُمعنوا فى الصبر ، لأن التركة كانت محملة بالأوزار . ولم يكن الإمبراطور الجديد متسرعا متهوراً ، فدأب يعمل عشر سنوات لإزالة أسباب الفرقة والتشاحن بين أفراد الشعب ، ثم لإصلاح ميزانية الدولة وجمع المال اللازم لتجهيز الجيوش التى سيناط بها طرد الفرس وتطهير البلقان من القبائل المتبربرة التى كانت تتجول فيها وتنهب خيراتها بلا رقيب ولا رادع .

ونجحت سياسة هيرقليوس واستطاع بمساعدة البطريرك سرجيوس Sergius

ان يجمع المال ويوحد الكلمة ويلهب المشاعر ، قبل أن ينفذ خطته الجريئة التى لولا نجاحها لعدت مخاطرة حمقاء .

حرب الفرس . بدأ هيرقليوس بعقد الصلح مع الآفار لوضع حد لهجماتهم على البلقان[٢٠] ، ثم دفع بجيشه ، سنة ٦٢٢ ، خلال سهول آسيا الصغرى ، غير عابىء بجيوش الفرس المرابطة فى بعض المقاطعات ، ولا بهجمات الآفار على العاصمة ، سنة ٦٢٣[٢١] ؛ وفى حملات ثلاث ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ تمكن من هزم الجيش الفارسى ؛ ولكن كسرى الثانى استطاع أن يعبىء جيشاً آخر أرسله ليستولى على القسطنطينية ، بعد أن وثق من مساعدة الآفار لاستكمال الهجوم من جهة البلقان . أما هيرقليوس ، فقرر البقاء فى الجبهة الشرقية ، بعد أن اتخذ التدابير للدفاع عن العاصمة ، وصمدت العاصمة ضد كل محاولات الفرس والآفار لاقتحامها ، سواء ما كان من جهة البر أو من جهة البحر ، بفضل حاميتها الباسلة وبفضل قوة شخصية البطريرك سرجيوس .

وما إن تقدم هيرقليوس وزحف على المدائن ، طيسفون Ctésiphon ، عاصمة الفرس ، حتى نشبت فيها الثورة ، وقتل كسرى الثانى ، وكان مقتله إيذاناً بنشوب المنازعات على العرش ، بين أفراد البيت الساسانى . . وأسرع قوباذ ، ابن كسرى الأكبر يطلب الصلح . وكان من شروطه إعادة الأراضى البيزنطية التى استولى عليها الفرس ، كما ألزم بإعادة الصليب المقدس الذى كان كسرى الثانى قد نهبه من بيت المقدس ، سنة ٦١٤ .

حرب العرب . لكن الأقدار لم تترك لهيرقليوس مهلة للراحة أو للتمتع بانتصاراته الباهرة ، وما كادت تحل سنة ٦٣٤ ، إلا وكان العرب قد احتلوا بُصرى ودمشق ، وهم فى طريقهم للاستيلاء على سوريا (معركة اليرموك ثم قيصرية)[٢٢] ؛ ثم تتقدم الجيوش العربية الجبارة إلى مصر فتنتزعها من الدولة البيزنطية فى أقل من سنتين . ولا تهدأ للعرب ثائرة ، فلا تمر سنة

دون غزوة أو غزوتين ، الصوافى والشواتى ، داخل الحدود البيزنطية فى شمال سوريا .

ذلك لأن "هم" العرب الشاغل كان فتح القسطنطينية وإزالة عرش الأباطرة ، كما فتحوا فارس وقضوا على الساسانيين . فأخذوا يشنون الحملة تلو الحملة لتحقيق هذا الهدف ، ولكن دون جدوى[٢٣] ، ففى كل مرة نجحت العاصمة بفضل أسوارها ، وبفضل تحكم البيزنطيين فى البحار بواسطة النيران الإغريقية التى لم يتوصل أحد إلى طريقة للاتقاء من شرها .

فوضى وإفلاس ٦٤٢ — ٧١٧

لقد كان للحروب العديدة التى أضطر هيرقليوس إلى خوضها أسوأ الأثر على اقتصاديات البلاد وعلى خزانة الدولة ؛ ولم تزدها السبعون سنة التى سبقت حكم الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى إلا تدهوراً وسوءا ، لأن العرب استقطعوا من أملاك الدولة البيزنطية أخصب المقاطعات وأغناها ، وأقصد سهول العراق وسوريا وحوض النيل وسواحل طرابلس الغرب ، وكانت الدولة تعتبرها مخازن غلالها ودعامة تجارتها الخارجية .

واقترن هذا التدهور المالى ، لسوء حظ بيزنطة ، بتدهور سياسى نادر المثيل . ولنترك الإفصاح للأرقام ، فهى خير ما يوضح الظروف القاسية التى مرت بها الدولة البيزنطية بين سنتى ٦٤٢ و ٧١٧ .

فإذا استثنينا حكم قسطنطين الثانى ، الذى دام ٢٧ سنة ٦٤١ — ٦٦٨ م ٢١ — ٤٧ ﻫ ، وحكم قسطنطين الرابع بوجوناتوس Pogonatus أى الملتحى ، الذى دام ١٧ سنة ٦٦٨ — ٦٨٥م / ٤٨ — ٦٦ ﻫ ، وجدنا أن ١٢ إمبراطوراً اعتلوا العرش فى ما بقى من هذه الفترة ، أى فى ٢٢ سنة ؛ معنى هذا أن معدل حكم الواحد منهم لم يزد على ثلاث سنوات .

فإذا أضفنا إلى هذا البيان أن ستة من الأربعة عشر إمبراطوراً خُلعوا ثم سُجنوا أو نُفوا ، بعد أن جُدِعت أنوفهم أو قطعت ألسنتهم أو فقئت عيونهم ، وأن أربعة ماتوا قتلا واغتيالا ، استطعنا أن نتصور مبلغ الفوضى التى عانى منها الحكام والرعية .

وقد زاد الطين بلة مبدأ تعدد الأباطرة الذى أصبح تقليداً معمولا به طوال هذه الفترة ، فكان همُّ الواحد منهم وشغله الشاغل التخلص من إخوته أو من شركائه بالطرق الوحشية التى أشرنا إليها .

وهناك أخيراً ما أصاب هذه الدولة البائسة من تشتيت وتفرقة ، بسبب المناقشات العقائدية التى شغف بها الناس ولا سيا الحكام ، فذهبوا وراءها كل مذهب ، وتمادوا فى تعصبهم إلى درجة أنهم أعادوا إلى الأذهان صورة عصور الاضطهادات التى عانت منها المسيحية الأولى فى عهد الامبراطورية الرومانية الوثنية .

ليو الثالث الأيسورى ٧١٧ — ٧٤٠ م

فى ٢٥ من مارس ٧١٧ هدرت فى العاصمة الثورة الثالثة ، فى مدى أربع سنوات[٢٤] ، وكان زعيمها ليو المعروف بليو الأيسورى[٢٥] ، قائد الجبهة الشرقية فى آسيا الصغرى .

وقد دلت البوادر على أن هذه الثورة سوف لا تكون كمثيلاتها السابقة ، لوناً من الشغب والفوضى لا غير ؛ فقد كان قائدها جندياً مبرزاً ، وسياسياً محنكا ، ورجل إدارة ونظام : هــذا ما عرف عنه فى أثناء قيادته لجيش الأناضول فى عمورية Amorium

حصار العرب للقسطنطينية . لم تمهل الحوادث الإمبراطور الجديد ، إذ لم تمض على اعتلائه العرش خمسة شهور حتى أخذت الجيوش العربية تتدفق إلى

مضيق الدردانيل والبوسفور ، براً وبحراً . وأظهر العرب شجاعة وعدم مبالاة بالموت لا مثيل لها إلا عزم البيزنطيين على الصمود ، واستماتتهم فى سبيل البقاء .

ولكن العرب لم يسعدهم الحظ : فأما الأسطول العربى فنالت منه السفن الملتهبة التى قذف بها أمامه الأسطول البيزنطى ، وكذلك النيران الإغريقية الرهيبة ، ولم يلقَ الأسطول الجديد الذى أرسله الخليفة عمر بن عبد العزيز على أثر توليه الخلافة (٧١٧) ، لم يلق مصيراً أفضل . وأما جيش مسلمة ، أخى الخليفة سليمان(٢٦) الذى كان يرابط فى البر الغربى ، أى الأوربى ، فقد كان لتدمير الأسطول أسوأ الأثر فى نشاطه ؛ وزاد الأمر سوءاً إنزال قوة بيزنطية على الشاطىء الأسيوى من البوسفور ، حالت دون الاتصال بين مسلمة وباقى الجيش العربى المرابط هناك ؛ وأخيراً أشيع نبأ قدوم البلغار لنجدة المدينة ، فاضطر مسلمة إلى رفع الحصار ، وعاد إلى الشام مخترقاً آسيا الصغرى .

ليو المصلح

وبعد أن أقر ليو السلامَ الخارجى ، أخذ يكرس جهوده للإصلاح الداخلى ، فى ميادين الأمن والاقتصاد والتنظيم الإدارى والدينى .

١ — استتباب الأمن والنظام . كان عليه أولا أن يعمل على إعادة الأمن والنظام الذين كانت البلاد تفتقر إليهما منذ زمن طويل . ولم يكن الإمبراطورَ ، بحكم تنشئته العسكرية ، ميالا إلى التردد أو إلى أنصاف الحلول ، فضرب بمنتهى الصرامة والقسوة على أيدى العابثين ، قبل أن يتفاقم أمرهم ؛ وهكذا قمع مؤامرةً فى صقلية ، عام ٧١٧ ، وأخرى فى القسطنطينية ، عام ٧٢٠ ، فأنزل الرعب فى القلوب ، واضطر تجار الفوضى إلى الإقلاع عن دسائسهم ، عن خوف ، إن لم يكن عن رضا ، وعادت الحياة العامة إلى الاستقرار ، وعاد الناس إلى العمل البنّاء المنتج .

٢ — الإصلاح الاقتصادى . بعد ذلك ، أصبح من السهل بمكان فى هذا

الجو الهادئ المطمئن ، معالجة الإفلاس المزمن الذى ما زالت خزانة الدولة تشكو من تضخمه على مر السنين . ولجأ ليو لتحقيق هذا الغرض إلى وسيلتين : فعمد أولا إلى إيجاد جهاز جديد للجباية ، غير نظام الالتزام الذى كان يفرض على الأعيان ؛ فقرر أن تكون للضرائب إدارة خاصة وجُباة متفرغون مسئولون أمام الحكومة ، شأن سائر مرافق الدولة .

ثم ، عندما انتعشت الحركة الاقتصادية وزاد الدخل ، عمد إلى رفع الضرائب . . . حتى قيل إنه أمر بمضاعفتها ذات سنة ، أى بجمعها مرتين (سنة ٧٢٧) . فلا عجب إن اتهمه معاصروه بالبخل والتهالك على المال .

ويقال إنه عُنى بالزراعة ، فشجع صغار الملاك المزارعين ، وعمل على تأمين التجارة البحرية وتخفيف القيود عنها ، لأنها كانت مهددة بالكساد ، نتيجة القرصنة التى كانت نشيطة جداً فى البحر المتوسط فى هذه الفترة .

٣ — الإصلاح الإدارى . ثم عكف الإمبراطور على تطوير بعض النظم الإدارية ، وكان قد تطرق إليها الجمود والفساد . ومن بين الإصلاحات التى أدخلها ، نذكر تجزئة ولايات الثغور إلى وحدات أصغر[٢٧] : وبذلك وضع حداً لنفوذ كبار القواد وأمِنَت الدولة مغبة انقلابهم عليها .

ونذكر فيما يتعلق بالجيش القرار الذى أصدره ليو بإعادة الجند إلى معسكراتهم ، وبمنعهم من مزاولة أعمال الزراعة والتجارة .

وجالت أيضاً يد الإصلاح فى شئون القضاء ، فأمر الإمبراطور بصرف مرتبات ثابتة للقضاة ، فقضى بذلك على سبب من أسباب الرشوة المتفشية ، وما استتبعته من مظالم ومن إهدار لمصالح الناس .

٤ — الإصلاح الدينى . كل هذه الإصلاحات ، التى وفق ليو الثالث فى

تنفيذها إلى مدى بعيد ، زادت من ثقة الإمبراطور بنفسه ، كما قوت إحساسه بمسئولياته ، حتى فى المحيط الدينى والعقائدى .

لا سيما وأنه كان يرى أن المجتمع لا يمكن أن يقوم إلا على دعامتين : « الإمبراطور والبطريرك » ، الإمبراطور الأول ، ثم البطريرك ، الذى عليه أن يضع نفوذه الدينى وهيبته فى خدمة الدولة ، حسبما يشير إليه الإمبراطور .

ولم يبتدع ليو الثالث هذه المبادئ : فقد كان سلفه منذ قسطنطين يرون هذا الرأى ، بل كان الإمبراطور يعتبر نفسه كبير الكهنة Pontifex Maximus ، منذ أن كانت الإمبراطورية فى روما .

وجاءت الدعوة اللاأيقونية فرصةً مواتية لتطبيق هذه النظرية ، ولإثبات سلطة الإمبراطور فى الحقل الدينى .

لا شك أنه كان فى عصر ليو الثالث ، وقبل عصره ، انحلال دينى وخلقى أدّى إلى كثير من البدع والخرافات وادعاء المعجزات . ولا شك أيضاً أن الكثير من صادقى الإيمان كانوا ينعون على بعض الفئات المسيحية غير المثقفة ما انحدرت إليه من فساد ، ولا شك أخيراً أن بعض المغالين المتزمتين طالبوا بإصلاح صارم شامل ، وألحّوا عليه ، وقد اندفعوا فى تياره إلى مطالب لا تمت إلى الدين المسيحى بسبب من الأسباب ، بل لعلها كانت منافية له كل المنافاة . وقد انتشرت هذه الفئة من مدعى الإصلاح فى آسيا الصغرى بوجه خاص ، وكان الإمبراطور على علم بها وبأهدافها ، بل وبخطرها على الدين ، ثم على وحدة المشاعر فى الأمة .

فلِمَ لا يقطع دابر الفتنة المتوقعة ، بأن يتولى بنفسه حركة الإصلاح هذه ؟

وهكذا أصدر ليو ، عام ٧٢٦ ، قراراً بمنع عبادة الصور والتعرض

لها بأى لون من ألوان التعظيم أو التكريم ؛ وهو فى هـذا القرار لم يعبأ برأى السلطات الكنسية ، ولا بمشاعر الرعية التى ، إن سلـّمت جدلا بحق الإمبراطور فى اتخاذ مثل هذا القرار ، فإنها لم تفهم أن يؤخذ الصالح بالطالح ، وأن يتجاوز الحكم على الغلو والإسراف إلى محاولة القضاء على عقائد وتقاليد لم تكن من البـدع فى شيء . ذلك أن تكريم صور القـديسين ، فى عرف الدين القويم ، إنما هو موجه لمن تمثله الصورة ، لا للصورة نفسها ، كتكريمنا لصور رئيس الدولة أو لتماثيل الأبطال الذين استشهدوا فى سبيل الوطن ، سواء بسواء .

فلا غرو إن ثارت ثائرة البلاد ، حتى أن بحّارة الأسطول نادوا بإمبراطور جديد ، وقصدوا القسطنطينية لتنصيبه . هذا التمرد ، وإن لم ينجح ، إنما كان له مغزاه الصريح الجلىّ .

ولم يكن من العسير على الإمبراطور أن ينهى معارضة بطريرك القسطنطينية جرمانوس : فاضطره إلى الاستقالة ، ثم عين فى منصبه من كان أكثر منـه ليناً وأتم أستعدادا لتنفيذ القرار الإمبراطورى .

وأما الصوت الذى عجز ليو عن إسكاته فـكان صوت البابا جريجوريوس الثانى ، ثم صوت خلفه جريجوريوس الثالث ، الذى أعلن خروج من سيعمل بقرار اللاأيقونية ، على الكنيسة وعلى التقاليد والعقائد المُجمع عليها . فكان ردّ الإمبراطور أن فصل الولايات البيزنطية التى كانت تابعة لسلطة البابا الروحية ، وهى صقلية واليريا وشبه جزيرة البلقان ، وجعلها من اختصاص البطريركية البيزنطية .

ويعتبر المؤرخون هـذا القرار خطوة حاسمة نحو تفاقم الخلاف وتوسيع الهوة بين شق الكنيسة الشرقى والغربى ، هـذه الهوة التى سوف تؤدى إلى الانفصال الذى ما زالت المسيحية تشكو منه إلى الآن .

شروح وتعليقات

....

(١) سقطت القسطنطينية على يد السلطان التركى العثمانى محمد الثانى فى ٢٩ مايو ١٤٥٣ ، بعد أن دافع عنها حتى الموت آخر أباطرتها قسطنطين التاسع .

(٢) Fœderatus من Fœdus أى الحليف .

(٣) فيما يلى وصف لهذا السور ، عند الكلام عن ثيودوسيوس ، ص ٨٩

(٤) وهو السور المعروف بالسور الطويل . يقع على بعد ٦٠ كيلومترا تقريبا من القسطنطينية ، ويمتد الى البحر الأسود .

(٥) اقتسم الفرس والرومان أرمنيا منذ سنة ٣٨٧ م .

(٦) مؤسس الدولة الساسانية الملك أردشير بن ساسان ، أسسها سنة ٢٢٦ هـ . ومازال الساسانيون يحكمونها الى أن أزال العرب ملكهم باحتلال العاصمة طيسفون Ctesiphon أو المدائن ، الواقعة على نهر دجلة ، فى ٦ يوليو ٦٣٧ م ، ١٦ هـ ، وأما آخر ملك من آل ساسان فقد قتل فى مدينة مرو عام ٦٥١ م — ٣١ هـ .

(٧) أنظر فى هذا الفصل ، ص ٩٩

(٨) قسم تيودوسيوس الأول حكم الامبراطورية بين ابنيه هونوريوس واركاديوس ، فتقلدا الحكم عند موت أبيهما سنة ٣٩٥ م .

(٩) عند موت هونوريوس امبراطور الغرب كان امبراطور الشرق تيودوسيوس الثانى هو الذى عين له خلفا فى شخص فالنتنيان الثالث ، ابن هونوريوس سنة ٤٢٤ م فى رافنا Ravenna ، كما أن الامبراطور ليو الأول عين بنفسه الثرى انتيميوس امبراطورا للغرب فى سنة ٤٦٧ . وظلت حكومة القسطنطينية تتدخل فى الشئون التشريعية (٤٣٨) وتفرض مساعدات عسكرية لتعزز بها نفوذها على الدولة الغربية .

(١٠) وقد أسرع مجلس شيوخ روما ، السناتو ، الى اقراره على ما فعل ، فأرسل خطابا الى زينون جاء فيه : « أن الامبراطورية الرومانية ليست فى حاجة الا الى رئيس واحد » أى امبراطور بيزنطة .

(١١) ويقال أن قائد الجند البرايتورى انتيميوس Anthemius كان له فضل كبير فى تنفيذ المشروع ، ونشير الى أن انثيميوس هذا كان وصيا على ثيودوسيوس الثانى فى صغره، من ٤٠٨ الى ٤١٤، وهو غير الامبراطور انثيميوس الذى عينه ليو الأول امبراطورا فى رافنا سنة ٤٦٧ . (أنظر فى الحاشية رقم ٩ من هذا الفصل) .

(١٢) ولى جستنيان الحكم عند موت أناستاسيوس الأول عام ٥١٨ ، بمساعدة الحزب الأرثوذكسى المناوىء للحزب القائل بالطبيعة الواحدة فى السيد المسيح ، والذى كان أناستاسيوس أقوى سند له .

(١٣) ثار الشعب بحزبيه الخضر والزرق فى ٥٣٢/١/١١ ، ونادى بسقوط جستنيان ، وحاصر القصر الامبراطورى هادرا مهددا ، ويئس الامبراطور من اصلاح الحال ، ففرر الفرار ، لولا تدخل تيودورا واصرارها على الدفاع حتى الموت ، قائلة كلمتها الشهيرة : « ان العباءة الامبراطورية لأفضل الأكفان »، فتشجع الجميع ، وتمكن بلبزاريوس من اخماد هذه الثورة العارمة التى عرفت باسم (نيقا) وهو اللفظ الذى كان يهتف به الحزب المنتصر فى الملعب ، ومعناه انتصار .

(١٤) استطاع القائد بليزاريوس ، بعد وقعتى قرطاجة Carthago وتريكامرون Tricameron ، أن يستأصل شأفة الوندال ، وأن يمحو دولتهم من الوجود ، ليجعل من الشمال الافريقى ولاية بيزنطية .

(١٥) أغلقت مدرسة القانون فى بيروت بعد أن هدمها زلزال سنة ٥٥١ .

(١٦) وفر موريكيوس وأولاده ، الا أن رجال فوكاس أدركوهم وقتلوهم بأمر سيدهم .

(١٧) بقى لبيزنطة نيابة رافناودوقية روما والطرف الجنوبى من شبه الجزيرة مع صقلية وكورسيكا وسردانيا بالاضافة الى مدينتى جيتوا ونابولى وما يحيط بهما من أراضى . (أنظر الى خريطة إيطاليا ، ص ٧٦) .

(١٨) Monothélistes أى القائلون بالطبيعة الواحدة فى شخص السيد المسيح .

(١٩) تزعم نائب قرطاجة هيرقلبوس القديم حركة التمرد والعصيان ، فامتنع عن تموين العاصمة منذ سنة ٦٠٨ ، ثم أرسل حملة بقيادة أحد أقاربه يدعى نيسيتاس Nicétas احتلت وادى النيل وانتزعته من حكومة فوكاس .

(٢٠) أنظر فيما بعد الفصل الخامس ، العرب والاسلام .

(٢١) شملت غارات الآفار مقاطعة آخئيا Achaia جنوب بلاد الاغريق ، وتسمى أيضا شبه جزيرة المورة ، وجزر بحر ايجيه ، وامتدت الى بعض مدن آسيا الصغرى .

(٢٢) هدد الآفار القسطنطينية من جديد سنة ٦٢٣ ، بينما كان هيرقليوس يتتبع الفرس فى كبادوكيا ، فأسرع الامبراطور عائدا الى العاصمة ، وأغرى بالمال زعيم الآفار ، الذى كان يلقب بالخاجان ، ولكنه رفض الانسحاب .

(٢٣) قام الخليفة معاوية بمحاولتين لاحتلال القسطنطينية ، الأولى فى ٤٨ ـ ٤٩ هـ/٦٦٨ ـ ٦٦٩ م ، والثانية فى ٥٤ ـ ٥٩ هـ/٦٧٣ ـ ٦٧٨ م ، لم تكللا بالنجاح .

(٢٤) أسقطت الثورة الامبراطور فيلبيكوس Phillippicus سنة ٧١٣ ، وأسقطت ثورة أخرى الامبراطور أناستاسيوس الثانى سنة ٧١٦ ٠

(٢٥) لم يكن ليو من مقاطعة أيسوريا ، الواقعة جنوبى آسيا الصغرى ، فقد كان أصل أسرته من مدينة مرعس التى أطلق عليها الرومان اسم Germanicia

(٢٦) مات الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٧١٧ ٠

(٢٧) كانت السلطة فى ولاية الثغور فى أيدى العسكريين ، منذ القرن السابع ، لكثرة تعرضها للهجمات الخارجية ٠

الفصل الخامس

العرب . . الإســـلام

الموجـــز :

تمهـــيد : العرب وبلادهم .

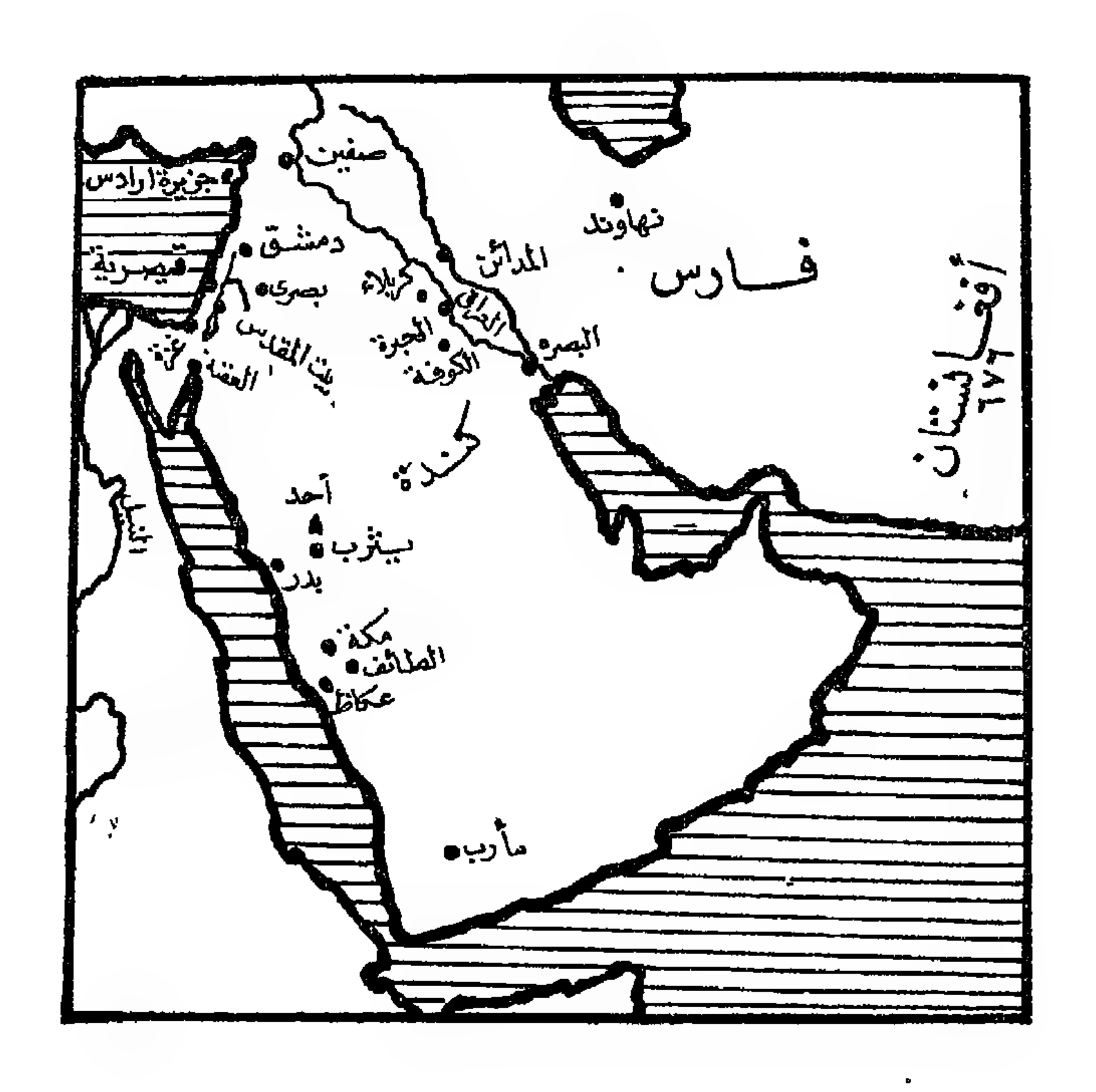
سيرة الرسول العربى : المراجع . السيرة .
القرآن .
مكة . الهجرة .
يثرب .
الكعبة . الشريعة الإسلامية .

عهد الخلفاء الراشدين : الفتنة الأولى .
أبو بكر . الردة .
عمر بن الخطاب .
الفتـــوح : فى عهد أبى بكر .
فى عهد عمر .
فى عهد عثمان .

بين على ومعاوية : دين أو دنيا .

معـــاوية : مبادئه .

خلفاء البيت الأموى : النظم الإدارية .
التوسع والفتوح .
الفتن : الخوارج . الزبيريون . الموالى .


صفين
جزيرة ارادس
دمشق
قيصرية
بصرى
بيت المقدس
غزة
العقبة
كربلاء
العراق
الحيرة
الكوفة
المدائن
نهاوند
فارس
البصرة
أفغانستان
كندة
أحد
يثرب
بدر
مكة
الطائف
عكاظ
مأرب

تمهيد

العرب وبلادهم

فى الرابع من فبراير سنة ٦٣٤ ، فى وادى العَـرَبَة ، جنوبى البحر الميت ، التقت جماعة من العرب ، قادمة من الجنوب ، بفرقة من الجيش البيزنطى وهزمتها شر هزيمة ؛ ثم ، بدلا من أن يعود العرب أدراجهم إلى جزيرتهم الصحراوية ، إذا بهم يواصلون الزحف صوب الشمال ، وإذا بهم يلتقون مرة أخرى بالجيش البيزنطى ، فى أغسطس من السنة ذاتها ، عند مدينة أجنادين ، ومرة أخرى يكتب لهم النصر . . . صدمة عنيفة ، تركت بيزنطة فى حالة أشبه بالذهول .

وَهْم

لا شك أن بيزنطة كانت واهمة فى أمر الجزيرة العربية ، فدفعها سوء تقديرها إلى احتقار العرب واستصغار شأنهم . فلم تر فيهم سوى قبائل رحّل ، هزيلة جائعة ، لا تكف عن التنقل خلف أنعامها ، « يتربصون مواسم الغيث ، فيخرجون بكل ما لهم من نساء وإبل يتطلبون المرعى[1] » .

ولكن ، إذا انتابهم الجفاف وأجدبت الأرض ، كشروا عن أنيابهم ، ودفعهم الجوع إلى الغارة الضارية لإشباع بطونهم ، ثم ما أسرع تواريهم بين وعساء الرمال أو الحرات السود ، فلا يقدر على تتبعهم قادر ، ولا على معاقبتهم سلطان .

الصحراء الشاسعة من الداخل والبحر المحلق من الخارج : هذا ولا ريب عين الشقاء ؛ إذا كتب على أمة تحكم فى مصيرها الجهلُ والجمود

والتخلف ، وهى أدواء لا تغنى معها سرعة البديهة ، ولا توقد الذكاء الذى اتسم به العرب .

الواقع أن هذه نظرة سطحية ، لا تمت إلى البحث العلمى بصلة . وإذا كانت حدود بحثنا لا تتسع لدحض هذه المزاعم ، فإننا لا نملك الصمت عليها ، فى حين أن أصحاب الأغراض المتشدقين بحضارتهم يرمون العرب بكل قصور ، بل وبعدم القابلية للتحضر والترقى . نحن فى أمس الحاجة إلى إعادة الثقة بأنفسنا ، وحسبنا لذلك أن نعود إلى ماضينا : إنه جد كاف لرفع روحنا المعنوية على أساس متين من الواقع المجرد من تنميق القول وتزييف الكلام .

إن نظرة نلقيها على كل من الفئتين اللتين تكونت منهما الأمة العربية قبل ظهور الإسلام ، الحضر والبدو ، لكفيلة بأن تبرز الحقيقة وتضع النقط على الحروف .

(١) الحضر

أثبتت الاكتشافات الأثرية أن الحضر ، وهم سكان المدن والقرى المتناثرة على حافة شبه الجزيرة ، لا سيما فى هضاب الساحل الغربى وعلى طرق القوافل ، كانوا أصحاب مدنية متقدمة ، ليست بأقل شأناً من مدنية الفرس أو الروم ، إلا ما كان أصله اعتدال المناخ وخصوبة الأرض وتوفر المياه . . . ولا ذنب على العرب فيما حرموا منه وتمتع به غيرهم ، فجعله فى كثير من الأحيان أداةً للجور والطغيان والاستعمار .

وإذا أدت هذه الظروف القاسية إلى تدعيم النزعة الفردية والقبلية ، الموسومة بضيق الأفق والعصبية المغالية المحمومة(٢) ، فليس ذلك إلا نتاجاً لمقدمات لم يكن منها مفر .

ولا غرابة فى أن تدفع هذه الملابسات إلى التشتيت وتفرق الشمل ، مما يتعذر معه قيام وحـــدة اجتماعية وسياسية شاملة ، تتولاها سلطة واعية ، تستهدف تقدم الجماعة ورفع مستوى معيشتها المادى والمعنوى .

والدليل على صحة ما نسوقه نجده فيما أثبته التاريخ من أن هذه المقومات ما كادت تتوفر للمناذرة فى الحيرة أو لغساسنة بصرى أو لعرب تدمر أو لأنباط البطراء[٣] حتى أخذت بلادهم تترعرع فى أزهى حلل المدنية والعز .

وما زالت الآثار التى تفرج عنها رمال الصحراء يوما بعد يوم ، شاهد صدق على حسن استعداد العرب للتطور الحضارى وللتمدن والترقى .

وشىء آخر غاب عن فطنة بيزنطة ، أن طرق التجارة هى من قـــديم الزمان مهد الحضارات ومنابع المدنيات : فكيف تشذ بلاد العرب عن هـذه القاعدة ، وهم الذين احتكروا أهم طرق المواصلات والتبادل العالمية ، طريق الخليج العربى ، وطريق اليمن ـ الحجاز ؟ .

ولا عجب إذا فضل أهل الحضر منهم احتراف التجارة ، وقد دفعهم إليها موقع بلادهم الممتاز وسط بلاد الهند وشمال آسيا وأوربا وأفريقيا ، فلا غرو أن أصبحوا من أمهر روادها وأن أثروا عن طريقها ثراء واسعاً .

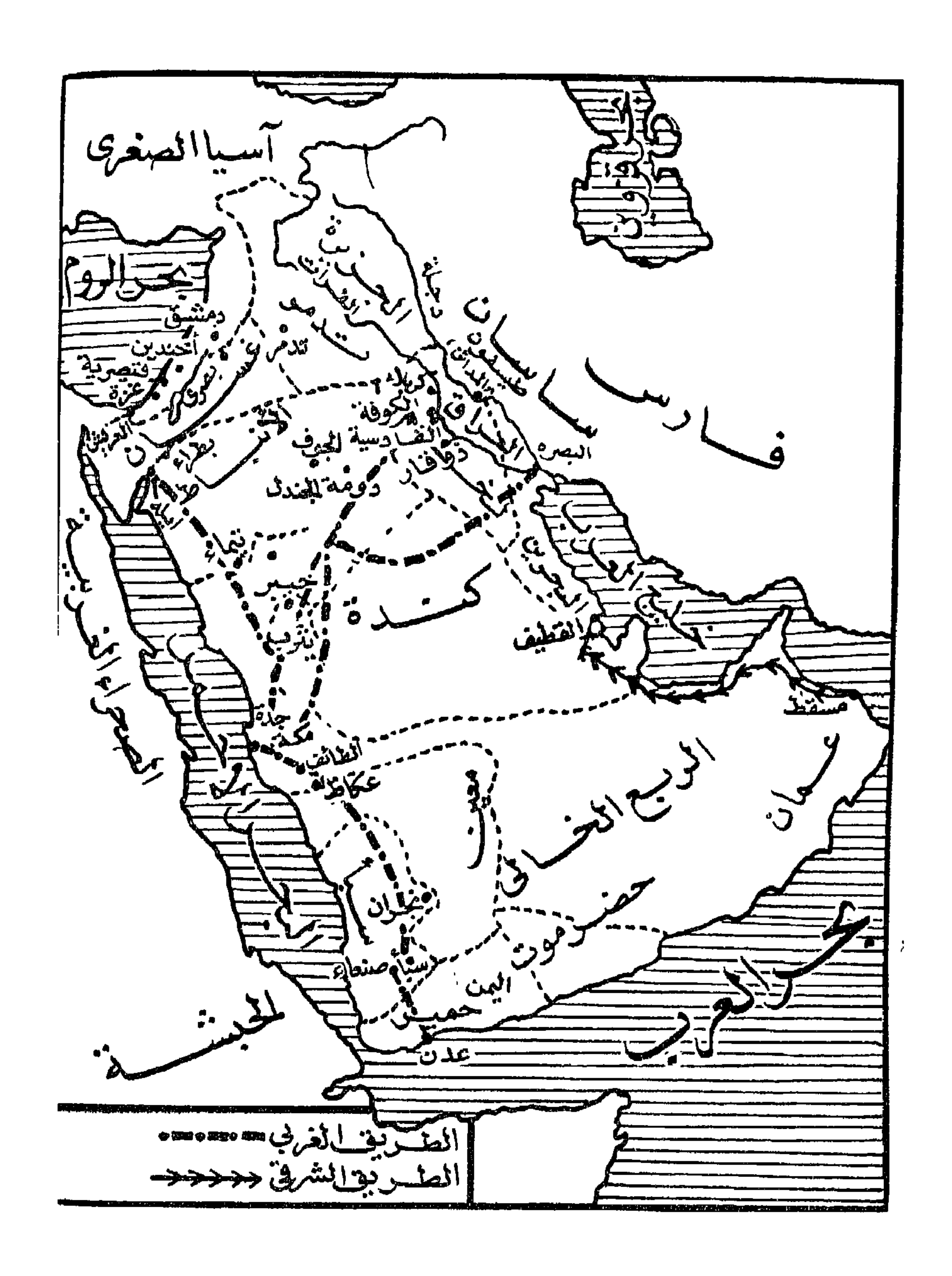
وتشير المصادر العربية إلى أن الفضل فى تنظيم حركة التجارة على الساحل الغربى إنما يرجع إلى هاشم بن عبد مناف بن قصى ، عندما آلت إليه زعامة مكة ، حوالى سنة ٤٠٠ م . فقد نجح فى عقد أحلاف تجارية مع النجاشى وكسرى وفارس وقيصر الروم ، مكنت قريشاً من أن تتزعم الحركة التجارية بين القارات المختلفة المجاورة . وقد ساعد قريشاً على ذلك استمرار حالة الحرب بين الروم والفرس ، مما أدى إلى بوار تجارة الخليج العربى لصالح تجارة اليمن والحجاز . ويضيف الزمخشرى فى الكشاف ، ص ٣٦٠ ، بعد أن شرح الآية : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » ، فيقول : « وكانوا فى رحلتيهم آمنين ، لأنهم أهل

حرم الله وولاة بيته فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم » . وقد توسطت مكة الطريق المؤدى من اليمن إلى الشام ، وكانت على رأس طريق آخر يصل بينها وبين الحيرة على نهر الفرات ، ومن الحيرة إلى طيسفون (المدائن) عاصمة الفرس على نهر دجلة .

قال الدكتور أحمد فخرى : « كانت موانىء الشاطىء الجنوبى للجزيرة العربية مركزاً للتبادل التجارى ، تأتيها السفن من الهند والعراق الجنوبى ، وفيها سلع تلك البلاد ، فتنقلها قوافل العرب من جنوبى الجزيرة إلى شمالها ، مارة بالمراكز التجارية الهامة ، مثل صنعاء ومأرب وبلاد الجوف ، ثم بمكة والمدينة ومداين صالح وتبوك ومعان ، إلى أن تستقر أخيراً فى غزة على شاطىء البحر الأبيض . وكانت هناك أسواق فى كل بلد من البلاد الهامة الواقعة على هذا الطريق ، كما كانت هناك طرق فرعية أخرى تربط بلاد العرب والعراق والشام بالطريق الرئيسى . ومتى وصلت القوافل إلى غزة تبيع ما لديها ثم تعود محملة بما تجده فى أسواق غزة من سلع مصر والشام وآسيا الصغرى ، وجزر البحر الأبيض المتوسط ، لتبيع بعضاً منه فى الأسواق التى على الطريق ، ثم تصل آخر الأمر إلى المحيط الهندى لتبيع ما لديها إلى تجار الهند »(٤) .

ومن العجيب أن تنشأ الدويلات العربية القديمة على طول طرق التجارة وتتكاثر الأسواق ويزيد التبادل(٥) ، دون أن يصيب أصحاب هذه التجارة شيئاً من الحضارة . . وهل من المعقول أن تختلط الشعوب وتتبادل السلع ويتعامل العرب ويتعاقدون على مر الأجيال مع دول أرسخ منهم قدماً فى الحضارة ، دون أن يكون لهم نصيب قل أو كثر من التطور والمدنية ؟

قال الدكتور ناصر الدين الأسد : « تتمثل حضارة العرب فى ذلك الاتصال الوثيق الذى كان يربط عرب الجزيرة بالحضارات القائمة فى جوارها من فارسية ورومية ومصرية الخ ، وربما كانت أهم سبل هذا الاتصال هى :



آسيا الصغرى
بحر الروم
دمشق
أجنادين
قيصرية
غزة
تدمر
غسان
بصرى
فارس
ساسان
البصرة
الكوفة
القادسية
الجوف
ذو قار
دومة الجندل
تيماء
خيبر
يثرب
كندة
القطيف
مسقط
جدة
مكة
الطائف
عكاظ
الربع الخالي
عمان
معين
نجران
حضرموت
صنعاء
اليمن
حمير
عدن
الحبشة
بحر العرب
الطريق الغربي
الطريق الشرقي

أولا : هاتين الإمارتين العربيتين اللتين كانتا تتاخمان الحضارتين الكبيرتين لذلك العهد ، واللتين كانتا أشبه بالثغور على الحدود ، وهما : المناذرة فى الحيرة والغساسنة فى الشام . . .

ثانياً : هذه الطرق التجارية المنظمة التى كانت تتخلل صحراوات بلاد العرب وتلك المواثيق والعهود التى كانت تربط العرب الذين تمر تلك القوافل ببلادهم فيتعهدون بالمحافظة عليها لقاء جُعل يدفع إليهم .

ثالثاً : هذه الأسواق والمواسم العربية التى كان العرب يقيمونها فى أطراف الجزيرة حيناً وفى قلبها حيناً آخر . فكان يؤمها العرب من مختلف بقاعهم وعلى تباين حظوظهم من الحضارة والمدنية ، وكان يؤمها كذلك بعض التجار الفرس والهنود والمصريين والرومان ، فكان كل أولئك يلتقون فى صعيد واحد ، يأخذون ويُعطون ويتبادلون ما عندهم من متاع وعروض ومن آراء وأفكار ومن مظاهر الحضارة المختلفة .

رابعاً : هذه الجاليات الأجنبية الكبيرة التى كانت تفد على الجزيرة العربية فتقيم فيها وتطيل المقام . . .

خامساً : هذه الجماعات والأفراد من العرب أنفسهم الذين كانوا يفدون على فارس وبلاد الروم والحبشة ومصر للتجارة حيناً ، وللتعرض لعطاء الملوك والسادة حيناً آخر ، ولطلب العلم والهداية حيناً ثالثاً . أما التجار العرب فكانوا يضربون فى الأرض ضرباً بعيداً فيصلون إلى أقصى ما كان يعرف من عالمهم آنذاك . وأما المتعرضون للعطاء فكانوا من الشعراء ورؤساء القبائل وأصحاب الرأى فيها ، يفدون إلى ملوك المناذرة أو الغساسنة أو بلاط كسرى أو بلاد مصر والحبشة ، فيقيمون هناك ما شاء الله أن يقيموا ، يرون ما لم يروا فى بلادهم ، ويتزوّدون بالجديد الطريف من ألوان الحضارة المتباينة . وأما طالبو العلم والهداية فقد كانوا ممن استبدت بهم نزعات نفسية

أو خواطر فكرية ، فكانوا يطلبون فيما نأى عن ديارهم ما يفيدهم علماً أو يُكسبهم يقيناً واطمئناناً[٧] » .

وحسبنا القرآن شاهداً على حركة التبادل المعنوى والفكرى التى أفاد منها العرب ، بما احتواه من ألفاظ فارسية ويونانية وهندية وحبشية ، تتوزع على أرق مجالات التفكير وأغور معانى التعميم والتجريد[٨] .

(٢) البدو .

نعم البدو : لقد حان أن ينصفهم التاريخ ولو بعض الإنصاف . إن أولئك الذين خلفوا لنا هذا الشعر[٩] الذى ينضح عزة وإباء ، أولئك الذين كانوا من الكرم بحيث تسابقوا فى البحث عن الضيف يوقدون النيران ليهتدى إلى منازلهم ، يعقرون له ناقتهم إذا جف الضرع وقل الزاد ؛ وكانوا من الشجاعة والإقدام بحيث كانوا يُعلِون عن أنفسهم فى ساحة الوغى ، يخفُّون إلى نجدة المستغيث ويقدسون حقوق الجار ؛ أولئك الذين لم يتغنوا بشىء بقدر ما تغنوا بالوفاء بالعهد والعفة عند المغنم والحلم عند المقدرة . . . إن أصحاب هذه المشاعر السامية والخصال الكريمة لجديرون بألا نرميهم بكل نقيصة وبكل « جهل » ، بل وأن نلتمس لهم العذر لبعض مظاهر العنف التى ألجأتهم إليها الظروف . .

وبربك ، ماذا نريد بهم أن يفعلوا وقد قست عليهم الطبيعة وجارت عليهم البيئة ؟ أيقمعون غريزة البقاء ويهلكون أنفسهم جوعاً وعطشاً ؟ إن الطبيعة هى المسئولة عما نجد فى طباعهم من قسوة ، وفى عصبيتهم من تطرف . ولكن ، إلى جانب ذلك ، أنظر إلى علومهم ، رغم ما فيها من بدائية وسذاجة ، أنظر إلى مجالس سمرهم ، انظر إلى أسواقهم الأدبية ، انظر إلى رقة مشاعرهم فى المديح ، والفخر والغزل والعتاب أو الاعتذار . . انظر إلى جمال وصفهم للطبيعة من حيوان وجماد ونجوم وأنواء ، كل ذلك فى دقة وحركة وحيوية تتحدى أرقى أنواع فنوننا الأدبية المعاصرة .

ولكننا نعود لنقول إن أهل الحضر أنفسهم فضلا عن البدو ، لم يمثلوا يوماً من الأيام قوة تخشى ، لتفرقهم قبائل وعصبيات صغيرة متنافرة ، تحركها الأهواء والأقوال لا السياسة المنتظمة والتدبير الحكيم ، لا سيا وأن عرب الشمال ، وكان معظمهم من البدو والرحل ، كانوا كما أسلفنا على عداء مع العرب القحطانيين[١٠] النازحين من الجنوب . وكلا الفريقين ، القحطانيون والنزاريون ، لم ينفروا من شيء نفورهم من أى زعامة أو سلطة تفرض عليهم فى غير حدود القبيلة .

ولا يغرّنَّنا تشدق شعراء بكر بيوم ذى قار[١١] : فهل من المعقول أن تهزم قبيلةٌ ، مهما بلغ عدد أحلافها ، جيوش فارس ، أو تهدد عرشه بالزوال ؟ ولعلنا مدينون بما أثير من ضجة حول هـــذه الموقعة إلى خيال أجدادنا ، ولا لوم عليهم ، فهذا دأب الشـعراء فى كل أمة وفى كل عصر ، وسنرى الإفرنج ، بعـد آبائنا بقرون ، يجعلون من مناوشة رونسفو Ronceveaux فى عهد شارلمان ، من أروع الوقائع الحربية ومن أروع قصص البطولات . . . الخيالية .

ومهما يكن من أمر ، فإن العرب الذين هزموا الفرق البيزنطية المرابطة فى الشام لم يكونوا غساسنة ولا لخميين ، إنما كانوا من أهل الجزيرة ذاتها ، خرجوا لأول مرة فى تاريخهم المعروف فى حرب غزو وفتح ، ليـنـازلوا أقوى الدولتين اللتين كانتا تتقاسمان السيطرة على بقاع الشرق الأدنى ، ولينتزعوا منها كل أملاكها الشرقية . هذا هو الواقع .

وأما القول بأن انتصارهم المذهل مرده ضعف الدولة البيزنطية بعـد أن استنزفت الحروب الفارسية مواردها ، ففيـه مغالطة صارخة للتاريخ وتجـنٍ على العرب . لقـد أنهى الإمبراطور هيرقليوس حرب الفرس بالنصر الباهر سنة ٨ هـ / ٦٢٩ م ، ثم تمتع بخمس سنوات من السلم الشامل قبل أن يباغت

بالزحف العربى ، ويضيف المؤرخون العرب أن الإمبراطور أشرف بنفسه على إعداد العدة ، كما عين أخاه تيودور Theodore لقيادة الجيش الذى دحره العرب فى أجنادين (١٣ ﻫ / ٦٣٤ م) .

الحقيقة أنه إذا كانت بيزنطة التى حطم العرب جيوشها هى هى بيزنطة هيرقليوس ، قاهر الفرس ، فإن هؤلاء العرب الفاتحين لم يعودوا أولئك العرب المغيرين الذين عرفهم البيزنطيون من قبل ، وليست ضرورات البطون الجائعة ولا العصبيات القبلية ولا المطامع هى التى توجه اليوم نشاطهم ، وإن لم تخفَ الخفاء كله عن خواطرهم .

الحقيقة أن رجلا منهم نهض لينفض عنهم الجمود والعنصرية والقبلية ، وليشد أزرهم فى رابطة جديدة هى رابطة الأمة والقومية العربية ، تتخذ ركيزتها على قاعدة جديدة قوية ، الدين الإسلامى . هذا الرجل العبقرى هو محمد بن عبد الله ؛ فقد استطاع أن يجعل شعباً مشتتاً متناحراً يسمو بنفسه على القدر الذى كتبه له ماضيه ، ويتفتح لوعى قوى واسع سعة الجنس العربى ؛ ولذلك لا يذكر المسلمون اسمه إلا مقترناً بآيات التكريم والتبجيل ، فيقولون : « صلى الله عليه وسلم » ، لأنهم يرون فيه النبى العربى الذى بعثه الله لينتشلهم من فساد الجاهلية ووثنيتها وتفرقتها ، ليهديهم إلى نور التوحيد والفضيلة والألفة .

وقد غلب عليه لقب الرسول أو النبى العربى ، حتى على لسان غير المسلمين ، تقديراً لعبقريته واعترافاً له بمكانته البالغة فى تاريخ الأمة العربية .

وقبل أن نتناول سيرة رسول العرب ، نود أن نشير إلى أن بعض المستشرقين قد أقحموا أنفسهم فى مشاكل دينية ، تحت تأثير أهداف معينة ، وكأنهم يريدون لقارئ التاريخ أن يخرج من قراءته مؤمناً أو كافراً . وقد رد على أصحاب هذه النظرة كاتبنا الكبير عباس محمود العقاد فى كتابه

« حياة المسيح »[١٢] . قال : « ولم يقل أحد أننا إذا كتبنا عن برهما وجب أن نكون برهميين ، أو كتبنا عن أديان الأمم وجب أن ننتقل فيها من دين إلى دين ؛ ولو وجب ذلك على باحث ، لما كتبت تواريخ الأديان ولا تواريخ الدعاة إليها عن يتفقون فى الملة الواحدة أو لا يتفقون . . بل لو وجب ذلك لما كتب عن الشرق إلا المشارقة ، ولا كتب عن أوروبا إلا الأوروبيون ، ولا كتب عن الماضى إلا من كان فيه ، ولا عن المستقبل إلا مولود من بنيه » .

وحسبنا أن نعرض للظواهر وما أحاط بها من مقدمات ونتائج بأمانة وصدق ، وفق ما تشير إليه الوثائق ، كما فهمها أصحاب هذا الدين ورجاله المستنيرون ، ونحن بالطبع لانطمع فى أن يوافقنا جميع القراء على ما نسوق بين أيديهم من عرض للحقائق وعلى ما نحاول أن نقدم لهم من تحليل لها ، وأما الرأى القاطع فى صدق هذه العقيدة أو هذا الدين فهو أمر لا يمكن أن يقدم عليه المؤرخ الذى يقدر مسئولياته : إن العلوم الدينية لها أبحاثها وكتبها ، بل ورجالها المتخصصون : فليرجع إلى هذه المصادر من يبغى دارسة الدين كدين لا كتاريخ .

وما الذى سنجنيه مثلا من البحث فى معنى كلمة أُمّى ؟ أهى تفيد الجهل بالقراءة والكتابة ، أم تعنى أن الموصوف بها ليس من رعايا الامبرطورية الرومانية ولا صلة له بحضارتها وهو المعنى الذى تفيدة كلمة Gentil ، ذات الأصل اللاتينى ؟ وهل يوصل هذا البحث صحيحة إلى القطع بأن الرسول قرأ التوراة والإنجيل أو لم يقرأهما ؟ . . . وكذلك البحث فيما إذا كان الرسول قد اتصل براهب يدعى بحيرا أو غير هذا الاسم ، هل الغرض منه أو من البحث السابق إثبات عدم أصالة الدين الإسلامى ونفى الوحى ونزول القرآن على النبى ؟ . . .

ألا نرى أن هذه أبحاث ترمى إلى هدف معين ، وأن تحديد الهدف قبل البحث التاريخى لمن أدعى دواعى الإفساد فيه ؟ . . .

سيرة نبي الإسلام

(١) المراجع .

يستند المؤرخون فى كتابتهم لسيرة الرسول إلى مرجعين رئيسيين :

١ — المرجع الأول انما هو القرآن ، إذ أن كثيراً من أياته تحمل إشارات أو تلميحات إلى الحوداث التى أحاطت بالدعوة وبحياة صاحبها ، وهذه الإشارات متصلة بما يسميه الشرّاح بأسباب النزول . ولكن تحليل هذه الآيات للوصول إلى ما يمكن أن يعتبر ترجمة للرسول أمر لا يخلو من مشقة ، لأسباب ، منها افتقادنا إلى الترتيب الزمنى للسور والآيات ، ومنها خفاء الإشارة والإيحاء بدليل اختلاف الشراح فى التأويل ، ومنها وجود فجوات غير قصيرة من حياة الرسول لم يتعرض لها القرآن من قريب أو من بعيد ، كالفترة التى سبقت الدعوة .

٢ — المرجع الثانى هو الحديث . وهو مجموعة الأخبار التى تناقلت على ألسن المحدثين الثقات ، يروى كل منهم عمن سبقه إلى أن تنتهى السلسلة إلى شخص عاشر الرسول وأخبر عما سمع أو رأى ، سواء عن الرسول نفسه أو عن أحد الصحابة .

ولا عجب أن ألحت الحاجة إلى تدوين سيرة الرسول منذ منتصف القرن الأول للهجرة ، عندما أصبح الذين عاصروا الرسول يعدون على الأصابع . ومن الرواد الأوئل لهذا اللون من الكتابة الدينية والأدبية والتاريخية عروة ابن الزبير ، المتوفى سنة ٩١ هـ / ٧٠٩ م ، وأبان بن عثمان ، المتوفى عام ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م ؛ ثم جاء ابن إسحق ، المتوفى سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م وأخرج فى السيرة وما اتصل بها من أحاديث كتابا ضخما ، أبرزُ ما فيه عرضه للحوادث عرضا زمنيا . ثم تبعه ابن هشام ، المتوفى سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م ، فنقح

مجموعة الأحاديث التى أستند إليها ابن إسحق ، مقتصراً على ما كان منها متصلا بالقرآن إتصالا مباشراً أو غير مباشر .

ونذكر أخـــيراً إلى جانب ابن إسحق وابن هشام ، بعض مدّونات الأحاديث كصحّاح البخارى المتوفى سنة ٢٥٧ ﻫ / ٨٧٠ م ؛ كما نشير إلى كتاب طبقات ابن سعد المتوفى سنة ٢٨٠ ﻫ / ٨٩٣ م .

(ب) السيرة .

إن الطفل الصغير الذى شاهد النور سنة ٥٧٠ فى مكة ، فأسماه جده عبدُ المطلب محمداً ، ولد يتيم الأب ، ولم يكد يبلغ السابعة من عمره حتى أصبح يتمه كاملا بموت أمه .

ولا شك أن الطفل عانى من هذا اليتم عندما فطن إليه ، فى بيئة لا تعتز إلا بالآباء والأجداد ، وفى فترة من العمر يكون الطفل فيها فى أمس الحاجة إلى من يسنده ويشد أزره . وليس من المعقول أن لا يترك هـذا الحادث الأليم أثره على نفسـية الطفل ، ثم الشاب ، رغم ما تمتع به من رعاية جده عبـد المطلب ، ثم عمه أبى طالب ، وأن يدفعه هذا الإحساس إلى شيء من الإنطوائية الهادئة الرزينة ، أقل ما توصف به أنها أذكت بصيرته وشحذت ميله إلى التفكير فى كل ما يدور حوله مما هو متصل بأعمال الناس أو بالحياة العامة ، بما فيها من تقاليد موروثة وعصبيات عمياء ، أو مما هو متصل بأمور الدين .

ومن جهة أخرى ، امتاز الشاب على حداثة سـنه ، بالتقوى وبإحساس خلقى مرهف : فنجـده إذا احترف التجارة وما تقتضيه من رحلات ، شأن أهل قبيلته قريش(١٤) ، يلقب بالأمين ؛ إلى أن خديجة ، هـذه المرأة الثرية الشريفة التى أمنته على مالها ، لا تلبث أن تؤمِّنه على نفسها زوجاً ، رغم فقره وغناها ، ورغم فارق العمر بينهما ، إذ كانت قد بلغت الأربعين ، بينما لم يتجاوز محمد الخامسة والعشرين .

وتجمع المراجع العربية على أن محمداً كان ينقطع للتأمل العبادة شهراً من كل عام ؛ هو شهر رمضان ، كان يأوى فيه إلى غار فى جبل حراء ، شمالى مكة ، يطيل فيه التفكير فى شئون الكون وخالقه ، ويمعن فى البحث عن الحقيقة ، بعيداً عن ضوضاء المدينة وعما يتقلب فيه أهلها من جد ومن لهو .

ثم تسرد هذه المراجع قصة عودته من الغار ، ذات يوم من سنة ٦١٠ ، وكيف وصل إلى داره وهو يرتعد فرقا وهولا ، ويستنجد بزوجته خديجة قائلا : « زملونى » . وبعد أن هدّأت خديجة روعه ، أخذ يقص عليها أن الملاك جبريل جاءه فى المنام وفى يده صحيفة داعياً إياه ليقرأها : « اقرأ بسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » (سورة العلق ، الآيات من ١ إلى ٥) . ثم كيف رآه مرة أخرى فى اليقظة ، وهو عائد من الجبل ، فلم يعد يرتاب فى صدق ما رأى فى المنام . . .

وأخذت الدعوة تتحدد شيئاً فشيئاً . ها هوذا يؤمر ، على حسب نص القرآن ، بأن ينذر الناس : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر » (سورة المدثر الآيتان ١ و ٢) . ثم بأن : « أنذر عشيرتك الأقربين » (سورة الشعراء الآية ٢١٤) .

وشرع محمد بتنفيذ ما أمر به . وأخذ ينذر عشيرته ، ثم اتجه إلى أهل مكة ، داعياً إياهم إلى الإيمان بنبوته ، قارئاً عليهم ما ينزل عليه جبريل من القرآن ، على حسب رواية كتب السيرة والحديث ، محاولا بكل ما أوتى من قوة بيان وحكمة أن يقنعهم بصدق ما كان يتلو عليهم .

القرآن . والقرآن بين أيدينا ، كتاب متوسط الحجم ، أدعى ما يلفت إلى الانتباه فيه أنه ينص بكل وضوح أنه أنزل على النبي العربي بوحى من عند الله ، معنى ومبنى ، بوساطة جبريل ، وأن الرسول لم يكن سوى أداة تبليغ ؛

لذلك لا يستشهد به المسلمون إلا بعد العبارة : « قال الله تعالى » ، وبعد أن يستعيذوا بالله من شر الخطأ فى تلاوته . وهذه العقيدة القوية الراسخة هى سر تقديس المسلمين لهذا الكتاب ، « كتاب الله » ، وسبب عنايتهم الفائقة بحفظه وحرصهم على فهمه ، وهو موقف جدير بكل تنويه وتقدير . وهذا الحرص هو أول مادعاهم إلى العناية باللغة العربية وبآدابها وعلومها ، وتلك ظاهرة تكاد تكون فريدة من نوعها فى تاريخ نشوء الثقافة الإنسانية .

يقول المفسرون المسلمون إن الوحى كان ينزل على الرسول متواتراً ، كل ما دعت مناسبة إلى تحديد عقيدة أو سن تشريع أو إصدار حكم جديد تقتضيه الظروف ؛ كما أنهم يقسمون السور ، أى الأبواب ، إلى مكية ومدنية ، حسب فترة نزولها ، ويشيرون إلى نوع كل منها ، لأنها غير مرتبة فى مصحف عثمان ، وهو المصحف الرسمى ، ترتيباً زمنياً ، كما ذكرنا .

معارضة أهل مكة . وتخبرنا المصادر الإسلامية أن خديجة كانت أول من آمن بالدعوة ، وأنها شجعت الرسول على الامتثال لما أمر به .

ولكن ما أثقل هذا العبء على كاهله ، فى مدينة لا تعرف سوى المال إلهاً !.. ولا يخدعنّنا تمسك قريش بشعائر الحج : الحقيقة أنهم كانوا سدنة الكعبة وكانوا يفيدون من السدانة معنوياً .. ومادياً . ولم يكن الدين رائدهم الأوحد ، وربما كان للتقاليد الموروثة سلطان أقوى من سلطان الدين ، بدليل مقاومتهم للدعوة عند بدئها ، وكانت حينذاك دينية وخلقية صرفة ، وبدليل الحجج التى تذرعوا بها لمقاومة الرسول ، وقد أفاض القرآن فى عرضها ، مفصلة واضحة .

ثم كيف تصغى قريش لواعظ مستضعف جاء يُسفّه آلهتها ، داعياً إلى التوحيد ، منددا بمفاسد الجاهلية وعاداتها الوخيمة ، منذراً مهدداً بالموت والبعث والنار ، يَجْمع حوله « جُهّالهم وسفهاءهم » ، ويحمّسهم بخطبه الملهبة

الحماسية . . ؟ أليس فى هذه الحركة خطر على نظامهم الاجتماعى . . . على سمعة مدينتهم . . . على حركة الحج وما يقترن به من أسواق وتجارة لا غنى لهم عنها . . . ؟

الهجـــرة . وتطورت ابتساماتهم الهازئة إلى سخرية لا ذعة ، ثم إلى تشنيع ، فإلى وعيد ، فإلى اضطهاد سافر . . . ومن حسن حظ محمد أن يكون عمه أبو طالب عوناً له وسنداً . . وكذلك زوجه خديجة . . . فلما فقدهما تبدد بصيص الأمل فى إرساء قاعدة الحركة الدينية فى مكة .

ولِمَ لا يستجيب إلى دعوة أهل يثرب ، وقد أبدَوا استعداداً طيباً لمعاضدته ورغبة صادقة فى قبول دعوته(١٥) ؟ . .

وهكذا ، قرر مع صحبه الهجرة إلى يثرب ، وكان هذا اليوم الفاصل فى غرة محرم سنة ١ هـ ، ١٦ يوليو سنة ٦٢٢ م .

يثرب . تقع يثرب على بعد ثلاثمائة ميل شمالى مكة ، واحة فى طريق القوافل ؛ وقد غلب عليها الطابع الزراعى ، فاشتهرت بنخيلها ، كما اشتهرت مكة بتجارتها . وأما سكانها فينتمون إلى قبيلتى الأوس والخزرج ، بالإضافة إلى طائفة قليلة من النصارى وأخرى من اليهود ، كانت ذات ثراء ونفوذ .

ولا غرو إذا أثرت البيئة الزراعية فى طبائع السكان : إن أعمال الأرض تضفى على الإنسان مسحة من الرضى والمثابرة ؛ ولعــــل الطائفتين المسيحية واليهودية كان لها تأثيرهما إلى جانب تأثير الطبيعة . مهما يكن من أمر ، فقــد لمس الرسول فى يثرب قابلية لم يشعر بها فى مكة . فهل من الضرورى فى هــذه البيئة المتمايزة عن بيئة مكة أن تُبنَى الدعوة على التهديد والإنذار والوعد والوعيد ، وإثبات البعث والحساب ، ما دام الناس يكادون يعتقدون بهذه الحقائق ، وهى التى تشير إليها كتب اليهود والنصارى . . . ولا عجب إذن أن يصرف الرسول جهوده إلى تنظيم مجتمع يثرب(١٦) ، وتأسيس شئون

المدينة وإدارتها ، على روابط جديدة غير الروابط الواهية الفاسدة التى كانت الجماعة القبلية ترتكز عليها .

الواقع أن التفاهم والوئام لم يسودا جو يثرب ، بل فرقت العصبيات بين طوائف سكانها ، وطغت مصالح كل طائفة على مصلحة الجماعة وعلى مصلحة المدينة ذاتها : فإلى جانب المهاجرين كان الأنصار وغير الأنصار من الأوس والخزرج ، وكان المسيحيون ، وكان اليهود ، وكان عرب الشمال ، وكان عرب الجنوب . فلا عجب أن كان مجتمع يثرب بعيداً كل البعد عن الوئام ووحدة المشاعر ؛ ولكن العجب كله أن يسعى الرسول إلى تحويل هذه الأشتات إلى مجتمع موحد قوى متماسك ، وأعجب من هذا كله أن ينجح فى هذه المهمة .

وقد يبدو هذا الكلام غريباً على عقلية تعيش فى القرن العشرين . فقد تتسع اليوم حدود البلد الواحد لتشمل الملايين من السكان المختلفى المذاهب والمشارب ، بل اللغات والأديان وربما الأجناس ، دون أن يمنعهم كل هذا الاختلاف من الاتحاد فى إطار عام ، مقوماتُه دستور واحد وظروف اقتصادية مشتركة وأهداف سياسية موحدة . أما والبيئة متشاحنة فئاتها ، لا تعترف بحقوق لغير أفراد العشيرة الأقربين ، فإن ما قام به الرسول يعتبر بحق انقلاباً خطيراً ، بل إنه لبعث فى كل معنى الكلمة ، بعث لقومية جديدة وهى التى نطلق عليها اليوم اسم القومية العربية .

إذا كان لابد لكل حركة جامعة من دافع هو بمثابة الروح إلى الجسد يلم الشمل ويخلق الوحدة العضوية فى جسم الجماعة ، فالجماعة الناشئة دافعُها الدين الإسلامى .

ولِمَ لا يكون الدين هذا الدافع ؟ فالمهاجرون والأنصار هم الدعيمة والركيزة والأساس ، وأما وثنيُّو يثرب ، فإنهم على كل حال أكثر من مشركى قريش استعداداً لقبول الدين بحكم بيئتهم المشبعة بالعقائد

التى كان أهل الكتاب يتداولونها ويبثونها .

بقى إذن اليهود والنصارى . ولم يمتنعون عن الاستجابة للدعوة ؟ ألم يكرر صاحبها أنه إنما أُرسل ليكمل ما جاء به الأنبياء من قبل ؟ وهل قصّر فى تذكيرهم بأقوال كتبهم وبقصص أنبيائهم ؟

الواقع أنهم لم يستجيبوا ، لماذا ؟ أكانت سلبيتهم عن تحرٍّ لمقومات الدعوة ، فقرروا أنها لا تسير وفق ما ورثوه ، أو ما كان بين أيديهم ؟ أطالبوا الرسول بالمعجزات ولم يقتنعوا بإعجاز القرآن ؟ . .

مهما يكن من أمر هذه المعارضة ، فقد واجهها الرسول بحزم وعزم . فأما النصارى ، فلم يكن قاسياً فى الحملة عليهم ، لأنهم أظهروا العطف على الدعوة(١٧) ، وأما اليهود ، فسرعان ما أدرك أن مجتمعه لا يمكن أن يتسع لهم ، لذلك عمل على إبعادهم من يثرب ، كما عمل على قطع صلة المسلمين بهم قطعاً تاماً(١٨) .

الكعبة . ورويداً رويداً ، أخذت الدعوة تحدد وجهتها .

إن موقف الإسلام ينبغى ألا تكتنفه الشبهات . المسلم ليس بتابع لعيسى ولا لموسى ، فإذا كان لابد من أب روحى ينتمى إليه المسلم ، فليكن إبراهيم ، وهو أبو العرب باعتراف كتب اليهود ذاتهم . ثم ألم يعتقد العرب بأنه هو الذى بنى أول معبد لله حول الكعبة فى مكة ؟ ألم تشهد الكتب بأنه آمن بالله وأسلم له أمره ؟ إذن لتكن الكعبة قبلة المسلم لا بيت المقدس . . لكن كعبة مطهرة ، لا شركاء فيها لله عز وجل ، ولا مشركين . .

الشريعة الإسلامية . وبعد أن حددت الدعوة وجهتها أخذت تحدد للجماعة معالمها . لقد تناولت السور المدنية هذه المعالم بكل ما نحتاج إليه من تفصيل ، فهى بحق القانون الأساسى للجماعة الإسلامية .

لا يدخل فى نطاق عملنا أن نعرض لتفاصيل الشريعة الإسلامية ، فحسبنا أن نقول موجزين إنها ، تناولت ، إلى جانب النواحى الدينية ، النواحى الاجتماعية والسياسية .

ويشمل التشريع الدينى العقائد والأعمال . وأما العقائد ، فنجملها فى الإيمان بالله واحداً وبالملائكة والكتب المنزلة والأنبياء ، وخاتمهم نبى الإسلام ، محمد ، والإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار ؛ وأما الأحكام الخاصة بالأعمال ، فتنتظم الشهادة والصلاة والزكاة والصوم والحج ، إلى جانب الآداب العامة ، والأخلاق الفاضلة ، تحث الفرد على التحلى بها من غير تطرف ولا مغالاة .

وأما التشريع الاجتماعى فيتناول الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وإرث .

وأما التشريع السياسى فالطريف فيه أنه يجعل السلطة التنفيذية بيد الرئيس الدينى ، ولعلنا أقرب إلى الدقة إذا قلنا إنه لا يعرف مبدأ التفرقة بين السلطتين ، بل نظر إلى السلطة السياسية والتنفيذية كأداة لتحقيق الأهداف الدينية ، إلى درجة أن الحرب كما تتصورها الدول الاستعمارية اليوم مثلاً ، بعيدة عن التصور الإسلامى كل البعد : الحرب هى جهاد فى سبيل الله وفى سبيل الدين ، وهى فرض دينى أكثر منه قومى ، على كل مسلم غير عاجز عن حمل السلاح .

وعلى كل إنسان أن يلبى نداء الدين الجديد . . . باستثناء أهل الأديان السماوية أو الذميين : فإذا بقوا على دينهم ، وجبت عليهم حينئذ الجزية ، يفتدون بها أنفسهم .

وتنفيذاً لخطة سير الدعوة ، أوفد الرسول البعوث والكتب إلى القبائل العربية ثم إلى الملوك والأمراء ، يدعوهم فيها إلى الإسلام . وأخذ الإسلام

ينتشر فى أنحاء الجزيرة انتشاراً بطيئاً أول الأمر ، ثم زاد سرعة بعد غزوة بدر الكبرى فى ١٧ أو ١٩ من رمضان من العام الثانى للهجرة .

وغزوة بدر هذه ليست إلا إحدى حلقات النضال بين المسلمين والمشركين ، وقد تتابعت بعدها الغزوات على قريش والقبائل الموالية لها ، نذكر من أهمها أُحُد والأحزاب أو الخندق ، وحنين ... إلى أن كانت سنة ٩ هـ / ٦٣٠م ، السنة الفاصلة ، حيث زحف الرسول على رأس جيش من عشرة آلاف مقاتل ، ففتح مكة ودخل الكعبة وحطم أصنامها ، وكانت تربو على الثلاثمائة ، وأذّن بلال من فوق الكعبة : « الله أكبر ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . . . . »

عهد الخلفاء الراشدين

الفتنة الأولى

ولم تمتد حياة محمد إلا سنتين بعد فتح مكة . وعند موته فى يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ / ٨ يونيه ٦٣٢ ، كادت شبه الجزيرة من البحرين إلى الخليج العربى تدين بالإسلام .

قضى الرسول والقبائل ما زالت فى أول عهدها بالنظام الجديد . والجديد مرغوب فيه ، لا سيما إذا كان عماده شخصيةً قوية جذابة ومحببة ، كشخصية النبى العربى ، تشد الأزر وتؤلف بين القلوب . أما والرسول قد مات ، أفلا يُخشى على البنيان من التصدع والانشقاق ؟

وأخذت أشباح الخلاف تلوح بشعة مهددة . من ذا الذى يتولى مقاليد الحكم ؟

فالمهاجرون يرون الخلافة من حق قريش ومن حق أولويتهم فى الدين .

والأنصار هم الأنصار ، أى حماة الإسلام الأسبقون . . .

وكيف تتخلف بنو أمية فى السباق ، وهم أرستقراطية قريش . . .

ويرى غير هؤلاء وأولئك أن الخلافة يجب أن تكون « لمن يستحقها بالنص والتعيين » ، فلا يمكن أن تعقد إلا لعلىّ ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة .

وكادت الفتنة أن تنال من المسلمين ، لولا أن رجالا حكماء حسموا الخلاف واستمالوا الجماعة ، فرضيت بمبايعة أبى بكر والد السيدة عائشة التى توفى عندها الرسول .

أبو بكر ، الردة . ولكن اتفاق كلمة المسلمين على أبى بكر لم يمنع علياً وشيعته من الشعور بالظلم والحرمان ، ويرى لويس هلمن فى كتابه (شعوب وحضارات) ، ج ٥ ، صفحة ١٥٣ ، أن شعور السخط هذا كان مدعاةً لقيام حركة التمرد والارتداد وادعاء النبوة التى كادت أن تُودِى بالجماعة الإسلامية الناشئة .

ولا شك أنه لولا سيف خالد بن الوليد[١٩] ، وحزمه لنجحت القبائل فى استرجاع حريتها والعودة إلى سالف تقاليدها ، ولصادفت حركة طليحة ومسيلمة وسواهما نجاحا تمزقت معه رابطة الدين .

عمر بن الخطاب . على أن هذه الحوادث لم تتكرر عندما أسندت الخلافة لعمر بن الخطاب ، ولعل كثرة الفتوح والانتصارات ووفرة الفىء هى التى شغلت الناس وأنستهم ما هم عليه من شقاق .

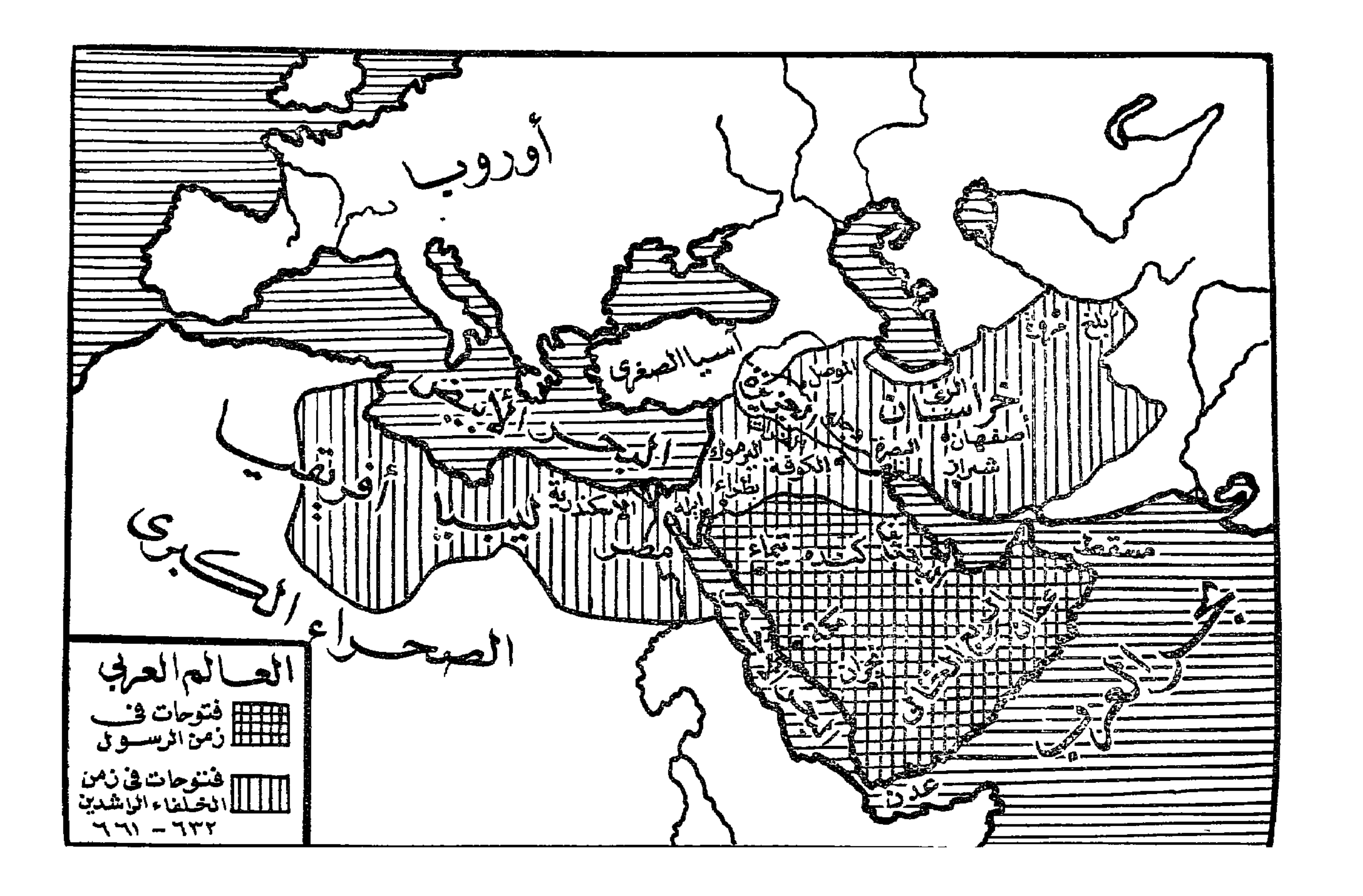
وها هوذا الجرح يندمل مرة أخرى عند اغتيال عمر (ذو الحجة سنة ٢٣ هـ / ٦٤٣ م) ، فتُخطىء الخلافةُ عَلياً مرة أخرى لتئول إلى عثمان بن عفان ، من بنى أمية ، لا لشىء إلا لأنه ضعيف لا تخشى سطوته . وعثمان هـذا يُقتَل فى عقر داره ، فى ١٨ من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، وعندئذ فقط ينادَى بعلىّ أميراً على المؤمنين .

الفتوح

فى عهد أبى بكر . يُفهم مما تقدم أن عهد عمر بن الخطاب كان عهد فتوح وخير عميم ؛ ولكن الفتوح فى الواقع بدأت منذ عهد أبى بكر ، وليس فى الجزيرة العربية فحسب ، حيث أخضع خالد بن الوليد وعكرمة نجد والاحساء ، والساحل الجنوبى ، دون استثناء اليمن ، ولكن فى الشمال أيضاً : فقد هُزم الجيش البيزنطى بقيادة تيودور أخى الامبراطور هرقل عند بلدة أجنادين ، ١٣ هـ / ٦٣٤ م ، أى قبل وفاة أبى بكر بأيام معدودة .

فى عهد عمر . لكنه لا خلاف فى أن عهد عمر يعتبر بحق عهد الفتوحات الذهبى . ففى عام ١٥ هـ / ٦٣٦ م ، قضت واقعة اليرموك على آمال البيزنطيين فى الشرق . وبتسليم قيصرية ، مقر الحاكم البيزنطى ، سنة ٢٠ هـ / ٦٤٠ م ، انتهى الحكم البيزنطى فى الشام .

ولم يكن مركز البيزنطيين فى مصر بأقوى منه فى الشام ، إذ أن تعسفهم وتزمتهم الدينى هنا وهناك كان قد عزلهم عن الشعب ، فاستقبل نبأ هزيمتهم بغير اكتراث إن لم يكن بشماتة . ولم تتجاوز الحملة العربية على مصر ٣ سنوات ، ١٨ — ٢٢ هـ / ٦٣٩ — ٦٤٢ م حتى كان القائد الكبير عمرو بن العاص قد استولى على جميع معاقل الروم فيها ، وكان آخرها ثغر الإسكندرية .


العالم العربي
فتوحات في زمن الرسول
فتوحات في زمن الخلفاء الراشدين ٦٣٢ - ٦٦١
أوروبا
آسيا الصغرى
البحر الأبيض
أفريقيا
ليبيا
الصحراء الكبرى
مصر
الإسكندرية
خراسان
أصفهان
شيراز
الموصل
البصرة
الكوفة
اليرموك
أيلة
تيماء
مسقط
عدن

وأما حملة فارس ، فبدأت بصفة منظمة جدية بعد معركة اليرموك ، إذ زحفت الجيوش العربية ، وعلى رأسها سعد بن أبي وقاص ، على العراق ، وبعد تردد قصير عند مدينة الحيرة ، تقدمت واحتلت القادسية ثم المدائن ، ١٦ ﻫ / ٦٣٧ م ، وكانت العاصمة ، ثم الموصل ٢١ ﻫ / ٦٤١ م . وفى هذه الأثناء كانت بعض السرايا قد سارت شمالا لإخضاع أرمينيا وأخرى تغلغلت جنوباً ، إلى أن استكمل فتح فارس ، سنة ٣٩ ﻫ / ٦٥٩ م .

في عهد عثمان . وكادت حركة الفتح أن تتوقف فى عهد عثمان ، ٢٤ - ٣٦ ﻫ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م . فلم تذكر كتب التاريخ معارك ذات بال ، اللهم إلا إذا استثنينا حملة الأسطول العربي المظفرة ، بقيادة معاوية ، والى الشام وعبد الله بن سعد ، والى مصر ، على قبرس ، سنة ٢٩ ﻫ / ٦٤٩ م ، واستيلاء معاوية على جزيرة أرادس ، بالقرب من ساحل الشام ، سنة ٣٠ ﻫ / ٦٥٠ م ، وكذلك انهزام الأسطول البيزنطى فى وقعة ذات السوارى على مقربة من الإسكندرية ، سنة ٣١ ﻫ ، وكلها فتوحات قليلة الأهمية إذا قورنت بسابقاتها فى عهد عمر بن الخطاب .

أسباب التوقف . وإذا بحثنا عن سر هـذا الشلل لاقتحمنا أنفسنا فى قضية معقدة ، تشمل التركة السياسية التى خلفها الخليفة عمر بأسرها . لا شك أن عمر كان رجلا عبقرياً : فهو الذى أنقذ الجماعة الإسلامية بعد وفاة الرسول ، يوم سقيفة بنى ساعدة ، سنة ١٢ ﻫ / ٦٣٣ م ، من تكالب الخزرج والأوس وتزاحم الأحزاب الأخرى على الرئاسة كما قدمنا . ولـكن فضله الأكبر أنه واجه بشجاعة نادرة المشاكل الخطيرة التى أوجدتها الفتوح التى لم ينقطع سيلها أثناء خلافته . . . ها هوذا رجل الجزيرة العربية البسيط ، يصبح فى لمحة بصر الحاكم بأمر الله على جزء كبير من العالم المعروف ، ينتظر منه التنظيم الشامل ، وفق مبادىء الدين الجديد والمجتمع الناشىء ! . . .

ولا نريد التعرض هنا إلى نظم الإدارة المحلية فى البلاد المفتوحة ، فقد أبقى عليها عمر كما أبقى على رجالها ، وهذا من دلائل عبقريته وحكمته ؛ وحسبنا أن نجيل النظر فى النظام المالى الذى أوجده .

النظام المالى . رأى عمر ، لضمان سير حركة الفتح ، أن يجعل العرب كلهم موظفين فى الدولة الجديدة ، ما داموا كلهم مجندين فى سبيل نشر الإسلام وحماية المجتمع الجديد . ولم يكن مخطئاً فى اعتقاده أن ضمان الرزق يستتبع ضمان الولاء ، فلا ردة تُخشى عندئذ ولا انفصال . وأدرك كذلك أن نظام تقسيم الغنائم بالتسوية بين الجند ، بعد حجز الخمس للرسول أو الدولة ، لم يعد يلائم الظروف الجديدة ، ولا يضمن استقرار حياة الجماعة : فأمر أن يرتَّب الناس فئاتٍ ومستويات ، حسب قرابتهم للرسول ، وحسب قبائلهم وسابقيتهم فى الإسلام ، وحسب إبلائهم فى خدمة الدين ؛ وأجرى الرواتب والعطاءات وفقاً لهذه الطبقات ، فكانت تتراوح بين ١٢٠٠٠ درهم فى السنة ، وهو عطاء السيدة عائشة ، و ٥٠٠٠ درهم للمهاجرين والأنصار الذين شهدوا غزوة بدر ، ٦٠٠ درهم للجندى العادى . على أن عطاء النساء والأطفال لم يكن يقل عن ٢٠٠ درهم فى العام .

لا يَخفى ما فى هذا النظام من بساطة بل ومن سذاجة ، لأنه يجعل رزق الأمة كلها مرتهن بأمور غير مضمونة البقاء ، كاستمرار سير الفتح على وتيرته الأولى ، وافتراض المهارة والأمانة فى الجباة ، والعدالة المتبصرة والنزاهة التامة فى الهيئة المشرفة على التوزيع ... وكلها أمور قد تكون وقد لا تكون . فليس من الحكمة أن يبنى عليها المشرع النظام الاجتماعى بأسره ...

ولكننا لا نجادل فى أنه من الظلم أن نُحمِّل عُمَرَ تبعة نظام لم تظهر مساوئه فى أيامه ، لقوة الوازع الدينى ولتدفق أموال الفىء : فالنظم الاجتماعية كلها ، مهما بلغت من الكمال ، لا يمكن أن تبقى وفيَّة لغرضها إلا إذا

سارت على سنة الكون ، وخضعت لقانون النشوء والتطور والارتقاء .

ولعل شيئاً من هـــذه التبعة يقع على عاتق الخليفة عثمان الذى قصر عن إدراك هده الحقيقة وعن إدخال ما اقتضته ظروف الجماعة المتطورة من تعديل مناسب . وهل كان من المحتمل أن يبقى تيـار الفتح على تدفقه واندفاعه وجرفه ... إن كل حركة عنيفة كحركة الفتح ، مآلها إلى الانحدار والهبوط ، إن لم يكن إلى التوقف والخمود ، شأن الأنهار فى الطبيعة ...

شخصية عثمان . ولـكن الذى زاد الطين بلة أن الحركة لم تعدم الشخصية المحركة ، باغتيال عمر فحسب ، ولـكنها منيت فى شخصية الخليفة الجديد بعوامل من الانحلال أخذت تنخر فى عودها ، ولا تمضى فترة من الزمن ، إلا وهى تتوقف ، بل تنكمش ، وتعود الجيوش أدراجها إلى معسكراتها الـكبيرة ، البصرة والـكوفة والفسطاط . فعثمان الضعيف الشخصية يتسلط عليه أقاربه وذووه ، لا يدخرون وسعاً فى الاستحواذ على المـال ، مال الدولة ، وعلى المناصب . . . فلا غرو أن يرتفع صوت الناقمين بنقد الولاة ، ثم بالشكوى إلى الخليفة ، ثم بنقد الخليفة نفسه ، ثم بالاستنجاد بالقواد وبالجيوش أن أسرعوا فالدار أحوج إلى إنقاذكم ؛ ولا يقل صوت الأهالى عن صوت القادة وأهل الرأى والشورى ، لقد ضاقوا ذرعاً بهذا النهب المنظم ، لا يفوته مصدر من مصادر ثروات البلاد إلا واستنفده واعتصر ماءه ، تنفيذاً لمطالب الحـكومة المركزية ، وتحقيقاً لمصالح الولاة والجباة أنفسهم .

قضية الحـكم التيوقراطى . وكيف يعالج عثمان الموقف ؟ إن نظام الحـكم الدينى التيوقراطى لخير أداة الحكم الصالح . فليذكـِّر الناسَ بدينهم ، وليؤمهم فى صلاتهم وليختار عماله ممن تتوفر فيهم التقوى إلى جانب الولاء لشخصه ، ولأسرته . أضف إلى ذلك الوعود ، وعود الإصلاح ، وما أخف مئونتها على اللسان حينما يدفعه الخطر إليها دفعاً ، وما أسرع ما يتخفف منها الإنسان الذى يسلم قياده للمصالح والأهواء !

لقد أخطأ الخليفة عثمان التقدير ، وفاتة أن الحكم التيوقراطى يستوجب الإيمان ، الإيمان القوى من جانب الرعية ، فى حين أن الترف الذى جلبه الفتح وما استتبعه من لذات ومتع وجاه لم يكن ليظاهر الإيمان فى شىء . . ثم كيف تُهمل ظهور الشخصية ، الفردية ، وقد أتاحت الحروب مجالا واسعاً للبروز بشجاعتها وذكائها وحسن بلائها . وهذه القيم هى قيم إنسانية تحتل مكانها إلى جانب القيم الدينية ، أولَ الأمر ، ولكنها لا تلبث أن تحل محلها : وعندئذ تصبح التدابير والاحتياطات العازلة ، كالتى لجأ إليها الخليفة عمر ، من إقامة معسكرات مغلقة لوقاية الجند ، كالكوفة والبصرة والفسطاط ، تصبح هذه التدابير غير ذات فائدة .

ولا يظن أن هذا الكلام وليد التفلسف والاجتهاد : إنه ليس إلا كلام الحوادث التاريخية المعروفة . ألم يعجز الإيمان عن حمل الخليفة عثمان ذاته على أن يسوس الرعية دون تعصب واستغلال ، ودون محاباة أو تبذير لأموال الدولة ؟ . . ألم يعجز الإيمان عن منع الثوار من تلويث أيديهم بدم خليفة الرسول ، حينما أجهزوا على عثمان ، سنة ٤٧ هـ/٦٥٦ م ، حتى قتلوه وهو يتدارى بالمصحف يحمى به صدره ؟ . . . ألم يعجز الإيمان عن جمع كلمة المسلمين على مبايعة على بن أبى طالب بعد مقتل عثمان ، فانفصل عنه ، أو كاد ، الحجاز والبصرة ومصر ، وهذه الأمصار هى التى تظاهرت بالدعوة له للتخلص من عثمان ؟ . . .

بين على ومعاوية

هكذا تخاذل الإيمان فى كل المواقف التى واجه فيها الأسباب الدنيوية . ولعل أصدق صورة لهذا النزاع الفاشل بين الدنيا والدين ، قصة صراع على ابن أبى طالب ، ومعاوية ابن أبى سفيان على الخلافة . فبينما يستنفد معاوية أساليب الحيلة والدهاء والحنكة والمال فى معالجة الأمور ، ولا يستنكف

من استغلال الدين ذاته والقرآن إذا لزم الأمر ، كأن يرفع المصاحف على أسنة الرماح ، إذا لاح له شبح الهزيمة ، (وقعة صفين ٣٧ ﻫ / ٦٥٧م) إذا بعليّ قد أصبح ألعوبة بين يدى الداهية ، فتجره بساطته إلى تضييع خلافته (تحكيم أذرعات ، درعة الحالية ، رمضان سنة ٣٧ ﻫ / يناير سنة ٦٥٧ م) وإلى فقد عدد كبير من أتباعه ، ينقلبون عليه بعد التحكيم (الخوارج) كما تؤدى إلى انشطار الأمة الإسلامية إلى فريقين كبيرين متعاديين ، السُّنَّة والشيعة ، ما زالا إلى الآن يتعاديان عداء لم تفل من حدته القرون[٢٠]

دين أو دنيا

لقد كان المعوَّل عليه لدى عَلِىّ الإيمان فحسب ، فخذله الدهاء وهزمته الحنكة السياسية والخبرة الإدارية ، ممثلة فى شخص معاوية . لكن الخلافة الأموية ظنت أنها قادرة على أن تشيد ملكا قوامه العصبية للأسرة (وراثة الخلافة) ، والحنكة السياسية وحسب ، فى بيئة لا تعترف إلا بالقرآن دستوراً ، يُعلَن خمس مرات يومياً من فوق المآذن ... فخاب ظنها ، ولم تفلح إلا فى إثارة الأطماع ، وإذكاء الفتن وإضرام العصبيات القبلية والحزبية ، فسقطت أخيراً تحت ضربات الشيعة والخوارج والعباسيين والموالى مجتمعين ، ولم يمض أكثر من سبعين عاماً على تأسيسها .

معاوية ومبادئه

أغتيل عَلِىٌّ بيد أحد الخوارج[٢١] سنة ٤١ ﻫ / ٦٦١ م فخلا الجو لمعاوية الذى كان يترقب الظروف منذ التحكيم .

عيَّن عُمر معاويةَ والياً على الشام سنة ١٨ ﻫ / ٦٣٩ م ، بعد موت أخيه بالطاعون ، ونودى به خليفة فى بيت المقدس ، سنة ٤٠ ﻫ / ٦٦٠ م . إذن لقد

قضى معاوية قبل استخلافه عشرين عاماً فى ولاية خصها البيزنطيون بعناية فائقة ، لوجودها متاخمة لحدود فارس ، فتكونت فيها أسر من كبار الموظفين السوريين ، خبروا شئون الإدارة والنظم المالية ومارسوها سنين طويلة .

كان معاوية رجلا نادر الذكاء حتى اعتبر أحد ثلاثة دهاة عصره ، وقد أثبت دهاءه بما لا يترك مجالا للشك فى نزاعه مع علي .

وبتحرى تاريخ حكمه ، يظهر كأنه وضع نصب عينيه عدداً من المبادىء البسيطة الواضحة ، التى أصبحت دستوراً للأمويين من بعده ، نجملها كما يلى :

١ — لا تستقيم أمور الإمبراطورية العربية إلا لحاكم قوى .

٢ — ولا تنتظم الدولة إلا فى ظل وراثة الملك .

٣ — ولا يمكن أن يعوّل فى اختيار رجال الحكم إلا على الجنس العربى ، على أن تراعى الكفاية أولا ثم الدين والتقوى

لا شك أن هذه الخطة التى سار عليها معاوية كانت نتيجة خبرة أكسبته إياها الحوادث التى تقلب فيها منذ أن اشترك فى الحياة العامة ؛ ولا شك أيضاً أن ذكاءه جنّبه التطرف والغلو فى تطبيقها : فلم يُلغِ مثلا مبدأ الشورى والانتخاب ، الذى كان العرب حريصين على تطبيقه كل الحرص ، بل عرف كيف يستميل قلوب الناخبين ، ويأخذ البيعة بالخلافة لابنه يزيد ، سنة ٥٧ هـ / ٦٧٦ م ، فيشعرهم بأن الأمر ليس إلا انتخاب مقدم . . . ومن جهة أخرى ، أعمل المال إلى جانب القوة ، لاستمالة الناس ولقطع ألسنة المعارضين من الشعراء والنقاد .

ولكن المال والتدبير لم ينفعاه فى إسكات الشيعة والخوارج ، الذين لم يعترفوا قط بشرعية استيلائه على الخلافة ؛ فلم يكد يموت حتى ثاروا على ابنه ، وظلوا يتآمرون على الدولة ويتواعدون على النيل منها ، إلى أن كان لهم ما أرادوا .

أما مشكلة الموالى ، فلم تبلغ بعدُ النقطة الحرجة التى ستبلغها فى أيام الأمويين المتأخرين ، حين أصبح الدين واللغة والعلوم والآداب مجالات يجولون فيها ويصولون ، دون العرب ، كما أصبحت الجيوش الفاتحة كأنها موقوفة عليهم ؛ ومع ذلك ، فكانوا يضيقون من غطرسة العرب تجاههم وفيها ما فيها من مخالفة صارخة لتعاليم الإسلام الصريحة ، التى تقرر أن الفضل بالتقوى لا بالجنس .

خلفاء البيت الأموى

ولكن هذه المبادئ ذاتها كان لها أسوأ الأثر على يد خلفاء معاوية . ولسوء حظ الإمبراطورية ، لم يشهد التاريخ سوى اثنين من خلفائه الاثنى عشر من كانوا جديرين بالملك ، هما عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥ م) وابنه الوليد (٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٥ م) ، نضيف إليهما عمر بن عبد العزيز الذى قام بعملية إصلاح لم تثمر كثيراً لأنها لم تطل (٩٩ — ١٠١ هـ / ٧١٧ — ٧٢٠ م) .

وأما الباقون ، فإما عبيد لشهواتهم ، أمثال سليمان بن عبد الملك ، (٩٦ — ٩٩ هـ / ٧١٥ — ٧١٧ م) ، ويزيد الثانى ، (١٠١ — ١٠٥ هـ / ٧٢٠ — ٧٢٤ م) ، والوليد الثانى ، (١٢٥ — ١٢٦ هـ / ٧٤٣ — ٧٤٤ م) . وأما عَبَدَة للمال ، كهشام بن عبد الملك ، (١٠٥ — ١٢٥ هـ / ٧٢٤ — ٧٤٣ م) .

فلا غرو إذا أصبحت التقاليد التى وضعها معاوية حرباً على الدولة الأموية ، أدّت فى النهاية إلى زوالها .

ونستطيع تقسيم حكم الأمويين ، منذ استخلاف معاوية ، سنة ٤٠ هـ/٦٦٠م ، إلى فترات توالت فيها الفتوح والفتن وقبل أن نلقى نظرة سريعة على تاريخ هـــذه الأسرة من هاتين الوجهتين ، يجمل بنا أن نذكر موجزين بعض الإصلاحات الإدارية التى جعلت المؤرخين يعتبرون عهد بنى أمية عهد تقدم وتطور بالنسبة لسائر النظم الإدارية .

(ا) النـظم الإدارية

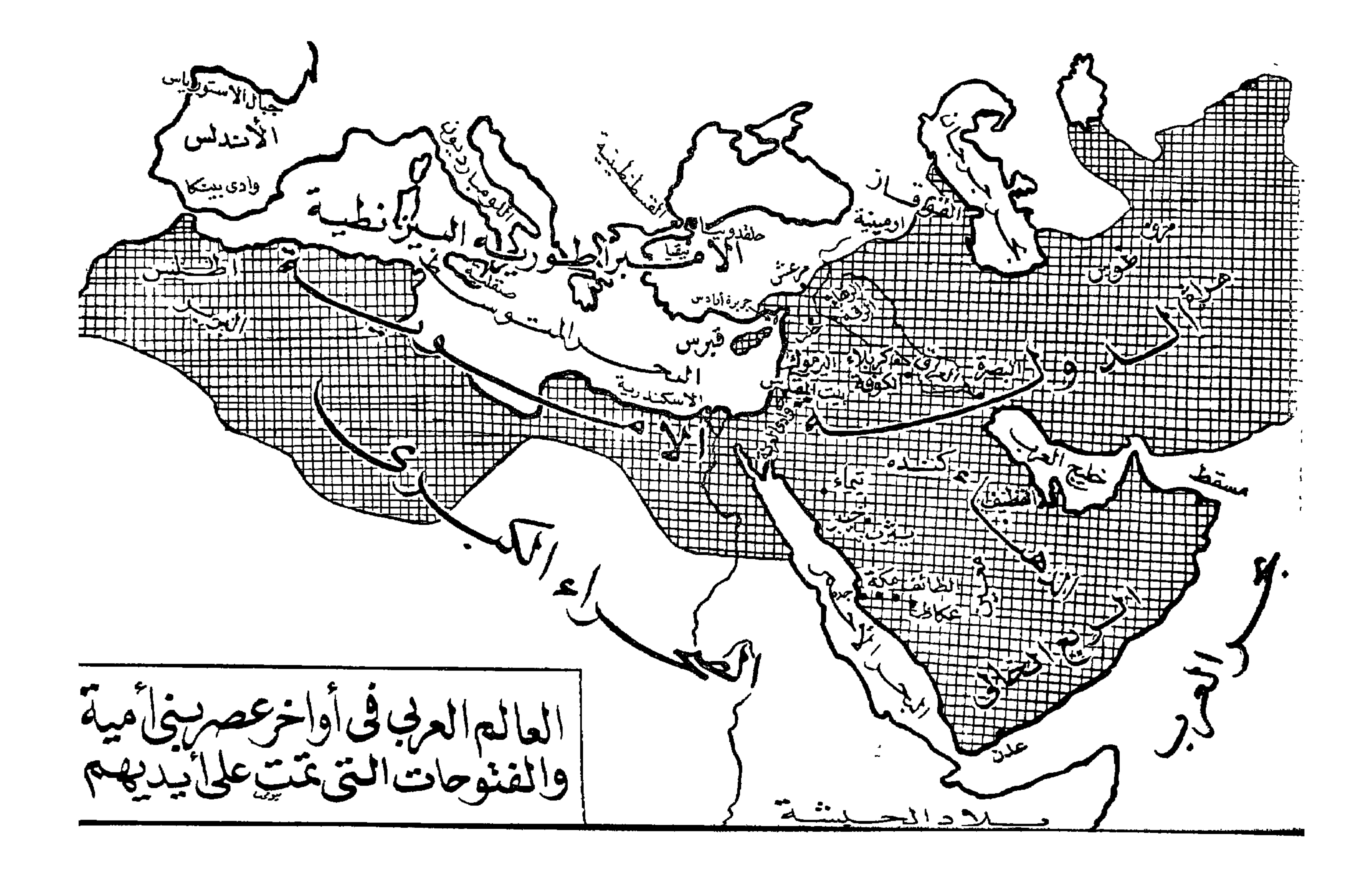
أما فيما يتعلق بنظم الإدارة ، فحسبنا أن نذكر فضل الأمويين فى تنظيم جباية الضرائب وإحكام الرقابة على الجباة ، والاستعانة بذوى الكفاية من العرب ، بصرف النظر عن الدين ، ولو أغضب هذا التصرف بعض المسلمين . إن خلفاء بنى أمية ، وإن لم يكن بعضهم أقل تديناً من سابقيهم الخلفاء الراشدين ، إلا أنهم ميزوا بين قطاع الدين وقطاع السياسة والإدارة ، وما يتطلبه كل ميدان من صفات تكفل حسن سير العمل فيه .

وقد أعادوا تنظيم ديوان العطاءات والرواتب ، ليقتصر عمله على العرب المجندين . ثم عملوا على أن توزع تكاليف الإدارة توزيعاً عادلا مناسباً لإيراد الولايات . وأخيراً نسجل لهم ما قاموا به من إلغاء الامتيازات ، وإصلاح الأراضى ، فزاد الدخل وقلت الأعباء[٢٣] .

(ب) التوسـع والفتح

تكاد حركة الفتح أن تنحصر فى فترتين ، تمتد أولاهما من ٤١ — ٦١ هـ ٦٦١ — ٦٨٠ م ، وتغطى حكم معاوية بن أبى سفيان ، وتجرى الثانية من سنة ٧٩ — ١٢١ هـ/ ٦٩٨ — ٧٣٨ م وتشمل :

السبع سنوات الأخيرة من حكم عبد الملك بن مروان ٦٥ — ٨٦ هـ/ ٦٨٥ — ٧٠٥ م .



العالم العربي فى أواخر عصر بني أمية
والفتوحات التى تمت على أيديهم

وخلافة الوليد بن عبد الملك ٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٥ م .
وخلافة سليمان أخيه ٩٦ — ٩٩ هـ / ٧١٥ — ٧١٧ م .
وخلافة عمر بن عبد العزيز ٩٩ — ١٠١ هـ / ٧١٧ — ٧٢٠ م .
وخلافة يزيد الثانى ١٠١ — ١٠٥ هـ / ٧٢٠ — ٧٢٤ م .
ثم جانباً من خلافة هشام بن عبد الملك ١٠٥ — ١٢٥هـ/٧٢٤ — ٧٤٣م .
وفيما يلى عرض موجز لأهم ميادين التوسع فى هاتين الفترتين :

١ — فى الشرق . تم فتح أفغانستان إلى نهر سيحون ، سنة ٥٧ هـ / ٦٧٦ م . كما تم وصول الجيوش العربية إلى الصين بقيادة قتيبة ، سنة ٩٦ هـ / ٧١٥ م ، وإلى البنجاب ، بقيادة محمد بن القاسم ، سنة ٩٦ هـ / ٧١٥ م .

٢ — فى الغرب . فتح الشمال الأفريقى إلى حدود الجزائر الشرقية عقبة ابن نافع وحسان بن النعمان وموسى بن نصير بين سنتى ٦٤ — ٩٣ هـ / ٦٨٣ — ٧١١ م . ثم فتح الأندلس على يد طارق ومولاه موسى بن نصير بين سنتى ٩٣ — ٩٧ هـ / ٧١١ — ٧١٤ م ، من وادى بينكا إلى جبال الأستورياس .

ولكن محاولات بعض الولاة لغزو جنوب فرنسا لم تكلل بالنجاح : إذ هزم يودو Eude ، دوق طلوشة ، السمح بن مالك الخولانى ، والى الأندلس (١٠٠ — ١٠٢ هـ / ٧١٨ — ٧٢٠ م) ، كما هزم شارل مارتل حاجب القصر ووزير الدولة الميروفنجية جيشَ عبد الرحمن الغافقى فى وقعة تور - بواتييه Tours — Poitiers أو وقعة بلاط الشهداء ، كما هى معروفة فى المراجع العربية ، سنة ١١٤ هـ / ٧٢٢م ، فكانت آخرَ محاولةٍ قام بها العرب لغزو أوربا من جهة الغرب .

٣ — فى الشمال الغربى . قام الأمويون بمحاولات عدة لفتح القسطنطينية ، وقد سبقت الإشارة إلى أولى هذه المحاولات عند الكلام عن انتصار الأسطول

العربى على الأسطول البيزنطى فى وقعة ذات السوارى البحرية ، سنة ٣٥ هـ/ ٦٥٥ م ، ولم يتسن لمعاوية استغلال هـذا النصر ، لوقوع الفتنة التى أدت إلى مقتل عثمان فى المدينة . وأعاد معاوية الكرة ، سنة ٤٩ هـ/ ٦٦٩ م بتجريد حملة ثانية ، عن طريق البر ، عام ٤٩ هـ/ ٦٦٩ م ، وأخرى عن طريق البحر ، بين سنتى ٥٤ — ٥٩ هـ / ٦٧٣ — ٦٧٨ م . أما الحملة البرية ، قد أحتلت خلقدونية ولكنها أخفقت آخر الأمر : ولعل سبب ذلك عدم كفاءة قيادتها على حسب رأى بعض المؤرخين . وأما الحملة البحرية ، فلم تكن أوفق من سابقتها ، بسبب التدمير الذى منى به الأسطول العربى ، من جراء النار التى استعان بها الإغريق والتى لم يقو العرب على مكافحتها .

وبعثَ الوليد بن عبد الملك حملةً أخرى على القسطنطينية ، يأمر بإنفاذها الخليفةُ سليمان بن عبد الملك بعد موت الوليد ، بقيادة أخيه مسلمة ، سنة ٩٨ هـ / ٧١٦ م ؛ ولكن إمبراطور القسطنطينية ليو الأيسورى كان ذا بأس ودهاء ، فشغل العرب إلى أن جاء الشتاء ونفدت المؤن ؛ وأخيراً استعان على الأسطول بالنار الإغريقية ، كما رمى العرب المحاصرين بجيش من البلغار ، فحلت بهم الهزيمة .

(جـ) الفتن

١ — الشيعة . من هذه الفتن ما كان أساسه وجود الدولة الأموية ذاتها : فإنّ الشيعة ، أنصار عَلِيّ لم يذعنوا يوما ما للدولة الجديدة ، لأن الخلافة ، فى رأيهم ، من حق على وبيت الرسول ، المتمثّل فى ذرية على وزوجته فاطمة بنت الرسول . وإنما الأمويون اغتصبوها عنوة واحتيالا ، وبالتالى إنهم هم المسئولون عن تشريد عَلِيّ ، ثم عن مقتل ابنه الحسين فى كربلاء (٦١ هـ / ٦٨٠ م) ، حين خذله أهل الكوفة .

وقد أحس الأمويون بخطر العلويين وشيعتهم ، فتربصوا لهم وعاملوهم أينما

ثاروا بأقصى الشدة . وثار الشيعة من بعد مقتل الحسين مرة أخرى بقيادة يزيد حفيد الحسين بن علي وثاروا أخيرا فى العراق وفارس ، بزعامة عبد الله حفيد جعفر بن أبي طالب (١٢٨ — ١٣٠ هـ / ٧٤٥ — ٧٤٧ م) .

٢ — أما الخوارج[٢٤] ، فقد خرجوا على عَلِىّ فى معركة صفين بعد أن قبل التحكيم ، وعادُوا الأمويين عداء شديدا لاغتصابهم الخلافة ، ثم لاستحواذهم عليها كما قدمنا .

فثاروا مرة فى العراق وفارس ، سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م ، فأخمد المهلب ثورتهم (٧٩ هـ / ٦٩٨ م) .

وثاروا مرة أخرى فى العراق ، سنة ١٢١ هـ / ٧٣٨ م ، فهزمهم خالد ابن عبد الله العشرى .

وقاموا بثورة أخرى ، سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م بالتآمر مع البربر ، فى شمال أفريقية ، فأخضعهم حنظلة سنة (١٢٥ هـ / ٧٤٢ م) .

وثاروا فى العراق وبلاد العرب ، سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٥ م ، واستولَوا على المدينة ومكة .

وكانت ثورتهم الأخيرة سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٥ م ، عندما انضموا إلى الشيعة والعباسيين ، وذلك قبل أن يرفع أبو مسلم (١٢٩ هـ / ٧٤٧ م) علم العباسيين الأسود فى خراسان بسنتين .

٣ — الزبيريون . (٣٦ — ٧٣ هـ / ٦٥٦ — ٦٩٢ م) . بدأ خروجهم على عَلِىّ يوم أن نودِىَ به خليفة بعد مقتل عثمان ، فخرج الزبير وطلحة مع عائشة بنت أبي بكر ، لكنهم هُزموا فى وقعة الجمل ، بالقرب من البصرة (٣٦ هـ / ٦٥٦ م) .

وخرج عبد الله بن الزبير على يزيد بن معاوية (٦٣ هـ / ٦٨٢ م) ،

فبايعه بالخلافة أهلُ المدينة ومكة؛ ولكنه هزم فى وقعة الحرة، قرب المدينة، فاستسلمت مكة بعد أن نال منها الحصار، واحترقت الكعبة .

ثم بعد موت معاوية الثانى ابن يزيد، انحازت بلاد العرب والعراق ومصر وقبيلة قيس فى بادية الشام إلى ابن الزبير؛ فحاربهم الخليفة مروان بن الحكم، بمساعدة قبيلة كلب اليمنية، وهزمهم فى مرج راهط، سنة ٦٥ ﻫ / ٦٨٤ م، ولكن بقيت بلاد العرب وفارس موالية لابن الزبير إلى أن استعاد عبد الملك العراق، سنة ٧١ ﻫ / ٦٩٠ م، واستولى الحجاج على المدينة، سنة ٧٢ ﻫ / ٦٩١ م، ثم على مكة، (٧٣ ﻫ / ٦٩٢ م)، ولم يخلُ الجو لعبد الملك إلا بمصرع ابن الزبير .

٤ — الموالى . نقم الموالى على الدولة الأموية لأسباب، منها تعصبها للعرب، ومنها تعسف عمال الدولة، وعلى رأسهم الحجاج: فهم لم يقيموا لإسلامهم حسابا، بل فرضوا عليهم الجزية، شأن غير المسلمين. والذى زاد من سوء وقع هذه المعاملة فى أنفسهم أن أغلبهم كان من الفرس، وهم ذوو الدولة العريقة والسلطان، والحضارة والأدب، وسرعان ما فاقوا العرب فى كل الميادين التى انفتحت لنشاطهم، دون استثناء العلوم العربية الدينية واللغوية والأدب والشعر، وإليهم أسندت الأعمال الإدارية والكتابية فى بلادهم، جرياً على سنة الأمويين . . . فكيف لا يشعرون بالهوان، ولا تملأ الأحقاد نفوسهم؟

وقد أدرك ذلك بعض العلويين، وعلى رأسهم المختار بن عبيد الله الثقفى، وكان داعية لمحمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب؛ فعملوا على على استمالتهم واستغلالهم. ولم يستعص عليهم الأمر، لأن الفرس كانوا من أصحاب مبدأ التفويض الإلهى فى الأسرة المالكة، وهى نظرية تشبه إلى حد كبير نظرية الشيعة. فأغرى العلويون الموالى بوعود الإنصاف والمساواة، إذا ما أيدوهم وآلت إليهم الخلافة .

ولكن أصحاب الدعوة العباسية كانوا أدهى من العلويين ، فتظاهروا بمالأتهم ، موارين أغراضهم تحت الدعوة « للرضا من آل محمد » ، وبثوا دعوتهم فى الولايات الشرقية ، البعيدة عن رقابة الخلفاء والتى كانت ميدان صراع بين العصبيات ، إذ كان كل والٍ جديد يتعصب لقبيلته ، اليمنية أو القيسية ، ولا همّ له سوى إرضاء عصبيته وإخماد الاضطرابات الناجمة عن هذه السياسة الانحيازية . فلا تسل عن الذهول الذى اعتراهم حين كشف أبو مسلم القناعَ فى رمضان سنة ١٢٩ هـ/يونية ٧٤٧م ، فإذا « بالرضا من آل محمد » هو أبو العباس بن عبد المطلب عم الرسول .

وهكذا أصبحت الدعائم التى شيد عليها الأمويون ملكهم ، سبب هلكتهم :

يقهرون عَلِيًّا فى الخلافة فيستعْدُون العلويين وشيعتهم ؛

يجعلون الخلافة وراثية فى ذريتهم ، فيستعدون الخوارج ؛

ينقلون العاصمة من الحجاز إلى الشام ليضمنوا الولاء والمناعة والدراية الإدارية ، فيستعدون أهل الحجاز ؛

يتعصبون للعرب فيستعدون الموالى ؛

يتعصبون لليمنية فيستعدون القيسية . . .

فلا غرابة أن يستفحل هذا العداء الشامل وأن تتظاهر أسبابُه ، فتذهب الخلافة الأموية فى الشرق ضحية ما زرعت .

شروح وتعليقات

(١) أحمد أمين ، فى كتابه (فجر الاسلام) ، ج ١ ، ص ٥ .

(٢) يرى عبد الحميد العبادى ، أن من حصائص الفترة التى سبقت ظهور الاسلام ، احتدام الخلاف بين عرب الجنوب القحطانيين ، الذين استوطنوا شمال الجزيرة العربية ، كاللخميين والغساسنة وقبيلة كندة وقبيلتى الأوس والخزرج ، وعرب الشمال العدنانيين ، أو النزاريين ، ويسوق أمثلة لهذا الصراع ولغلبة عرب الشمال القحطانيين ، منها :

١ ــ انتصار قريش على خزاعة اليمنية وطردها اياها من مكة ،

٢ ــ خروج القبائل النجدية على قبيلة كندة ، التى كونت مملكة فى شمالى نجد فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، فأزالت القبائل النجديه ملكها سنة ٥٢٩ م ، بعد أن أضعفت كندة مناوأة مملكة الحيرة لها ،

٣ ــ انتصار قبيلة بكر الشمالية على لخميى الحيرة ، فى يوم ذى قار عام ٦١٣ ، رغم مساعدة الفرس ووقوفهم الى جانب اللخميين .

تاريخ العالم ، ج ٤ ، ص ٤٠٥ .

بنى العرب عصبيتهم على أنسابهم ، وقد أفاض النسابون فى تقسيم هذه الأنساب والانحدار مع كل ذرية الى أبعد الحدود ، ولكنها ، وان اعتنقها العرب وساروا عليها فى تحديد نوع العلاقات بين قبائلهم المختلفة ، الا أنها ، فى مجموعها ، لم ترجع الى اليقين الثابت المدعم بالوثائق المقطوع بصحتها .

ولا يتسع مجال القول هنا لعرض هذه النظرية ، التى تشير اليها كل كتب الأدب ، فضلا عن كتب التاريخ المفصلة .

كتب أحمد أمين : « ومن أوضح المثل على هذا (أى مساوىء العصبية) ما كان من العداء الشديد بين أهل المدينة ــ الأوس والخزرج ــ وهم على ما يذكر النسابون يمنيون ، وأهل مكة ، وهم عدنانيون ــ وقد استمر التنافس بينهم بعد الاسلام » (فجر الاسلام) ج ١ ، ص ٧ .

(٣) أ ــ تأسست دولة اللخميين فى عهد سابور الأول ملك الفرس ، سنة ٢٤٠ م ، وكانت موالية للفرس ، تكلف المحافظة على سلامة حدود فارس المتاخمة ، وحماية طرق التجارة بين فارس وبلاد العرب ، مقابل اتاوة أو جعل تدفعه لهم الفرس .

كانت عاصمتها الحيرة ، وقد اشتهرت بجودة هوائها ، وترف سكانها ورخائهم . ومن أشهر ملوكهم النعمان بن امرىء القيس ، الذى بنى له سنمار قصر الخورنق ، والمنذر بن ماء السماء ، الذى قتله الحارث بن أبى شمر الغسانى ، فى موقعة مرج حليمة ، سنة ٥٥٤ ، والنعمان بن المنذر (٥٨٠م)

الذى قتله كسرى أبرويز ، سنة ٦٠٢ م ، وأقام اياس بن قبيصة خلفا له ، فقامت عليه قبيلة بكر فى ذى قار ، وانتصرت عليه برغم من معاضدة الفرس له .

ب — الغساسنة . هاجرت قبيلة أزد اليمنية الى الشام على أثر انكسار سد مأرب ، فتمكنت من الضجاعمة ، وهم السكان الأصليون ، ثم من قبائل قضاعة الحميرية التى كانت سبقتها الى الشام ، وأقامت هناك دولة الغساسنة .

ومن أهم مدنهم بصرى ، لموقعها على طريق التجارة بين المحيط الهندى وساحل البحر الأبيض .

وقد اشتهر من ملوكهم الحارث بن أبى شمر السالف الذكر .

وقد استولى الفرس على بلاد الشام سنة ٦١٣ م ، ولكن الروم استردوها عام ٦٢٩ م ، وكان جبلة بن الأيهم آخر ملوكها ، حين انتصر العرب على الروم فى موقعة اليرموك ، سنة ١٣ هـ .

ح — تدمر : كلمة سريانية معناها النخيل ، وقد أطلقت على المدينة العربية التى عرفها الرومان باسم Palmyra

وكان من أشهر أمرائها أذينة الثانى (٢٦٤م)، ثم أمرأته زينب(أو الزباء).

وكانت تدمر فى وقت من الأوقات (القرن الثانى الميلادى) أشهر محط للقوافل المتاجرة بين الحبشة واليمن والعراق وفارس .

د — وقعت مدينة البتراء — أو البطراء — وهى « سلع » القديمة ، فى ملتقى الطرق التجارية ، بعد اجتيازها منطقة أيلة (العقبة) . سكنها الأنباط وهم من عرب الجنوب . وامتدت دولتهم من سنة ٣١٧ الى ١٠٦ ق م حين استولى عليها الرومان .

هـ — ونذكر الى جانب هذه الدول آل كندة فى نجد ، ثم آل يثرب فى الحجاز ، وآل قريش فى مكة .

(٤) الدكتور أحمد فخرى ، كتابه (بين آثار العالم العربى) نقلا عن « الجديد فى الأدب العربى » لصاحبه حنا الفاخورى .

(٥) قال أحمد أمين : « كانت التجارة قديما فى يد اليمنيين ، وكانوا هم العنصر الظاهر فيها ، فعلى يدهم كانت تنقل غلات حضرموت وظفار ، وواردات الهند الى الشام ومصر . ثم انحط اليمنيون ... وحل محلهم فى القبض على ناصية التجارة عرب الحجاز ، وكان ذلك منذ القرن السادس للميلاد ، فكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ، ثم يبيعونها ، على حسابهم ، فى أسواق الشام ومصر ، وقليلا ما يبيعونها فى

أسواق فارس ، لأن التجارة مع الفرس كانت فى يد عرب الحيره ، وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم ، ووضعوا الطريق تحت حمايتهم ، ووصل المكيون قبيل الاسلام ، عندما كان العداء بين الفرس والرومان بالغا مبلغاه ، الى درجة عظيمة فى التجارة ، وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم فى كثير من شئونهم حتى فيما يترفهون به ، كالحرير » • (فجر الاسلام) ج ١ ، ص١٤ .

(٦) الدكتور ناصر الدين الأسد ، نقلا عن كتاب (الجديد فى الأدب العربى) ، ص ٥٩ •

(٧) لا يتسع لنا مجال القول للولوج فى الجدل الطويل الذى أثير حول تفسير الآية : « انا جعلناه قرآنا عربيا » ، سورة الزخرف ، آية ٣ ، وحسبنا رأى أبى منصور الجواليقى فى مقدمة كتابه (المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم) ، فهو خير ما يحسم به الخلاف • قال . « فأما ما ورد منه (أى الكلام الأعجمى) فى القرآن ، فقد اختلف فيه أهل العلم. فقال بعضهم : كتاب الله ليس فيه شيء من غير العربية • أخبرنى غير واحد عن الحسن بن أحمد عن دعلج عن على بن عبد العزيز عن أبى عبيد قال : سمعت أبا عبيدة يقول • من زعم أن فى القرآن لسانا سوى العربية فقد أعظم على الله القول • واحتج بقوله تعالى : « انا جعلناه قرآنا عربيا » • قال أبو عبيد . وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم ، فى أحرف كثيرة (أى كلمات) : أنه من غير لسان العرب ، مثل «سجيل» و «المشكاة» و « اليم » و « الطور » و « أباريق » و « استبرق » وغير ذلك •

فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبى عبيدة ، ولكنهم ذهبوا الى مذهب وذهب هذا الى غيره • وكلاهما مصيب ان شاء الله •

وذلك • أن هذه الحروف بغير لسان العرب فى الأصل ، فقال أولئك على الأصل ، ثم لفظت به العرب بألسنتها ، فعربته ، فصار عربيا بتعريبها اياه ، فهى عربية فى هذه الحال ، أعجمية الأصل ، فهذا القول يصدق الفريقين جميعا » اهـ • المعرب ، طبعة دار الكتب ، ١٣٦١ هـ/١٩٣٨ م ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، ص ٤ •

(٨) نحن لا نقصد أن الشعر الجاهلى كان كله بدويا ، ولكن هناك ظاهرة غريبة يجب أن يقف عندها الباحث ، وهى ان حياة البداوة ، باطارها البيئى وقيمها ومعانيها ، وحتى بلغتها ، قد طغت على الشعر وتحكمت فى مقاليده قرونا عديدة ، حتى فى أعز أيام الحضارة العباسية ، ولم يفلح بشار ولا أبو نواس ولا الشاعر العملاق المتنبى فى تحرير الشعر من قيودها • ولا يعقل أن يستمر هذا التأثير قويا بعد أن تمكنت الحضارة من المجتمع العربى وقلبت معالمه رأسا على عقب ، الا اذا سلمنا بأن الشعر نشأ بدويا ، وترعرع بدويا ، فلما عرفه الحضر كان قد بلغ ذروة رأوا عندها المثل الأعلى ، فاحتذوا حذوه وراحوا يقلدونه صاغرين •

(٩) طالع فى « حديث الأربعاء » للدكتور طه حسين ، رفاعه القوى عن السعر القديم ٠

(١٠) بعد أن بين د٠ حسن ابراهيم ، أن روح التعاون كانت سائدة بين أفراد القبيلة الواحده ، أضاف قائلا : « فاذا تشعبت بطون القبيلة الواحده تنافس أفراد كل بطن فى الشرف والثروة ، ووقفوا لأنفسهم بالمرصـــاد ، وعملوا على الاستيلاء على مواردها ، وقد يبلغ العـــداء أشده وتراق الدمــاء بسبب هذه المنافسة ، وقد اشتهر هــذا العــداء فى الجاهلبــة بين الأوس والخزرج ، وبين عبس وذبيان ، وكذلك بين عبد شمس وهاشم ، وبين ربيعة ومضر ، وبين القحطانية والنزارية» (تاريخ الاسلام السياسى)٠جـ١ ، ص٣٨.

(١١) أنظر فى هذه التعليقات رقم ٢ ورقم ٣ ٠

(١٢) حياة المسيح ، سلسلة كتاب الهلال ، العدد ٨٢ ص ٢٧ ٠

(١٣) أنظر الى كتاب الدكتور حسن ابراهيم « تاريخ الاسلام السياسى » ص ٣٠ للاطلاع على نسب الرسول ٠

(١٤) وقيل سميت بهذا الاسم لأنهم كانوا أهل تجاره، وكانوا يقولون: فلان « يتقرش » المال ، أى يجمعه : هذه رواية لسان العرب ، أما ابن‌هشام، فى السيرة ، فيرى أن أصل الكلمة فى أن قريشــا كانت « تقرش » ، أى تتاجر بالقروش ، ولما احتكرت تجارة الحجاز ، لصق بها هذا الاسم على باب التخصيص ٠

(١٥) يروى ابن هشام أن الرسول التقى برهط من الخزرج عند (العقبة)، فى طريق مكة ، ودعاهم الى الاســلام ، فاستمعوا له ، ثم بايعوه فى السنة التالية فى المكان ذاته ، وعادوا ، بعد ذلك ، فبايعوه البيعة الكبرى ، وهى بيعة العقبة الثانية ٠

(١٦) طالع نص معاهدة الرسول مع أهل المدينة ، كما رواها ابن‌هشام، فى كتاب د. حسن ابراهيم (تاريخ الاسلام السياسى) ، ص ١٢٥ ٠

(١٧) وقال الامام الشيخ محمد عبده فى تفسير الآية : « لتجدن أشــد الناس عــداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » ، المائدة ، آية ٨٢ (٨٥ فى تفسير المنار) ، قال : « أى ذلك ـ الذى ذكر من كون النصارى أقرب مودة للذين آمنوا ـ بسبب أن منهم قسيسين يتولون تعليمهم وتربيتهم الدينية ، ورهبانا يمثلون فيهم الزهد وترك نعيم الدنيا والخــوف من الله عز وجل والانقطــاع لعبــادته ٠ وأنهم لا يستكبرون عن الاذعان للحق اذا ظهر لهم أنه الحق لأن أشهر آداب دينهم

التواضع والتذلل وقبول كل سلطة ، والخضوع لكل حاكم ، بل من المشهور فيها الأمر بمحبة الأعداء ، وادارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن . فتداول هذه الوصايا ، ووجود أولئك القسيسين والرهبان ، لا بد أن يؤثر فى نفوس جمهور الأمة وسوادها ، فيضعف صفة الاستكبار عن قبول الحق فيها » . اهـ ، (تفسير المنار) الجزء السابع ، الطبعة الثانية ، ص ٧ .

(١٨) تقول المراجع الاسلامية أن يهود يثرب « رأوا فى محمد وفى دينه منافسا » لنفوذهم ، فحسدوه وكادوا له وللمسلمين بالدس والجدل ، ثم خانوا شروط المعاهدة التى عقدها الرسول مع أهل المدينة ، وأرادوا قتل الرسول ، فتآمر عليه بنو النضير ، فأجلاهم عن يثرب ، سنة ٤ هـ ، ثم أدب بنى قريظة لنقضهم العهد ، وكذلك يهود وادى القرى وفدك ، وسار الى خيبر ، معقل أشراف بنى النضير ، ففتحها سنة ٧ هـ ، فأسرع يهود فدك وتيماء الى طلب الصلح ، واضطر يهود وادى القرى الى التسليم .

(١٩) لزم خالد لقب سيف الله ، بعد قول محمد فيه ، وقد علم بحسن بلائه ، فى غزوة مؤتة ، سنة ٨ هـ ، قال « ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ، ففتح الله عليه » .

(٢٠) ارتد مسيلمة الكذاب فى اليمامة وادعى النبوة منذ أيام الرسول ، وقد انضمت اليه سجاح المتنبئة ، وادعى النبوة الأسود العنسى باليمن ، وطليحة بن خويلد من بنى أسد .

(٢١) لعل أوفى عرض وأدق تحليل لمأساة هذا العصر ولمأساة على بصفة خاصة ، نجده فى كتاب الأستاذ عباس محمود العقاد (عبقرية الامام على) ، ص ٥١ الى ص ١٤٦ ، كتاب الهلال ، العدد ١١٩ ، فبراير ١٩٦١ .

(٢٢) قتله عبد الرحمن بن ملجم ، وهو من غلاة الخوارج . أنظر (عبقرية الامام على) ، ص ١٠٥ الى ص ١٠٧ .

(٢٣) ينسب المؤرخون الاصلاح النقدى الى عبد الملك بن مروان ، صاحب حركة التعريب الشهيرة ، فهو أول من ضرب نقودا اسلامية خالصة ، وأما رواية المقريزى التى تسند الى معاوية ضرب الدنانير الذهبية ، فانه لم يصل الينا شىء منها حتى الآن يقطع بصحة هذه النسبة .

طالع مقال د. عبد الرحمن فهمى محمد عن (قصة النقود العربية) فى مجلة مرآة العلوم الاجتماعية ، العدد الأول ، ديسمبر ١٩٦١ ، ص ٥٩ .

(٢٤) طالع بحث الدكتورة سهير القلماوى فى مجلة العربى ، العدد ٣٩ ، فبراير ١٩٦٢ ، وعنوانه (رأس الخوارج) .

الفصل السادس

الفرنجـــة

الموجـــز :

تمهـــيد : منازل الفرنجة .

كلوفيس : الوحدة السياسية .

الوحدة الاجتماعية .

الفترة ما بين ٥١١ و٧٧١ . المشاحنات والحروب .

السلطات العامة .

الحركة الانفصالية .

الكارولنجيون : ببين دوق لاندن .

أعمال أبناء ببين فى الداخل .

أعمال أبناء ببين فى الخارج .

حرب الجرمان .

حرب العرب .

حرب اللمبارديين .

الكارولنجيون وموقفهم من الكنيسة والبابا .

تمهيد

منازل الفرنجة

إن نزوح الفرنجة من جرمانيا الشمالية صوب نهر الراين لم يتخذ بوجه عام صفة الهجرة العنيفة والغزو السافر ، كما كانت الحال بالنسبة إلى الهون أو القوط . نقول بوجه عام ، لأن التاريخ يذكر لهم بعض المواقف الحربية التى لجأوا فيها إلى الغزو المسلح ، مرة فى سنة ٢٤١ ، كما أسلفنا فى الفصل الثانى ، ومرة أخرى عام ٢٥٨ ، حيث انتشروا فى بلاد الغال حتى بلغوا أسبانيا ، ومرة ثالثة عام ٢٧٦ . ولكن هذه المحاولات لم تؤدّ بهم إلى استيطان بلاد الغال ، إذ أنهم اضطروا إلى التقهقر إلى ما وراء نهر الراين إثر كل غزوة من هذه الغزوات .

اصطبغ إذن زحفهم بصبغة التغلغل السلمى البطىء ؛ وهكذا احتلوا مصب نهر الراين ، وعندما عبروا هذا النهر ، سنة ٣٣٧ ، بحثاً عن الأراضى الخصبة ، أثاروا مخاوف الدولة الرومانية ، لحاربهم القائد يوليانوس Julianus[1] سنة ٣٥٥ ، فردهم مرة أخرى عبر الراين ؛ على أنه عاملهم معاملة الحلفاء ، فاستضافهم على الحدود الشمالية ، على أن يقوموا بحراستها ، وكان ذلك عام ٣٦٠ .

وعندما اشتد ضغط البرابرة النازحين من الشمال على الدولة الرومانية ، فى أوائل القرن الخامس ، واستدعى القائد ستليخو فرق الجيش الرومانى المرابطة فى الشمال ، وجد الفرنجة الفرصة سانحة للتوغل فى غالة الشمالية ، سنة ٤٢٨ ، بقيادة ملكهم كلوديون Clodion ، ولكن هذه المرة أيضاً أوقفهم القائد الرومانى أيتيوس AEtius ، ثم اعتبرهم حلفاء ، واستعان بهم على جيوش أتيلا Attila فى وقعة شالون Châlons ، عام ٤٥١ . ثم نجدهم يحاربون معه القوط الغربيين فى وقعة أورليان Orléans ، عام ٤٨١ .

وكان يتزعمهم حينئذ شلدريك من بيت ميروفيه الملكى (الفرنجة البحريين)[٢] وقد جمع بين الكهانة والزعامة السياسية ، مما أوقعه وأبناءه الميروفنجيين موقع الإجلال والهيبة من نفوسهم ، رغم ضآلة شأن الكثير منهم .

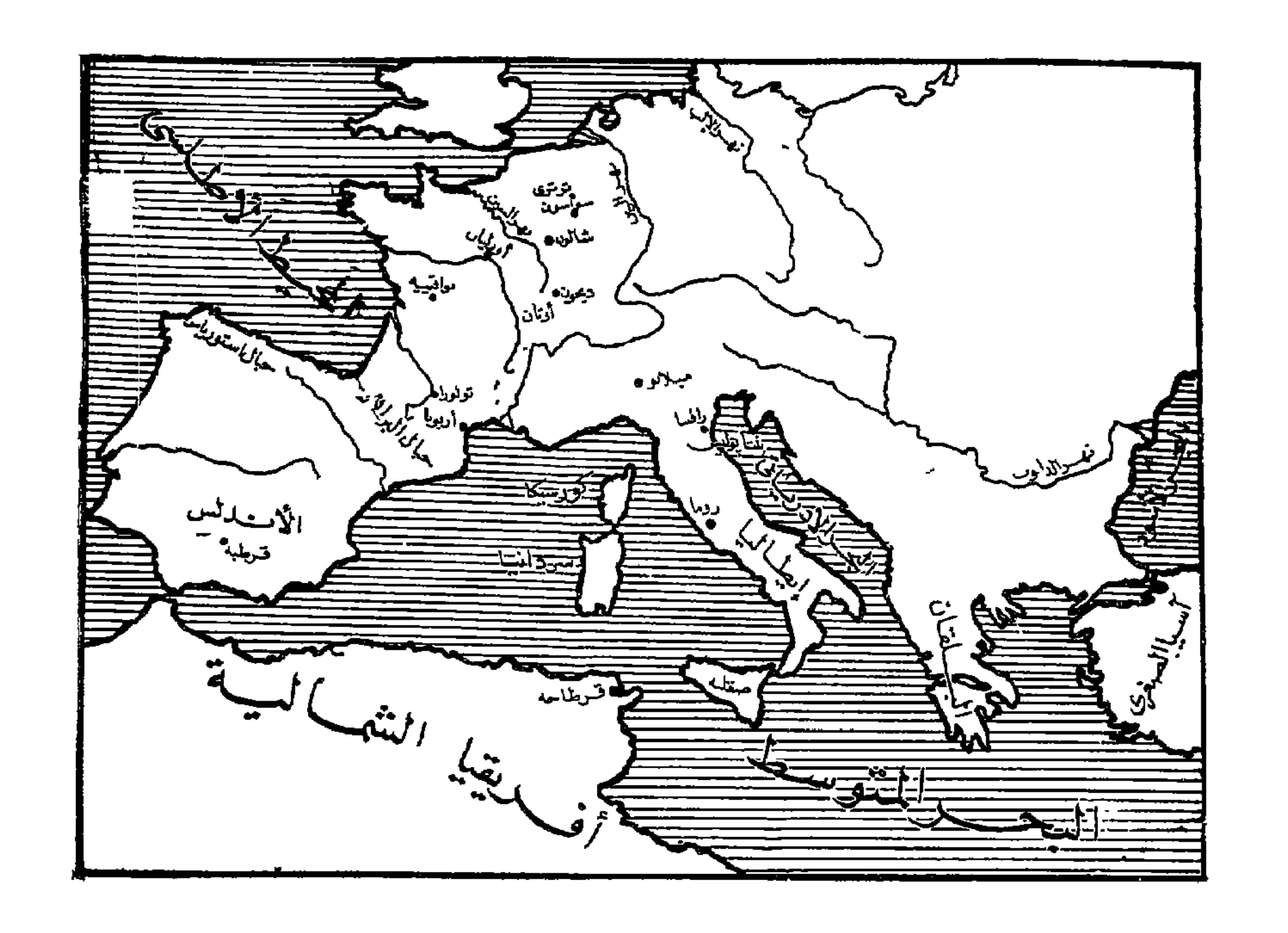
كلوفيس Clovis ٤٨١ — ٥١١

وفى هذه السنة نفسها — أى سنة ٤٨١ — مات شلدريك ونودى بابنه كلوفيس ملكا على الفرنجة الساليين (البحريين) . وكان شجاعا نشطاً محنكا ، رغم حداثة سنه ، إذ لم يتجاوز بعد العشرين . حكم الفرنجة ٣٠ عاماً ، أتم خلالها العمل الجليل الذى خلده فى نظر الفرنسيين ، وهو توحيد أشتات غاليا ، لأول مرة فى التاريخ منذ الغزو الرومانى ، فما زال الفرنسيون اليوم يعدون ذلك من أياديه التى لا تنسى .

هذه الوحدة الغاليّة ، لقد سعى كلوفيس إلى تحقيقها من الناحيتين : الناحية السياسية الحربية ، والناحية الاجتماعية .

أما من الناحية السياسية ، فقد خاض كلوفيس أربع معارك فاصلة ، انتصر فى الأولى على الغالورومان فى موقعة سواسون ، سنة ٤٧٦ ؛ وهزم فى الثانية الأللمانى فى الشرق ، رغم معاضدة القوط الشرقيين لهم ، فى وقعة تولبياك ، عام ٤٩٦ ؛ وأخضع البرجنديين فى موقعة ديجون ، سنة ٥٠٠ ؛ وأخيراً حطم سلطان القوط الغربيين وقوض مملكة تولوز Toulouse ، أو طولوشا كما سماها العرب ، فى وقعة فوييه Vouillé ، سنة ٥٠٧ .

وبما أنه كان يضم ممتلكات المغلوبين إلى أملاك الفرنجة عقب كل انتصار ، فشملت دولته عند وفاته ، عام ٥٢١ ، غالة بأسرها ، ما عدا جزء بسيط فى الجنوب الغربى — سبتمانيا وبروفانس Septimanie , Provence — بقى فى أيدى القوط الغربيين والقوط الشرقيين .



المحيط الأطلسي
نهر الرين
تورتري
سواسون
شالون
نهر السين
أورليان
بواتييه
ديجون
أوتان
تولوز
أربونا
جبال البرانس
جبال استورياس
الأندلس
قرطبة
ميلانو
رافنا
بنتابوليس
البحر الأدرياتي
روما
إيطاليا
كورسيكا
سردانيا
نهر الدانوب
البلقان
آسيا الصغرى
صقلية
قرطاجنة
البحر المتوسط
أفريقيا الشمالية

أما الناحية الاجتماعية ، فقد عالجها كلوفيس بحصافة متناهية . لقد أدرك بذكائه قوة المسيحية الكاثوليكية ونفوذ أساقفتها ، فحرص على ألا يتعرض لهم بسوء ، بل عمل على استرضائهم منذ الحرب الأولى ضد الغالورومان ، وكانوا من الكثالكة ، بينما كان الفرنجة وثنيين . وكثرت الروايات التي تشير إلى العلاقات الودية التي قامت بينه وبين رجال الدين (قصة وعاء سواسون)[٣] .

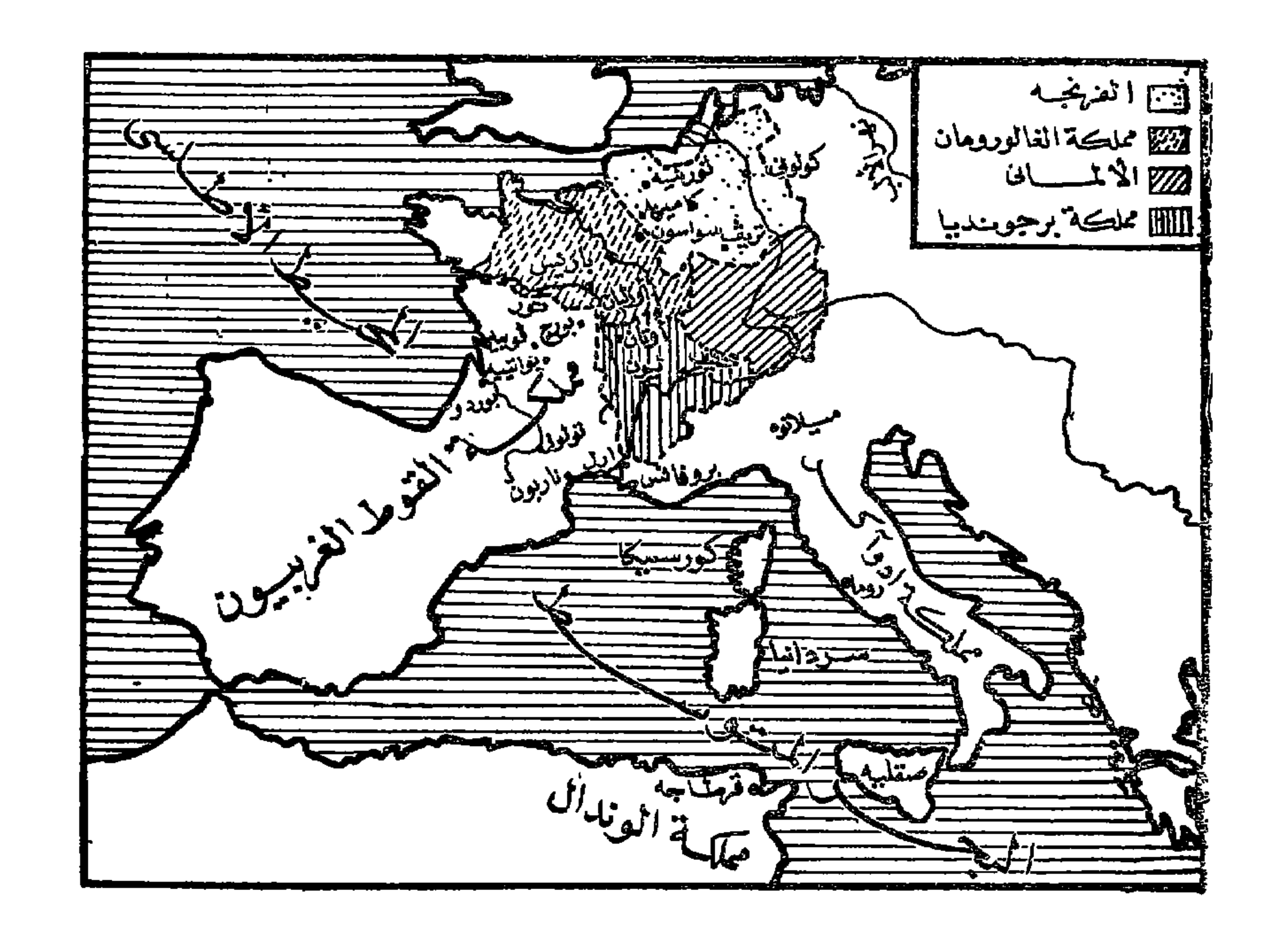
ولا ندرى إذا كان زواجه من كلوتيلدا الكاثوليكية ابنة أخى ملك البرجنديين ، عن خطة مدبرة ، لعبت فيها الأغراض السياسية دوراً ما ... ولكن الشيء الذى لا يمكن إنكاره هو مدى التأييد الذى ناله كلوفيس من الأساقفة الكاثوليك فى حروبه التالية ضد البرجنديين ، والقوط الغربيين ، وكانوا من الأريوسيين .

ولكن مما لاشك فيه ، أن موقفه من الغالورمان المغلوبين ليدل على مهارة فائقة ونضج سياسى جدير بالتنويه ، فبدلا من اعتبارهم أعداء أو الاستيلاء على أراضيهم لتوزيعها على جنوده[٤] ، فإنه بالغ فى حسن معاملتهم واسترضاء أساقفتهم ، فأنِسُوا إليه وأيدوه ، لا سيما بعد أن تحول إلى المسيحية عقب وقعة تولبياك ، سنة ٤٩٦ .

وقد كان لتآلف الفرنجة مع الغالورومان المتحضرين ، ولتحولهم إلى المسيحية الرومانية ، أكبر الأثر فى وضع حجر الأساس لحضارة سوف تؤتى أُكُلها رغم بساطتها ، فى عهد شارلمان .

الفترة ما بين ٥١١ و ٧٧١

إن الفترة التى انقضت بين موت كلوفيس سنة ٥١١ ، واعتلاء شارلمان العرش ، سنة ٧٧١ ، وهى فترة تربو على قرنين ونصف قرن من الزمن ، فترة تتراءى للباحث مطبوعة بطابعين : مشاحنات وحروب لا تكاد تنقطع ، من جهة ، ومن جهة أخرى ، تدهور يصيب السلطات العامة ، إذا صحت هذه القسمية ، ويشجع نزعة المقاطعات إلى اللامركزية والانفصال .


الفرنجه
مملكة الغالورومان
الألمان
مملكة برجونديا
ميلانو
روما
كورسيكا
سردانيا
صقلية
قرطاجه
مملكة الوندال
القوط الغربيون
بروفانس
ناربون
تولوز
كولونيا
سواسون

١ — المشاحنات والحروب

جرد أبناء كلوفيس حملات عديدة ، بقصد التوسع والاستعمار ، فغزوا مقاطعة تورنج Thuringe ، فى أعالى نهر الإلب ، وأخضعوها ، سنة ٥٣٢ ، ثم ضموها إلى دولة الفرنجة . وساعدتهم الظروف فى ضم مقاطعة بروفانس Provence ، سنة ٥٣٩ ، من غير إراقة دماء ، إذ أن القوط الغربيين اختاروا التنازل عنها سلمياً ، ليتفرغوا لمواجهة جيوش جستنيان التى نزلت إيطاليا غازية ، منـــذ سنة ٥٣٥ ؛ ثم فى عام ٥٤٣ ، استولى الفرنجة على مقاطعة نربونيز Narbonnaise ، والمدن السبع ، Septimanie ، بعد أن أجلوا عنها القوط الغربيين عنوة واقتداراً .

تمت هذه الأعمال على يد الرعيل الأول من أبناء كلوفيس ، أى بين سنة ٥١١ وسنة ٥٤٢ ؛ ورغم انفراد كل منهم فى حكم ما ورثه من مملكة أبيه ، فقد حرصوا على التعاون والوئام ، على وجه عام ؛ وشاءت الظروف أن تتحد المملكة ، فى الفترة ما بين سنة ٥٨٨ وسنة ٥٦١ ، تحت حكم كلوتير الأول ، ابن كلوفيس الأكبر ، سنة ٥٦١ ؛ ولكن عند موته ، سنة ٥٦٣ ، يعود الميراث إلى التشتيت بين أبنائه الأربعة .

هنا يقف الباحث مأخوذاً مشدوهاً حيال هذه التقاليد الجرمانية الوخيمة التى جعلتهم يعتبرون المملكة والحكم غنيمة تقسم بين الورثة على حسب عددهم[٦] ؛ بل إن موت الأمير منهم كان مدعاة لخاصمات لا حد لها ، كأنهم عصابة من اللصوص يتقاتلون على الأسلاب دون أى مراعاة لأمور الناس ، أو لمصالح الرعية ، التى لم تخلق إلا لتخدم أطماع السادة الأمراء ، وجشعهم غير المتناهى .

ولا تسل عما كان يصيب الرعية عندما تتدخل النساء[٧] ، زوجات كنّ أو حظايا ، فى شئون الحكم : فتستعر عندئذ الحروب ، وتكثر الاغتيالات

التى لا تفرق بين ذوى الرحم وبين الأعداء ، فكأن الفرنجة عادوا القهقرى إلى وحشيتهم الأولى ، يتناهشون فى الأحراش ، ويتقاتلون فى الجبال والغابات .

وقد سارت الحال على هذا المنوال من سنة ٥٧٥ إلى سنة ٦١٣ ، حيث توحدت البلاد مرة ثانية ، بمحض الصدفة ، تحت حكم كلوثير الثانى ، ثم داجوبير الأول ، وبقيت كذلك من سنة ٦١٣ إلى سنة ٦٣٨ .

٢ — السلطات العـامة

لا يتوفر للنظم السياسية والسلطات العامة أن تعيش وتترعرع ، فضلا عن أن تتطور وترتقى ، فى كنف الحروب الداخلية والفوضى المتفشية .

لقد عرف الفرنجـــة نظما قبلية كانت على بساطتها ذات أثر لا ينكر فى تصريف شئون الجماعة ، أهمها الاجتماع السنوى العـــام الذى كان يضم النبلاء وزعماء القوم لتقرير أمور القبيلة عن طريق التصويت العلنى ؛ لـكن الاضطرابات والحروب قضت على هـذه النظم القبلية ، وأصبح الملك مطلق اليد ، ويقرر ما يشاء ، طالما لم يعارضه كبار رفقائه Comes(٨) من النبلاء والزعماء .

إن إطلاق لقب الملك على أمراء الأسرة الميروفنجية فيه شىء غير قليل من المبالغة ، وترى المؤرخة إميلين ديموجو Emilienne Demougeot ، أنهم لم يكونوا أكثر من رؤساء قبائل ، ابتسمت لهم الأقدار فأخضعوا الغالورومان وهم أصحاب حضارة ونظم اجتماعية وسياسية هى النظم الرومانية ذاتهـا ؛ وكانوا من الفطانة بحيث أيقنوا ضرورة التعايش السلمى معهم ، فأبقوا على نظم الغالورومان فى المقاطعات التى كانوا يحتلونها ، كما أبقوا على نظامهم القبلى فى مقاطعاتهم الأصلية فى الشمال والشمال الشرقى من غالة .

ولكنهم قضوا على النظام المركزى ، سواء لأنهم عجزوا عن أن يدركوا جدواه ، أو لأنهم رأوا فيه حداً لسلطتهم الشخصية . أما الوظائف التى نقرأ عنها فى بلاطهم ، فإنها كانت فى الواقع إدارة للخدم الذين كانوا يتولون شئون بيوتهم من مأكل ومشرب وترفيه وصيد وما إلى ذلك . . وقد قدر لبعض هذا الوظائف أن تتطور لتصبح فيما بعد مناصب حكومية ، كوظيفة أمير القصر Major domus أو Le Majordome .

ولا غرابة إذن أن تتعدد السلطات المحلية الصغيرة وتتقوى ، لا سيما سلطة حاكم المدينة أو الكونت Comte . فقد أبقى الميروفنجيون كما أسلفنا على نظام الوحدة المحلية ، وكانت المدينة ، وهى الوحدة الإدارية كما وضعها الرومان .

وسرعان ما دعت الظروف هؤلاء الحكام إلى اتخاذ أساليب الحكم الذاتى المستقل فى حدود ولاء غامض ، وتبعية غير واضحة للملك أى ، فى الواقع ، من غير حدود ولا قيود . وكان الحكام فى ولاياتهم لا يطبقون قانوناً موحداً باعتبارهم مسئولين أمام سلطة مركزية ، تراقب وتحاسب . وإنما يسيرون وفقاً للعرف والتقاليد الفرنجية ، أو وفقاً للقانون الرومانى فيما يتعلق بالمدن الغالورومانية ، إن لم يكن وفقاً للأهواء ، اللهم إلا فى بعض الأمور الهامة ، فكانوا يستشيرون فيها النبلاء وكبار الملاك .

ثم أخذ الملوك ، إلى جانب ضعفهم ، يمنحون الأراضى الملكية لكبار الموظفين والنبلاء والأشراف والحكام ، مكافأة لخدماتهم أو رغبة فى استرضائهم ، فيتمتع المُلاك بالامتيازات الموقوفة على هذه الأراضى ، من إعفاءات وحصانات إلخ . . حتى أصبحت وكأنها فوق القانون وفوق الملك . وكثرت المنح وكثرت الامتيازات مع مرور الزمن حتى أصبح لهؤلاء الملاك فى نطاق مقاطعتهم ما للملك من سلطان ، فكانوا يمارسون القضاء ويجمعون

الضرائب ويقومون بالتجنيد والتعبئة العامة ويقودون بجندى المقاطعة عند الحرب ، بينما لم يكد يبقى للملك وإدارته سلطان خارج حدود مقاطعته الخاصة ، أو فى غير وقت الحرب .

ولم ينقص هذا النظام شيء ، سوى أن تتهيأ له بعض الظروف لكى يتحول إلى نظام الإقطاع(٩) الصريح ، وسيتم هذا التحول فى أواسط القرن التاسع ، نتيجة لغزوات رجال الشمال Les Normands .

٣ — الحركة الانفصالية

ولابد أن نلاحظ هنا أن هذه النزعة نحو اللامركزية لم تقتصر على المدن ، بل شملت الوحدات الإدارية المعروفة بالدوقيات ، وقد نشأت عن المنح والامتيازات التى تقدم الكلام عنها . وامتدت هذه النزعة إلى المقاطعات الكبرى التى نشأت بمقتضى تقاليد المواريث فى الأسرة المالكة ، فأخذت صورتها النهائية مع اسمها الخاص ابتداء من سنة ٥٦١ ، وهى : أستراسيا Austrasie (١٠) فى الشمال ، نوستريا Neustrie ، فى الشمال الغربى ، وبينهما من جهة الجنوب برجنديا Burgondie .

وجنحت كل مملكة إلى الاستقلال الإدارى والسياسى ، حتى فى الفترات التى جمعتها فيها الأقدار تحت حكم ملك واحد ؛ وإننا لنشهد مثلا ، فى أثناء حكم الملك داجوبير Dagobert ، آخر الملوك الميرفنجيين الذين انفردوا بالسلطة على دولة الفرنجة بأسرها ، نشهد أشراف أستراسيا وبرجنديا يأبون الوحدة أو الاندماج فى نظام إدارى واحد ، ويصرون على أن تحتفظ كل مقاطعة بعُرفها وتقاليدها وموظفيها ، فلا يرى داجوبير بُدًّا من النزول على رغبتهم ، فيعين على كل مقاطعة وزيراً خاصاً مسئولا ، يتولى الحكم فيها هو حاجب القصر أو أمير القصر le Majordome ou le Maire du palais ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل اضطر إلى أن يولى ابنيه ، كل منهما على عرش إحدى المقاطعتين .

الكارولنجيون

عاجلت المنية الملك داجوبير ، وابنه الأكبر الذى كان قد أقامه ملكا على أستراسيا ما زال قاصراً ، لم يتجاوز الثامنة بعد .

وهنا شرعت الأقدار من جهة ، والعزيمة الواعية من جهة أخرى ، ينسجان نسيجهما ويحكمان خطتهما ، من غير تسرع ومن دون تهور ، حتى ظهر نتاجهما الخطير سنة ٧٥٢ ، أى بعد نيف وقرن من الزمن ، عندما أعلن حاجب القصر ببين Pépin نفسه ملكا على الفرنجة ، بعد خلع آخر ملوك الميروفنجيين .

إنها الأقدار ولا شك ، تلك التى شاءت أن يخلف داجوبير على مملكتى أستراسيا فى الشرق ونوستريا فى الغرب ، طفلان لا حول لهما ولا قوة : كما شاءت ، والأمر لا يخلو من غرابة ، أن تكون الأغلبية الكبرى من الملوك الميروفنجيين الذين توالوا على عرش الفرنجة ، من بعد داجوبير قصّراً مستضعفين ، فكان لا بد من وصىّ يصرّف أمور الدولة ويحكم باسم الملوك القاصر .

ولكنها العزيمة الواعية هى التى أحلّت أسرة ببين دوق لاندن Pépin duc de Landen محل الصدارة بين أشراف أستراسيا وكبار ملاكها ، فوقع اختيار داجوبير على عميدها ليشغل منصب حاجب القصر ، أى ليكون بمثابة رئيس الوزراء فى نظامنا الحالى ، فلم يتوان عن القيام بالدور الذى أشارت به إليه الظروف ، فكان وصيًّا ، أو قلْ إنه كان ملكاً بغير اللقب والصولجان .

ولقنت الحوادث أبناءه دروساً فى الأناة والمثابرة ، كلفتهم ثمناً غالياً :

فقد لقي ابن ببين جريموالد Grimoald حتفه فى محاولة حمقاء للاستيلاء على العرش ، فأيقن رجال هذه الأسرة أن العرش فرس شموس ، لا تسلس قيادها إلا لمن جمع إلى القوة دهاء ، وإلى العزيمة صبراً وأناة .

وأخذوا يحكمون خطة سار عليها الآباء والأحفاد بلا استثناء : عملوا على إحاطة الملوك الميروفنجيين المستضعفين بسياج ذهبي جميل ، حال دون اتصالهم بالشعب ، أو الاضطلاع بالزعامة الحقة ، يقضون فى داخله حياة ناعمة لاهية ، خيوطها المحركة بأيدى الحاجب ؛ بينما عهدوا من جهة أخرى إلى تدعيم مركزهم ، وتحويل ثناء الفرنجة وولائهم إلى أسرتهم ، بسبب ما أنجزوه من جليل الأعمال فى الداخل والخارج .

١ — أعمال أسرة ببين دوق لاندن فى الداخل

نجحت هذه الأسرة التى ستحمل فيما بعد اسم الكارولنجيين Carolingiens ، فى استتباب الأمن والقضاء على الحركات الانفصالية فى مملكة الفرنجة وتوابعها فى حدود بلاد الغال . ففى سنة ٦٨٦ ، هزم ببين دوق هرستال Pépin d'Héristal ، حاجب قصر أستراسيا وحفيد ببين دوق لاندن ، جيش نوستريا فى وقعة ترترى Tertry ، حوالى سنة ٦٨٦ ، وبهذا النصر استطاع أن يفرض سلطانه على إمبراطورية الفرنجة بقسميها ، كما اتخذ لنفسه لقب دوق الفرنجة ، وبدأ أولى خطواته تجاه العرش بأن جعل وظيفته وراثية فى أسرته . وقد تحققت رغبته ، فتوالى أبناؤه وأحفاده منصبه من بعده ، إلى أن قهروا الميروفنجيين الذين كانوا آخر عقبة فى سبيلهم إلى العرش .

تمتع الفرنجة فى ظل حكم الكارولنجيين بالأمن والرفاهية ، رغم الحروب التى خاضوها خارج الحدود الشرقية ، فى جرمانيا ؛ ولا نستثنى إلا فترتين

قصيرتين ، فى سنتى ٧١٤ و ٧٤١ ، عادت فيهما إلى الظهور الحركة الانفصالية التى واجهها ببين دوق هرستال فى مستهل مدة حكمه .

بعد موت ببين الثانى ، دوق هريستال ، سنة ٧١٤ ، ظن أشراف نوستريا أن الفرصة قد حانت ليستردوا استقلالهم ، عندما ورث الحجابة حفيدٌ لم يتجاوز بعد السادسة من عمره ؛ ولكن أشراف أستراسيا تداركوا الأمر وأخرجوا من ظلمات السجن ابناً لببين كان مطروحاً فيه بتهمة الاشتراك فى اغتيال أخيه الأكبر ونصبوه أميراً على أستراسيا ، وهو المعروف فى التاريخ باسم شارل مارتل ، أى شارل المطرقة .

وأثبت شارل جدارته بإخماد حركة التمرد والانفصال ، بعد حروب دامت خمس سنوات (٧١٤ — ٧١٩) ، فأعاد الوحدة والأمن والحياة المستقرة إلى البلاد . ولكن عند موته ، سنة ٧٤١ ، عادت نوستريا إلى مشاغباتها ، وامتنع دوق أكيتانيا عن الاعتراف بالولاء لدولة الفرنجة . إلا أنه ، لحسن حظهم ، كان ابنا شارل مارتل ببين القصير وكارلومان ، على وئام تام ، فوحدا جهودهما ، وعملا بشجاعة وحكمة على إرضاء النوستريين بمنحهم شيئاً من الحكم الذاتى ، فأعادوهم إلى حظيرة الدولة الفرنجية ، ثم أجبروا بقوة السلاح دوق أكيتانيا على الإقرار بالولاء ، وسوف يجرد ببين القصير حملة أخرى للقضاء على سلطة دوقات أكيتانيا ، فتصبح دوقيتهم مقاطعة فرنجية لا غير .

٢ — أعمال أسرة ببين فى الخارج

لاشك أن الذى أذاع صيت الكارولنجيين إلى أبعد الآفاق وثبّت خطواتهم فى طريقهم إلى العرش ، المعاركُ التى خاضوها والانتصارات التى حققها الفرنجة على أيديهم فى ميادين الحرب .

(ا) حروب الجرمان . أخذت المقاطعات الجرمانية التى أخضعها كلوفيس وأبناؤه الأوائل تسترجع استقلالها شيئاً فشيئاً ، ولا سيما فى أثناء حكم خلفاء الملك داجوبير الأطفال ، الذين عُرفوا فى التاريخ باسم الملوك الكسالى Les Rois Fainéants . فجرد دوق هرستال عدة حملات لإخضاعهم ، وأعاد سلطان الفرنجة على معظم بلاد جرمانيا الحالية . إلا أن موته ، عام ٧١٤ ، كان إيذاناً لهم بالثورة لحريتهم المسلوبة ، وذهب بهم الأمر إلى محاولة غزو أستراسيا ؛ ولكن شارل مارتل(١١) أوقفهم وهزمهم وأعادهم إلى الطاعة والولاء . ولما ثاروا مرة أخرى عند موت شارل ، سار الأخوان ببين القصير وكارلومان لمحاربتهم ، وقضوا على ثورتهم .

(ب) الغزو العربى . إن الغزو العربى الذى واجهه شارل مارتل عند مدينة بواتييه Poitiers ، عام ٧٣٢ ، لم يكن أول محاولة من نوعها للاستيلاء على بلاد الغال ؛ فقد سبقته غزوات كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تلك التى قادها السَّمْح بن مالك ، سنة ١٠٠ هـ ، وغزوة عنبسة بن سحيم الكلبى ، سنة ١٠٣ هـ ؛ وهاتان المحاولتان وما تلاهما لم تمكّن العرب من تثبيت أقدامهم جنوبى بلاد الغال(١٢) ، ولكنها لم تفل عزمهم فى تحقيق حلم طالما راودهم منذ وطئت أقدامهم أرض الأندلس ، وهو بلوغ الشام عن طريق أوروبا الجنوبية ، والاستيلاء على القسطنطينية من جهة الغرب .

وقد أغرتهم المنازعات غير المنقطعة بين دوقية أكيتانيا ومملكة الفرنجة ، كما أسلفنا ، وما استتبعها من اضطراب فى الأحوال الاجتماعية ، والاقتصادية ، فأعادوا الكرة سنة ١١١ هـ / ٧٢٩ م ، وعبر عبد الرحمن الغافقى والى الأندلس جبال البرانس Les Pyrénées ، فاستولى على مدينة بوردو Bordeaux ، ثم تقدم نحو الشمال ، مجتازاً نهر الجارون La Garonne ؛ ثم نهر الدوردون La Dordogne .

إلا أن شارل مارتل أسرع لملاقاته على رأس جيش من مختلف قبائل الجرمان ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين بالقرب من مدينة بواتييه Poitiers ، فاستمات العرب فى القتال ، واستشهد الغافقى ، وكان لمقتله صدى بالغ فى النفوس ، ففضل قواده الانسحاب ، ضناً بالدم العربى ، وخوفاً من تفريق الكلمة ، فقفلوا راجعين إلى مدينة نربون (أربونة) Narbonne ومنها إلى أسبانيا(١٣) .

وقد احتفظ العرب بإقليم أربونة ، وإقليم المدن السبع Septimania ، وكانوا قد انتزعوها من القوط الغربيين سنة ٧١٩ م ، مدة تزيد على ربع قرن ، بعد واقعة بواتييه ، « ولكنهم لم يحاولوا الاستيلاء على بلاد الفرنجة بعد هذه الموقعة . . . ولم تكن حروبهم بعد ذلك إلا غارات لا أهمية لها »(١٤) . إلى أن استولى ببين القصير ابن شارل على هاتين المقاطعتين بصفة نهائية سنة ٧٥٩ م(١٥) .

(ح) حرب اللمبارديين . إن هـذه الحرب ليست فى حد ذاتها بذات أهمية كبرى ، إذا قورنت بحروب الجرمان ، أو بالحرب العربية ، لا سيما وأنها لم تكلف الفرنجة كبير عناء ، إذ لم تتطلب من الملك ببين القصير أكثر من حملتين قصيرتين ، عامى ٧٥٤ ، ٧٥٦ ، استطاع بهما أن يرغم ملك اللمبارديين أستولف Astolf (٧٤٩ — ٧٥٦) ، على التخلى عما كان قد استولى عليه من أملاك الدولة البيزنطية ، أى منطقة بنتابوليس Pentapolis ورافنا ، فى شمال إيطاليا ، وبعض ممتلكات البابا .

دلت هذه الحروب على حاجة الكارولنجيين إلى إسناد سلطتهم إلى الكنيسة ، أكان ذلك عن صدق إيمان وعقيدة ، أم عن حنكة سياسية وبُعد نظر . ولا شك أنهم أيقنوا ، كما أيقن الملوك الميروفنجيون قبلهم ، أن لرجال الدين فى مملكتهم سلطاناً لا يستهان به ، وأنه لا بد لأى سلطة تريد أن توطد أركانها فى بلاد الغال أن تحسب للكنيسة حسابها .

وكان يتزعمهم حينئذ شلدريك من بيت ميروفيه الملكى (الفرنجة البحريين)[٢] وقد جمع بين الكهانة والزعامة السياسية ، مما أوقعه وأبناءه الميروفنجيين موقع الإجلال والهيبة من نفوسهم ، رغم ضآلة شأن الكثير منهم .

كلوفيس Clovis ٤٨١ — ٥١١

وفى هذه السنة نفسها — أى سنة ٤٨١ — مات شلدريك ونودى بابنه كلوفيس ملكا على الفرنجة الساليين (البحريين) . وكان شجاعا نشطاً محنكا ، رغم حداثة سنه ، إذ لم يتجاوز بعد العشرين . حكم الفرنجة ٣٠ عاماً ، أتم خلالها العمل الجليل الذى خلده فى نظر الفرنسيين ، وهو توحيد أشتات غاليا ، لأول مرة فى التاريخ منذ الغزو الرومانى ، فما زال الفرنسيون اليوم يعدون ذلك من أياديه التى لا تنسى .

هذه الوحدة الغاليّة ، لقد سعى كلوفيس إلى تحقيقها من الناحيتين : الناحية السياسية الحربية ، والناحية الاجتماعية .

أما من الناحية السياسية ، فقد خاض كلوفيس أربع معارك فاصلة ، انتصر فى الأولى على الغالورومان فى موقعة سواسون ، سنة ٤٧٦ ؛ وهزم فى الثانية الأللمانى فى الشرق ، رغم معاضدة القوط الشرقيين لهم ، فى وقعة تولبياك ، عام ٤٩٦ ؛ وأخضع البرجنديين فى موقعة ديجون ، سنة ٥٠٠ ؛ وأخيراً حطم سلطان القوط الغربيين وقوض مملكة تولوز Toulouse ، أو طولوشا كما سماها العرب ، فى وقعة فوييه Vouillé ، سنة ٥٠٧ .

وبما أنه كان يضم ممتلكات المغلوبين إلى أملاك الفرنجة عقب كل انتصار ، فشملت دولته عند وفاته ، عام ٥٢١ ، غالة بأسرها ، ما عدا جزء بسيط فى الجنوب الغربى — سبتمانيا وبروفانس Septimanie , Provence — بقى فى أيدى القوط الغربيين والقوط الشرقيين .

إلا بمساعدة الكنيسة ، كما أن البابوية أخذت تشعر بأن الكارولنجيين قد يكونون عند الحاجة حلفاء أقوياء أولياء مخلصين .

ذلك أن الحالة فى إيطاليا لم تكن لتبعث على الارتياح . فقد كانت الدولة البيزنطية تحكم جنوب إيطاليا والبندقية والأراضى الممتدة من شمال رافنا إلى جنوب أنكونا Ancona ، بما فى ذلك دوقية روما ودوقية نابولى ، بواسطة أرخون أو نائب ، مقره مدينة رافنا فى الشمال . ولكنها كانت أضعف من أن تحافظ على ممتلكاتها ، بل ومن أن تحفظ فيها الاستقرار والأمن ، لا سيما وأن الروح الحربية وشهوة التملك قد أخذت تدب فى عروق ملوك اللمبارديين . وقد أبدى ملكهم ليوتبراند Liutprand (٧١٢ — ٧٣٢) تصميمه على طرد البيزنطيين من إيطاليا والاستيلاء على ممتلكاتهم ، بما فيها دوقية روما . ولطالما عانت روما من الغزوات والفتوح واحتلال جيوش البرابرة والتدمير والسبى والنهب ، منذ موت الإمبراطور تيودوسيوس ، سنة ٣٩٥ ، فيئست من الحكام البيزنطيين الأجانب ، وأخذت تولى أنظارها شطر البابا ، تعلق عليه آمالها وتعتبره حاكمها الحقيق ودوقها المنقذ .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان باب القسطنطينية موصداً فى وجه البابا ، بسبب المشكلات الدينية العديدة التى كانت قائمة بين الكنيسة الرومانية والكنيسة البيزنطية الموالية للإمبراطور . وقد زاد الموقف توتراً إصدارُ الإمبراطور ليو الأيسورى مرسوم اللاأيقونية ، الذى يقضى بتحطيم الصور الدينية فى أنحاء الإمبراطورية ، واضطهاد من يحترمها ويقدسها ، فلم يسع البابا جريجوريوس الثالث إلا أن يتحداه بإصدار قرار الحرمان ضد اللاأيقونيين .

وقد كان فى وسع البابوية أن تتجنب خطر اللمبارديين قبل تفاقمه بالتحالف معهم . . ولكن اتضح لها أن اللمبارديين لا يضمرون لها خيراً ،

وأنهم إذا ملكوا إيطاليا سوف لا يحسبون لأى سيادة أخرى حساباً ، وسوف تصبح البابوية أسقفية لمباردية مغلولة الأيدى ، شأنها فى ذلك شأن الكنيسة البيزنطية .

كل هذه الأسباب مجتمعةً ، دفعت البابوية دفعاً إلى أن تستعين على اللمبارديين بملوك الفرنجة ، فبدأت المفاوضات فى سنة ٧٣٩ ، فى أيام شارل مارتل ، وتدانى الطرفان بعد أن أفتى البابا زكريا بشرعية خلع الميروفنجيين « الكسالى » وارتقاء الكارولنجيين عرش الفرنجة مكانهم .

فلا عجب أن يلبى الملك بيبين القصير نداء البابا استيفانوس الثانى Stephanus ، وكان يتوجس خوفا من خطر اللمبارديين على دوقية روما ، سنة ٧٥٢ ، ثم ٧٥٤ ، فعبر جبال الألب Les Alpes واضطر اللمبارديين إلى التخلى عما كانوا قد استولوا عليه منذ موت الملك ليوتبراند ، ليهبه « لكرسى القديس بطرس » .

ومهما يكن من أمر هذه الهبة ، ومهما قيل فى سبيل تأييد شرعيتها أو نقضها ، فإنها ، بصرف النظر عما أضافته إلى دوقية روما من أراضى ، قد أكدت السلطة الفعلية التى تمتع بها البابوات منذ أن أشرفوا على شئون روما ، وبصفة خاصة ، منذ أن امتنعت بيزنطة عن تعيين دوق لمقاطعة روما .

وهذا اعتراف منها أيما اعتراف ، بالأمر الواقع ، أى بسلطة البابا الزمنية .

شروح وتعليقات

(١) نودى بيوليانوس امبراطورا سنه ٣٦١ م ، وقد عرفه التاريخ بلقب « المرتد » لأنه تنكر لدينه ، المسيحية ، مرتدا الى الوثنية . وعمل بنشاط على ترويجها ، وهو ابن أخى الامبراطور قسطنطين !..

(٢) راجع ما تقدم عن الفرنجة فى الباب الرابع منهذا الكتاب، ص ٨٣ .-

(٣) روى المؤرخ جريجوار دى تور Grégoire de Tours ، المتوفى سنة ٥٩٤ م ، أن بعض الجنود الفرنجة نهبوا من احدى الكنائس ، فى أثناء معركة سواسون ، وعاء مقدسا من التى تستعمل فى الطقوس الدينيه . فلما طلب الأسقف القديس ريمى من كلوفيس اعادته، وافق الجند على ذلك الا واحدا، فحطم الاناء بسلاحه صارخا فى وجه الملك . « لن تأخذ من الغنائم الا حصتك التى ستحددها القرعة » . فلما كانت السنة التالية ، بينما كان كلوفيس يستعرض الجيش ، اذا به وجها لوجه أمام الجندى الثائر ، فقال له مغضبا . « لم أر قط جنديا مهمل السلاح مثلك » ، ثم قذف بسلاحه الى الأرض . فما كاد الجندى ينحنى لالتقاطه حتى هوى الملك بفأسه الحربية على رأسه ، فهشمه وهو يقول : « هكذا فعلت باناء سواسون » .

(٤) يرى المؤرخ فردينان لوت أن كلوفيس لم يلجأ الى انتزاع ملكية الأرض من الغالورومان ، لأن شعب الفرنجة لم يكن فى حاجة اليها بعد أن تم استيطان الفرنجة البحريين والنهريين فى شمال بلاد غالة وفى شمالها الشرقى ، فاكتفى كلوفيس بالاستيلاء على الأراضى التى كانت ملكا للدولة الرومانية ، وكانت واسعة الأرجاء .

راجع Ferdınand Lot: La France des Origines à la Guerre de Cent Ans, P. 62.

قارن : Histoire Universelle, sous la Direction de R. Grousset, 1, p. 1324.

(٥) وسوف تؤدى هذا التآلف الذى وضع كلوفيس لبناته الأولى الى خلق القومية الفرنجية التى تظهر بجلاء منذ القرن الثامن الميلادى .

كان الغالورومان ، وهم السواد الأعظم من سكان غالة ، يعتبرون أنفسهم مواطنين للدولة الرومانية ، وقد أنستهم الظروف أصلهم الكلتى ، بل ولغتهم ذاتها وتراثهم ، بعد أن قبلوا حضارة روما وثقافتها ولغتها ، واعتنقوا الكاثوليكية الرومانية .

ولكن سقوط روما عام ٤٧٦ ، وانزواء الامبراطور فى القسطنطينيه ، قلل من شعورهم بالانتماء الى الدولة الرومانية ، لاسيما وأنهم كانوا مخاطبين بدويلات آريوسية معادية . فلما كان غزو الفرنجة ، زاد بوترهم أول الأمر ، ولكنه ما لبث أن انقشع ، لما أبداه كلوفيس من احترام بالغ لمقوماتهم العنصرية ، فلما تزوج الملك من كلوتيلد الكاثوليكية ، ثم لما تحول هو وكبار الفرنجة الى الكاثوليكية الرومانية ، لم تعد ما تفصل بين الشعبين ، فتوثقت الروابط بالمصاهرة ، وبتوليتهم الوظائف الكبرى فى البلاط والجيش وادارة المدن . حتى ليقول (لوت) فى كتابه المتقدم الذكر أنهم أخذوا ينسون أصلهم ويبدون أسماءهم الرومانية ، كما نبذ أجدادهم الأسماء الكلتية منذ أكثر من ٦ قرون مضت ، واعتبروا أنفسهم فرنجة أصليين ، وساد هذا الاعتقاد بين العامة والخاصة الى عصر الملك لويس الرابع عشر ، فى القرن السابع عشر الميلادى .

(٦) يجب أن نلاحظ أن فكرة الدولة لم تكن قد شقت طريقها بعد الى عقول هؤلاء المبربرين ، بل كانت تقاليد الفرنجة البحريين تنظر الى الأرض التى يمتلكها الأب ، كأنها غنيمة من الغنائم ، يجرى عليها التقسيم والتوزيع على الورثة كما يجرى على سائر أمواله المنقولة .

(٧) وقد حفظ لنا التاريخ أخبار ملكتين هما : فريدجوند Frédégonde وبرونهو Brunehaut ، استأثرت بهما الغيرة وشهوة الحكم ، واستبدت بهما نزعة عتية للانتقام والثأر ، فكانت فترة ظهورهما على المسرح السياسى ، من سنة ٥٦٧ الى سنة ٦١٣ م ، سلسلة من المؤامرات والاغتيالات والحروب التى دارت رحاها بين الأخوين شلبريك Chilpéric وسيجبير Sigebert ملكى نوستريا واسترازيا ، وبين أبنائهما من بعدهما .

(٨) من كلمة Comes اشتقت كلمة Comte ، وسيأتى الكلام عن هذا اللقب وعن الوظيفة التى ستناط بحامله .

(٩) يرى ألفونس فيتو Alphonse Vitault أن اللبنة الأولى لنظام الاقطاع وضعت فى مجمع باريس ، سنة ٦١٤ . كان حينئذ تيرى الثانى Thierry II يتأهب لمحاربة كلوتير الثانى Clotaire II ملك نوستريا ، عندما فاجأته المنية . وبموته انفجرت الأحقاد المكبوتة ضد جدته برونهو (أنظر فى الشروح رقم «٧») ، فخذلها أشراف أستراسيا — وكان من روادهم ببين دوق لاندن (أنظر فيما يلى الباب السادس) ، بينما انتهى الأمر بأشراف برجنديا بأن سلموا الجدة وابن حفيدها الى عدوهم اللدود كلوتير الثانى ، فقتلهما صبرا وتعذيبا ، سنة ٦١٣ م .

ولكن الأشراف وضعوا شروطا لولائهم ، وأعلنوها فى مجمع باريس ، سنة ٦١٤ ، وارغموا الملك كلوتير الثانى على الاعتراف بها فى مرسوم سنة

٦١٤ Edit de 614 • وأهم ما حاء فى هذا المرسوم ما يلى •

١ ـ أنه لا يجوز للملك تعيين الكونت ـ أى حاكم المقاطعة ـ الا من كبار الملاك وأشراف المقاطعة ذاتها ،

٢ ـ أن كل صاحب اقطاع ملزم كذلك باختيار القاضى Le Juge ، وهو من كان ينوب عن الكونت فى تصريف شئون المقاطعة وفى النظر فى القضايا ، من دائرة مقاطعته •

ونتيجة لذلك ١) انحصر دور الملك فى المقاطعات على اقرار النبيل الذى تؤهله لمنصب الكونت ثروته وسعة أملاكه وعدد مواليه من صغار الأشراف والملاك والفلاحين ،

٢) اتحدت فى شخص واحد صفة ملكية أرض المقاطعة وصفة مباشرة السلطات فيها ، سواء بنفسه أو بنوابه •

ولا عجب ان كان ولاء مثل هؤلاء الكونتات للملك مجرد ولاء شكلى ، بسمة تغيب الكلمة العليا لمصلحة مقاطعتهم ، أى لمصلحتهم الشخصية ، لا لمصلحة المملكة •

(١٠) بدأ المؤرخ جريجوار دى تور (أنظر الشرح رقم ٣) يستعمل هذا الاسم سنة ٥٧٧ للدلالة على مملكة متز Royaume de Metz ، لتمييزها عن مملكه نوستريا التى كانت عاصمتها مدينة باريس •

(١١) تعتبر شارل مارتل Charles Martel ، ابن ببين هرستال ، المؤسس الثانى لدولة الفرنجة • لم يتخذ لقب الملك لكنه اعتبر نفسه صاحب السيادة العليا على جميع ممالك الميروفنجيين ، وجمع فى يده سائر السلطات ، مع اكتفائه بلقب Majordome أى حاجب القصر •

(١٢) عبر والى الأندلس ، السمح بن مالك الخولانى ، جبال البرانس ، عام ١٠٠ هـ ، وتقدم فى مقاطعتى سبتمانيا وبروفنس ، ولكن يودو ، دوق أكتانيا ، سار اليه فى جيش عظيم ، واستعر القتال بالعرب من تولوز (طلوشة) ، فاستشهد السمح مع كثير من رفاقه ، وعاد قائده عبد الرحمن الغافقى بالجيش الى مدينة نربون Narbonne (أربونة) ، سنة ١٠٢ هـ •

وأعاد الكرة الوالى عنبسة بن سحيم الكلبى ، سنة ١٠٤ هـ ، حتى بلغ مدينة ليون Lyon ، فى برجنديا ، واستولى عليها • ولكن مقتله وضع حدا لتقدم الجيش العربى ، فعادوا الى نربون سنة ١٠٧ هـ •

(١٣) يرى المؤرخ العربى الكبير ، الدكتور حسن ابراهيم حسن ، أن الغنائم التى حشدها العرب المسلمون فى أثناء زحفهم على أكيتانيا ، هى التى تسببت فى انهزامهم • قال : « وكاد النصر يتم لهم لولا ما أشيع فى

صفوفهم من أن ما جلفوه من الغنائم قد نهبه العدو . فهرول الجند لحمايتها ، ووقع الاضطراب في صفوفهم .. » (تاريخ الاسلام السياسي) صفحة ٤٩٠ .

وقد سمى العرب وقعة بواتييه وقعة بلاط الشهداء .

(١٤) (تاريخ الاســلام الســياسي) ، للدكتور حسن ابراهيم حسن ، ص ٤٩٠ .

(١٥) ومما يثير الدهشة حقا أن نقرأ للمؤرخ الفرنسي فردينان لوت هذه العبــارة . « يبــدو كأن سكان سبتمانيا وبروفنس كانوا يفضلون العرب على الفرنجة » .

La France des Origines ... P. 66.

(١٦) أنظر الى الباب الثالث ، ص ٥٩ .

التراث الحضارى

فى

عشرة قرون



الفصل السابع

الحضارة الرومانية

الموجز :

تمهيـــد : اقتران ظهور الحضارة بالأودية والطرق

التاريخ الحق هو تاريخ الحضارة .

الحضارة الرومانية فى أوجها : الآثار المادية .

الآثار اللغوية والثقافية .

القانون والتنظيم الإدارى .

التـــدهور : الإمبراطورية العسكرية .

سوء تصرف الدولة إزاء المتبربرين .

الحضارة الرومانية بعد سقوط روما .

الكنيسة اللاتينية

وريثة روما فى الغرب : نهاية وبداية

الأسقف .

أرستقراطية الفكر والكنيسة .

على مفرق الطرق .

تمهيد

اقتران ظهور الحضارة بالأودية والطرق

إذا تتبعنا قصة الحضارة وتاريخ ظهورها على الأرض ، راعنا أن نجدها مقترنة دائماً بطرق المواصلات ، أكانت أنهاراً تربط بين البلاد ، نائيها ودانيها ، وتوصلها بالبحار ، أم مسالك برية ، تعبُر منها قوافل التجار أو جماعات الحجاج .

وبدهى أن ظاهرة كهذه لا يمكن أن تعزى لمحض الصدف : إن الإنسان المنعزل فى الأحراش ، المنطوى على أفراد عشيرته الأقربين ، ما زال إلى يومنا ، فى أسفل دركات الحضارة ، رغم مرور أكثر من ستة آلاف سنة على تاريخ المدنية المعروف . لذلك ، فإن أساتذة الحضارة يعتبرون من البديهيات التى لا يتطرق إليها الشك المبدأ القائل بأن الإنسان لا يتحضر إلا إذا تحرر عقله من المادية ؛ والسبيل إلى تحرر العقل أن يخرج الإنسان من دائرة جسمه الضيقة ومن أنانيته الخانقة . . وليس أدعى إلى ذلك من وديان الأنهار ومصابها الخصبة ، أو من الطرق ، لما تمهد له أسباب المعرفة والتبادل والاختلاط المثمر .

لقد أشبعت الطرق وأودية الأنهار حاجات الإنسان الأولية ، فحررت عقله ، ثم جعلته يشعر بحاجات جديدة ، شحذت قريحته ودفعته فى سبيل تحقيقها ، إلى تسلق معراج الحضارة .

شرع الإنسان فى التمدن يوم أن فطن إلى وجود الأرض وتوثقت الصلة بينهما ، فانحنى فى عطف يتعهدها بكل أنواع العناية ، وراحت هى تتفتح له عن خيراتها ، تطمئنه على قوته ، قوت يومه وقوت غده ، فإذا به يشعر بوجود عقله ، العقل المستقل عن المادة ، المميز عن الحيوان ، العقل الخلاق

الذى هو صورة الخالق فى الإنسان . وإذا بالطبيعة بأسرها تطمع فى صداقة الإنسان المفكر ، تُسِرّ إليه بمكنونها شيئاً فشيئاً ، وتتنازل له عن مقاليدها يوماً بعد يوم ، فيزداد استعداداً لتنمية عقله وتكوين شخصيته كلما ازداد اطمئناناً على صداقة الأرض والطبيعة له .

وخطا الإنسان خطوة أخرى فى مضمار الحضارة يوم أن تنبه إلى وجود الإنسان ، أخاً وشريكاً إلى جواره ، لا غريماً أو مزاحماً أو منافساً ؛ ثم تتوثق الصلة بين الإنسان والإنسان ، فإذا بأواصر الأسرة تسمو ، وإذا بروابط القبيلة ثم الأمة تقوى ، وإذا بالإنسان يتخلى عن أنانيته وفرديته ليندفع فى غمار المجتمع ، صغيراً كان أو كبيراً ، بقدر ما له فيه من حقوق ، وما عليه من واجبات .

وها هوذا الإنسان يهتدى إلى معرفة الزمان بحلقاته الثلاثة ، فإذا به يدرك معنى الماضى ، ومعنى التراث القومى والإنسانى الذى آل إليه من غير فضل منه ولا عناء ، أكان تاريخاً أو تقاليد ، أو أمجاداً أو خطوباً أو عِلماً أو أدباً أو فناً أو قِيَماً . . . وإذا به يشعر بمكانه من هذه الإنسانية الخالدة المتجددة ، حلقةً لا بد منها ولبنة لا غنى عنها .

ولعل أكبر خطوة خطاها الإنسان ، يوم أن هداه الخلق إلى الخالق والبريئة إلى البارئ ، فأخذ يدرك نوع العلاقة التى تربطه بالله عز وجل ، وسار ينقِّح معرفته ويزكى إدراكه ، مستعيناً بالمصلحين والأنبياء الذين مسهم نور من عند الله ، فكان لهم أكبرُ الأثر فى تعرف الإنسان بنفسه معرفة حقة ، مبنية على معرفة الله وإدراك علاقته به ؛ وكانت هذه المعرفة وهذا الوعى المحركَ القوى الذى دفع الإنسان قدماً فى مضمار الحضارة ، حضارة الروح والقلب والأخلاق .

وأخلصُ من هذا الكلام إلى أمر لا خلاف فيه ، وهو أن الحضارة ما هى فى النهاية إلا وسيلة ، وسيلة إلى رقى النفس وتحرير العقل . هذا هو

المحك والميزان . وإذا اقتضت الحضارة تمهيد وسائل الاتصال بالكون ، فلا ينبغى أن يُفهم من هذا الكلام أن الكون ومعرفته وتعزيز إمكانيات التحكم فيه ، هو الهدف المنشود من الحياة الإنسانية ... إن كل هذا لا يخرج عن أن يكون بدوره مسلكا وطريقاً للتعرف على كياننا وشخصيتنا ، ولإدراك منزلتنا إزاء الكون ، أو داخله ، فنعمل بمقتضى هذه المعرفة على استكمال الصورة الإنسانية التى رسمها لنا الخالق عز وجل .

التاريخ الحق هو تاريخ الحضارة

لقد قدمنا بين يدى القارئ فيما سبق من فصول هذا الكتاب ، لمحات من حضارات عديدة متباينة ، جاءت متفرقة فى خلال سرد الحوادث التاريخية التى ارتبطت بظهورها ؛ ولا جرم ، فإن شخصية الأمم تتكون وتنضج أثناء تفاعلها مع ظروف البيئة وشخصية الأمم الأخرى .

وقد حان لنا أن نجمع فى هذا الفصل أبرز معالم هذه الحضارات وأجل المكاسب المعنوية التى حققها الإنسان ، نقصد من قبيل التحديد إنسان البحر المتوسط ، فى أثناء القرون العشر التى تتبعنا فيها تاريخه ، لنجيل النظر فيها : إنها من أجل ما يستهوى التفكير والبحث : فمادة التاريخ هى الإنسان الخالد ، الباقى الذى تدأب فى بنائه ، بل وفى تجديد شبابه ، كل أمة ناهضة فى كل جيل من أجيالها ؛ وليس مهمة المؤرخ سوى عملية استجلاء نفس الإنسانية ، واستخلاص معدنها الثمين من شوائب الظروف والملابسات والحوادث .

ولكن لا ينبغى أن نقصر عملنا على استعراض عقيم لا يفيد إلا الفضول : يجب أن نتجاوزه إلى مرحلة التحليل ، للاهتداء إلى مقومات كل حضارة ، والعثور على عناصرها الأصيلة والمقتبسة ، ثم لتحديد محلها من النفس الإنسانية التى ابتكرتها .

وعندئذ ، سوف تجتمع لدينا وسائل التقييم ، فيصبح من اليسير بمكان

إصدار الأحكام فى مدى صلاحية الأدوات الحضارية لترقية النفوس وتحرير العقول ، واستكمال الصورة المثلى للإنسان الخالد .

ولا نرى أخيراً أنه من فضول القول التنبيه إلى وجوب التزام الحذر فى معالجة هـذا الموضوع . فيتعين علينا أولا وضع الحضارات فى سياقها البيئى والتاريخى الصحيح ، قبل إرسال الحكم وتقرير الرأى ؛ ثم ، إذا كانت بعض أساليب الحضارة أرقى من البعض الآخر ، لأنها أدنى إلى بناء الإنسان الكامل ، فإنه من المسلم به كذلك أن أى نظام لا يمكن أن يصلح لأية أمة فى أى مكان وزمان . وحسبنا أن تكون الوسائل الحضارية ناتجة عن وعى حضارى صادق ، وملائمة للظروف الخاصة التى تجرى فيها حياة الأمة .

ميدان البحث . ونختتم هذا التمهيد الطويل بالإشارة إلى المجال الذى يدور فى نطاقه البحث الحضارى .

لا شك فى أن جميع أوجه النشاط الإنسانى تصلح لأن تكون مادة لهذا البحث ؛ ولكن منها ما هو أخصب وأغزر ، وفى مقدمتها النظم الاجتماعية Les Institutions ، كنظام الحكم ، وأساليب الإدارة ، ومجموعة الشرائع التى تقرر الحقوق والواجبات ، ونظم التجارة والتعاقد والقضاء ... إن النظم هى بمثابة المرآة العاكسة لنظرة الأمة إلى الكون وفلسفتها فى الحياة ، كما أنها القالب الذى يجرى بداخله تشكيل الأجيال الناشئة وإعدادها للمستقبل .

وإلى جانب النظم ، ينبغى أن نذكر أهمية دراسة الاتجاهات والتيارات العامة والنزعات الجماعيـة التى تتمثل فى الحركات السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية .

ولا يسعنا أخيراً أن نهمل الدور البالغ الذى يلعبه العباقرة والأبطال فى مختلف الحقول ، بما يبثونه من الأفكار ويطلقونه من الطاقة القومية الكامنة .

الحضارة الرومانية فى أوجها

ليس من اليسير إحصاء المكاسب المعنوية والمادية التى تدين بها الحضارة الإنسانية لروما ، بسبب كثرتها وشمولها ؛

فمن مظاهر التراث الرومانى ما هو واضح جلى ، سواء أكان :

١ — فى المحيط المادى ، كالطرق وملحقاتها الهندسية من قناطر وجسور ومصارف ، أو المنشآت العامة من سقايات وملاعب وحمامات وقصور وأسوار ، أو النقوش البـارزة والتماثيل ، وباقى أعمال النحت والتصوير والفسيفساء التى تزخر بها متاحف العالم الشهيرة ؛

٢ — أم فى المحيـط المعنوى ، كالتراث الأدبى ، من شعر ونثر بمختلف فنونهما ، وعامة التراث الثقافى من تاريخ وفلسفة وأخلاق . . .

ومن مظاهر هذا التراث ما هو خفى ، لا يُلفى بأسراره إلا بعد التحرى والتمحيص ، كالتراث القانونى والإدارى ، والتراث اللغوى .

وسنحاول فيما يلى إلقاء نظرة سريعة على بعض جوانب هـــذا التراث على سبيل التمثيل لا الحصر .

١ — الطرق : قال ر . ك . بوازنكيه R . C . Bosanquet : « وتعتبر الطرق أعظم ما خلفته الإمبراطورية الرومانية : فلقد اندثرت المدن وجفـَّت قنوات المياه ، ولكن الطرق بقيت تحمل حركة النقل فى العصور الوسطى ، بالرغم عما لحقها من تآكل وإهمال . ولما كانت مواقعها قد أحسن اختيارها فإن كثيراً منها ما زال يستخدم حتى اليوم[١] » .

ولقد سبقت روما فى العناية بالطرق دولٌ استعمارية كثيرة : فبينما انصب اهتمام فينيقية وقرطاجة على الطرق البحرية ، فأنشأت لها الأساطيل التجارية والحربية ، طمع الإغريق فى الاستيلاء على طريق الحرير(٢) فى الشرق واستغلال تجارته لصالحهم . أما الرومان ، فوجهوا عنايتهم إلى طرق الغرب . فامتدت متشعبة من روما إلى إيطاليا ، جنوبها وشمالها ، ثم إلى غالة وأسبانيا وجرمانيا ؛ ثم ، بعد فتح بلاد الشرق ، تم لهم ربط شِقّىْ حوض البحر المتوسط بسلسلة من الطرق فريدة من نوعها ، من حيث الامتداد والشمول والإتقان .

وكان غرض الرومان الأول إستراتيجياً وإدارياً : لذلك عملوا على إزالة كل ما من شأنه أن يعوق الرسل أو الجيوش فى سرعة أداء مهمتهم ؛ فامتازت طرقهم بالاستقامة العجيبة ، وبالتالى ، بالأعمال الهندسية العديدة التى أنشأوها لتلافى العقبات ، كشق الممرات فى التلال ، وحفر الأنفاق لتصريف المياه أو لتحويل البحيرات ، وإقامة الجسور عبر الوديان . . . ولا يتسع المقام للإشادة بما اتصفت به طرقهم ومنشآتها الهندسية من متانة وإحكام وفن هندسى وإتقان(٣) .

لكن الأغراض العمليـــة الواقعية لم تحُلْ دون أداء الطرق الرومانية وظيفة أسمى وأرفع : فبواسطتها تم نقل الحضارة ونشر المعرفة وتبادل العادات والتقاليد والنظم ، بالإضافة — أو بواسطة — حركة الجيوش والموظفين والتجار والمستعمرين ، عبر الإمبراطورية المترامية الأطراف .

ولا نستطيع بطبيعة الحال تناول الهندسة المعمارية الرومانية بالتفصيل ، وحسبنا التنويه بفضل المهندسين الرومان فى استخدام العقد L'Arcade ، وأكبر الظن أنهم اتخذوه عن الأترورين ، إلا أنهم أدخلوا تحسينات واسعة فى طريقة استخدامه ، أدت بدورها إلى ابتكار القبو La Voûte ، سواء البسيط المستطيل الذى على شكل قاع السفينة المقلوب La Nef (من اللاتينى : Navem

أى السفينة) ، أو القبو المتداخل الناتج عن تقاطع عدة قباء ، أو القبو الدائرى . وقد توصلوا باستخدام العقد إلى إقامة القناطر والجسور والسقايات العالية[٤] الضخمة لجلب مياه الشرب من مسافات بعيدة ، والمدرجات الشهيرة[٥] والحمامات وأقواس النصر . . كما أدى بهم ابتكار القبو إلى تشييد القصور ذات الأبعاد الكبيرة ، بفضل تمكنهم من تسقيف الفراغات الواسعة .

ونلمح أخيراً إلى استخدامهم النقش البارز الإغريقى فى تصوير التاريخ[٦] وإلى ابتكارهم التمثال النصفى ذى الأكتاف المغطاة بالثياب .

٢ — وإذا كانت الطرق والمنشآت العامة الرومانية من أبرز مظاهر الحضارة الرومانية المادية ، فإن آثارها اللغوية والثقافية والقانونية لتعد من أكثر مآثرها شيوعاً وانتشاراً .

(١) الآثار اللغوية

إنها تتجلى فى اللغات الأوربية الغربية ، ومعظمها تفرع من اللغة اللاتينية : اللغة الإيطالية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية والرومانسية[٧] .

والطريف فى قصة انتشار اللغة اللاتينية وتفرعها إلى اللغات الرومانسية المختلفة ، أن هذه العملية تمت بواسطة الجيوش ، لا بحد السيف ، أو تحت ضغط السلطات ، لكن عن طريق الاقتباس والمخالطة والاتفاق غير المقصود : فلا غرابة إذا جاءت هذه اللغات مفارقة للغة الكلاسيكية ، لأن لغة الاشتقاق كانت اللغة العامية ، لغة الجيش الرومانى الذى كاد يكون وقفاً على الأجناس غير اللاتينية ، وكثيراً ما كانت غير إيطالية ، فكانت معرفتها للغة اللاتينية لا تتعدى دائرة الاستعمال اليومى ، ولا تبالى أن تتعثر بقواعد النحو أو بأساليب البلاغة .

وقد احتفظت اللغات الرومانسية بالكثير من الترابط بينها ، وساعد على ذلك أمران : اتخاذ الكنيسة الرومانية اللاتينية كلغة رسمية تُدرّس على نطاق

واسع وتستعمل فى بعض المحافل والمجالس الدينية ، ثم دراسة اللغة اللاتينية ضمن برامج التعليم الكلاسيكى ، والاعتماد عليها فى استنباط الألفاظ العلمية للوفاء بحاجات العلوم المتطورة المتجددة .

وقد أدى التطور بهذه اللغات إلى أن أصبحت لغات عالمية ، ذات مزايا حضارية لا تنكر ، يتحدث بها اليوم نصف شعوب العالم المتمدن[٨] ، وهم متأثرون عن وعى أو عن غير وعى ، بعقلية أصحاب اللغة اللاتينية الأم .

(ب) الآثار الثقافية

إنها كنوز من الفكر والعاطفة وجمال التعبير ، استمدتها أوروبا من :

١ — الشعراء الرومان ، وأعظمهم فرجيل Virgilius M. ، ثم هوراس Horatius F. ، ثم أوفيد Ovidius N. . وقد كتب سيريل بيلى : « إن صور الشعر الرئيسية ، وهى شعر الملاحم وشعر الحكم والشعر الغنائى وشعر الرثاء والشعر المسرحى ، قد انتقلت إلى روما عن طريق اليونان التى ابتدعتها ، وجاءت معها القوالب الشعرية التى وجدتها اليونان مناسبة لكل منها » . وبعد أن قال إن الشعر الرومانى تطلع إلى محاكاة النماذج الإغريقية ، وأبرزها فى لغة من خصائصها القوة والفخامة ، أردف قائلا : « وقد انتقلت هذه الصورة إلى أدب أوروبا الحديثة دون تغيير ولا محاولة للخروج عليها ، والأوزان ذاتها ظلت متبعة إلى حد كبير[٩] » . . وقد اقتدى بفرجيل أصحاب الملاحم ، من أمثال دانتى Dante ، وملتن[١٠] Milton ، كما كان سنيكا Seneca قدوة لكتّاب المأساة فى إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، وبلاوتس Plautus وتيرانس Terentius ، لكتّاب الملهاة .

٢ — كتاب النثر ، وفى مقدمتهم الخطيب المصقع وصاحب الرسائل والمقالات الأخلاقية والسياسية الذائع الصيت ، شيشرون Cicero .

ولكننا قد تدهش لخلو التراث الرومانى من التأملات المجردة فيما وراء الطبيعة ، وهى أساس الفلسفة الإغريقية ومصدر قيمتها الفريدة[١١] . ومرجع هذا النقص النزعة العملية التى عرف بها العقل الرومانى ، ففضّل البحث فى مجال تطبيق النظريات على تعمق التفكير فى النظريات ذاتها . لذلك ، استعاضوا عن الفلسفة النظرية بفلسفة السلوك الفردى والاجتماعى (الأخلاق والسياسة) ؛ ولم يؤثر عنهم أى جديد فى مضمار العلوم الرياضية البحتة ، لكنهم أبدعوا أيما إبداع فى العلوم الهندسية المعمارية ؛ ولم يبرعوا فى التآليف الطبية ولا فى الطب ذاته ، فكان أطباؤهم من الإغريق ، لكنهم اخترعوا المستشفيات فى المدن والخدمات الطبية التابعة للجيوش فى الميدان ، وأنشأوا المدن على أرقى الأساليب الصحية ، كما يلاحظ ذلك من عنايتهم الفائقة بمياه الشرب ، ومن إنشائهم المجارى وقنوات الصرف المتقنة التى ما زال بعضها قائما إلى اليوم .

وقد عنوا كذلك بالتاريخ ، وفاقوا الإغريق من حيث قيمة الحدث التاريخى ، ولكنهم لم يأبهوا إلا قليلا بفلسفة التاريخ أو بمشكلة الأسباب ، ولعل سالوست Sallustius وتيت ليف T. Livius مما أصدق صورة للمؤرخ الرومانى[١٢] .

(ج) القانون والتنظيم الإدارى

يبدو أن الرومان طبعوا على خصلتين متناقضتين : إحداهما تقديس النظام ، والأخرى الإباء والاعتزاز بالنفس . فتراهم إذا أخضعوا كل جوانب حياتهم لتقاليد صارمة وتنظيمات دقيقة شاملة ، أصروا قبل كل شىء على أن تكون إرادة الشعب الذى يخضع ويطيع ، هى مصدر القانون ، وفى الوقت نفسه ، مصدر الإلزام فيه . وقد ذهب الغرور بالأشراف إلى الظن أنهم هم السادة ، وأن العامة ليس لها سوى الامتثال والطاعة : فخاب ظنهم ، وإذا بالعامة

تهبُّ رجلا واحداً ، ينظمون صفوفهم ويختارون نقباءهم التريبيون ، ولم تهدأ لهم ثائرة ، إلا باعتراف الأشراف بحقهم فى الاشتراك فى إدارة المدينة وتولى السلطات وشغل أرقى المناصب التشريعية والإدارية .

وكان اعتماد الرومان فى تطوير نظمهم على القانون لا على الأشخاص ؛ فلم يرتضوا منح السلطات الاستثنائية الدكتاتورية إلا نادراً ، لحل أزمة مستعصية أو لانتشال المدينة من خطر داهم ؛ وذلك لم يحدث إلا فى حدود معينة ، ولفترة من الزمن وجيزة محددة .

الواقع أنهم كانوا يتوجسون خوفا من تعسف الفرد المنوطة به السلطات العليا ، فدفعهم هذا الشعور إلى إلغاء الملكية ، ثم إلى اختراع النظم الكفيلة بكبح طموح الحاكم الفرد ، فخلقوا مبدأ الازدواج فى الوظائف الكبرى ، ثم جعلوا المناصب العامة خاضعة للانتخاب ، وحددوا لها مدتها ، فكانت فى الأغلب لا تزيد على سنة واحدة .

ثم إنهم أدركوا بذكائهم الواقعى أن نظمهم — نظم المدينة — ينبغى أن تكون حية متطورة . فتراهم منذ صدور الألواح الإثنى عشر ، سنة ٤٥١ — ٤٥٠ ق م ، إلى عهد جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٦ م) — وهو واضع القانون فى صورته الحديثة المرنة التى قامت عليها شهرته[١٣] ، ما زالوا يجيلون فيه يد الإصلاح والتعديل ، كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، خلال هذه القرون العشر المتتالية ، تحت تأثير الدراسات القانونية ، ونظم الشعوب المغلوبة وتقاليدها .

وقد أرجع شيشرون سر نجاح القانون الرومانى إلى أنه كان يجمع بين النظم التقليدية الثلاثة : الملكية فى الحكام ، والأرستقراطية فى مجلس الشيوخ ، والعنصر الشعبى فى الجمعية الشعبية (الكوميتيا كورياتا Comitia Curiata) .

وقد حقق الدستور غرضه طالما بقيت السلطات منفصلة ، تتوازن وتتآز .

ولكن كثرة الحروب وضخامة الفتوح التى سادت القرن الثانى السابق للميلاد ، أدت إلى فقدان التوازن وإلى إيجاد حالة من التنافس بين الفرد والجماعة ، للاستئثار بالسلطات والانفراد بمزاياها ، انتهت آخر الأمر برجحان كفة الفرد ، فكانت الإمبراطورية .

وكثيراً ما ردد المؤرخون أن روما الدولة أبت إلا أن تحكم العالم بنظم وقوانين روما المدينة . لعل الرومان عجزوا عن أن يتصوروا العالم إلا كأنه مدينة كبرى ، لا تستقر أمورها إلا إذا سارت على نمط المدينة المثلى ، روما . الواقع أنه فاتهم الشعور بوجوب توفر روح الوحدة العضوية بين الأقطار المفتوحة ، هذه الروح القائمة على التضامن والتكامل فى شئون الأمن والسلم وتوزيع الخيرات وتحمل الأعباء . . هذه أمور تتضاءل فى معالجتها أنجح النظم المحلية ، لأن الوحدة العضوية غالباً ما تكون متحققة فرضاً فى بيئة المدينة ، فلا تسعى النظم إلى معالجتها .

هذا التقصير الإدارى هو المسئول الأول عن الاضطراب الذى أصاب العلاقات بين الهيئات العليا فى روما ، وأدى أخيراً إلى القضاء على النظام الجمهورى ، لحساب نظام الحكم الفردى الدكتاتورى بتولى قيصر أوغسطس السلطة العليا Imperium ، بصفة دائمة .

التدهور : الإمبراطورية العسكرية

واستسلمت روما وإيطاليا وأسلست قيادها ، لأنها وجدت فى ظل الإمبراطورية النظم التى كانت تفتقر إليها . ولكنها دفعت الثمن غالياً : فلم تقنع الدكتاتورية الجديدة بما دون الحريات الديموقراطية التى كانت موضع فخر الرومان وإعجاب العالم .

إن هـــذا الاستسلام لأمر خطير له مغزاه ، وهو أن القيم الرومانية القديمة كانت فى طريقها إلى الاضمحلال والإندثار . وهذا التقهقر الذى نلمسه

فى تاريخ الإمبراطورية له قصته الطويلة ، التى كتبت أولى صفحاتها المظلمة فى أعز أيام الجمهورية ، منذ القرن الثانى قبل الميلاد ، حين بدأت الفتوح غير المنقطعة تسكر الرومان ، وهى تدر عليهم المجد والغنائم ، وسيول الرقيق[١٤] ، بينما كانوا فى نشوتهم ساهين عن ضريبة الفتح وتبعات الحروب . فقد قضت الجيوش من ناحية ، وكثرة الرقيق الرخيص من ناحية أخرى ، على طبقة صغار الملاك وأجراء الزراعة الأحرار ؛ فهجروا الأرض ولبوا نداء المدينة ، ولكن . . . ليفاجأوا هنا أيضاً بمزاحمة الرقيق وبضآلة الأجور ؛ فمالوا إلى حياة البطالة والكسل ، ما دام نظام الولاء يكفل لهم القوت والحماية[١٥] .

ولم تظهر هذه العيوب بطبيعة الحال على حين غرة فى العهد الإمبراطورى : فإن الفتوحات الأولى ذاتها كانت تحمل معها البذور التى ما زالت تنمو حتى قوى عودها وأينعت فى ظل الحكم الإمبراطورى الاستبدادى .

وعبثاً حاول المصلحون ، وأشهرهم التربيون تبـــيريوس جراكوس Tiberius Gracchus ، إعادة الدهماء إلى الأرض ، بتوزيع جزء من الأراضى العامة Ager publicus ، فثار عليه الأشراف والشيوخ وقتلوه (سنة ١٣٣ ق م) . واقترح أخوه جايوس Gaius على الجمعية الشعبية قانون الغلال وبه تعهدت الدولة ببيع الغلال بنصف الثمن للناخبين من أهل المدينة (سنة ١٢٢ ق م) . ولكن هذه المحاولة لإرضاء الدهماء أنزلت الخراب بما بقى من الملاحين الإيطاليين ، الذين لم يستطيعوا مجاراة سوق الغلال غير الطبيعية . . وبالرغم من ذلك ، لم يقف سوء التدبير عند هذا الحد ، بل صدر قانون كلوديوس ، سنة ٥٨ ق م ، وقضى بتوزيع الغلال على شعب روما بالمجان !

فلا تسل عن الفساد الذى عم الدهماء الطفيليين ، ولا عن حالة التوتر والبطالة والقلق التى سادت المدينة . وليس من العسير كذلك أن تتصور مدى استغلال الأحزاب وأصحاب المطامع والأغراض لهذه الطبقة المنحطة

المنحلة ، التى أضحت أداة طيعة وجبارة لمختلف أعمال العنف والقتل والتهديد ، للتأثير على الحكام وتحقيق المآرب والأهواء .

ويقابل تدهور العامة فى المدن والريف تدهور آخر من جانب الأشراف وطبقة الشيوخ وكبار الملاك(١٦) . فقد تضخمت الثروات فى أيديهم ، ومع الغنى ، انتشر الترف الفاحش والانحلال الخلقى ، وتفكك رباط الأسرة المقدس ، وقل النسل(١٧) حتى شكا القادة من اختفاء العنصر الإيطالى فى الجيوش . رويداً رويداً ، لم تجد روما من يدافع عنها سوى القبائل المتبربرة المأجورة : فأخذت الإمبراطورية ، على مر الزمن ، تحشد منهم جيوشها ، وتختار منهم قوادها ، وتنزلهم ضيوفاً بالرغم من أنفها ، فى أخصب أراضيها ، متسترة على عجزها بنظام التحالف والتعاهد .

سوء تصرف الدولة إزاء البرابرة

وجدير بنـــا أن نذكر منصفين أن هؤلاء المتبربرين لم يكونوا يطمعون أول الأمر سوى فى أن تعتبرهم الدولة من جنودها وفى خدمتها ، لما كان للحضارة الرومانية وللنظام الرومانى من هيبة فى نفوسهم ؛ فاحترموا التقاليد والقوانين وأقبلوا على الثقافة اللاتينية ينهلون من مائها ، كما أنهم رضوا بالدين المسيحى ، وكان دين الدولة ودين الحضارة معاً ، ديناً استبدلوه بوثنيتهم القديمة .

ولكن الدولة الرومانية حرمت العقول المفكرة القادرة على تمثيل الموقف الذى خلقه المتبربرون ، ثم حرمت الحكام الجديرين باتخاذ الإجراءات والتشريعات الكفيلة بإنقاذ الدولة وحضارتها ، بعمل حاسم يكون بمثابة تطعيم جسم الدولة الهرم بالعناصر الفتية ، التى لم تظهر بالمظهر الهدّام المخرب إلا لأنها لم تجد متنفساً آخر ، مفيداً وبناء ، للطاقة البشرية الهائلة التى ضاقت بها وعجزت عن ضبطها .

الحضارة الرومانية بعد سقوط روما

وقد يظن ظان أن الحضارة الرومانية كانت مرهونة بجهاز روما السياسى وبقوتها العسكرية : وما دامت هذه القوة قد حطمتها هجمات البرابرة ومسحت عنوانها الهزيل ، الإمبراطور روميلوس ، إذن فإن مصير الحضارة الرومانية المحتوم إلى الزوال والاندثار . . .

والواقع أن الحضارة الرومانية خرجت من معمعة المعارك منتصرة رافعة الرأس ، رغم انهزام الجيوش ، وانهيار السلطان السياسى والعسكرى . فقد أثبت التاريخ أن الهمجية والبطش لم يقويا على النيل منها وتحطيمها ، بل أن المتبربرين الأجلاف أنفسهم أذعنوا لها ، بعد أن قوضوا السلطان السياسى والإدارى الذى كان يدعمها ، واحترموها وأقبلوا عليها إقبال الطالب على العلم ، الظمآن إلى المعرفة والثقافة . . .

ولكنه من تحصيل الحاصل أن نبين أن طلب العلم ، وبالأحرى اقتباس الحضارة ، لا يتأتى إلا بعد إخماد ثورة القوى الوحشية التى يقترن ظهورها بعمليات الهجوم والغزو والفتح ؛ فالبذرة الصالحة لا تنبت فى الأخربة وعلى الأنقاض ، كما لا يمكن أن تؤتى أكلها إلا إذا تعهدتها يد العناية ، فى بيئة يسودها الاستقرار والطمأنينة والأمن .

ومن هنا جاء الاختلاف : فمن الشعوب المتبربرة — أمثال الوندال والهون — من غلبت عليهم شهوة الغضب والقوى الوحشية التى لم تترك لقوى العقل المنظم منفذاً للتغلب على قوى الهمجية ، فكانت كالرمال تقتلعها السوافى ، فتطمس بها معالم جميلة ، ثم لا تلبث أن تقتلعها ريح أخرى لطمس جديد ، وهكذا دواليك . . ومن الشعوب المتبربرة أيضاً مَن هدأت ميولهم الغضبية أو مكنتهم الظروف من التحكم فيها ، فقطعوا فى مضمار التمدن شوطاً بعيداً قبل سواهم .

ولا يتيسر لنا إدراك حقيقة الظروف التى نجمت عن احتلال البرابرة للولايات الإمبراطورية ، ولا كيف هــدأت ثائرتهم ، ولا كيف بدأوا يستجيبون لدواعى المدنية ، إن لم نقف أولا على الدور الذى قامت به الكنيسة اللاتينية ، منذ القرن الرابع ، فى أوروبا الهائجة المضطربة ، بعد أن وطدت دعائمها فى تربة الحضارة الرومانية ، واستخلصت عناصرها القمينة بالبقاء ، فأخذت تخرجها لهذا المجتمع المتخلف الجديد ، وقد طعمتها بروح الإنجيل وصاغتها فى قالب العقائد والأخلاق الدينية .

وسنبين ذلك ، بعد الوقوف عند تجربتين مثيرتين فى هذا المجال ، قام بهما القوط الشرقيون والفرنجة .

القوط الشرقيون

استجاب القوط الشرقيون بشكل عجيب لداعى الحضارة الرومانية ، كما أسلفنا . فهذا ثيودوريك ، ملكهم فى إيطاليا ، لم يفرض عليها اللغة القوطية ، ولم يغير شيئاً فى القانون والحكومة ، ولم يلغ القوانين التى كانت تحرم الزواج بين الرومان وغير الرومان ؛ بل ترك الوظائف المدنية كلها فى أيدى الإيطاليين ، وأبقى كذلك من اختصاصهم الوظائف الخاصة بتدريس النحو والخطابة اللاتينيين .

وقد اعتبره ملوك المتبربرين زعيما وقدوة ، فتمثلوا به وحذوا حذوه تجاه الحضارة الرومانية . فمنهم من استدعى المشرعين الرومان لتوطيد دولته ، ومنهم من استدعى الخطباء اللاتين ليزين بهم مجلسه .

ولكن الظروف لم توات القوط الشرقيين بعد موت عاهلهم الملك ثيودوريك ؛ فلعبت الأعاصير بالبيت المالك ، ولم يكن من جستنيان إلا أن تذرع بحالة الفوضى هــذه ، ليُنزل جيوشه المرتزقة فى إيطاليا ، بدعوى استرجاع عظمة الدولة الرومانية القديمة : فنجح فى وأد حضارة رومانية

قوطية مليئة بالإشراق والأمل ، لإحلال برابرة جيوشه محلها ، وتسليمها للفوضى الإدارية التى جعلتها لقمة مستساغة للباردين ، وهم برابرة أيضاً ، سيتحضرون شيئاً فشيئاً ، وإنما على حساب الإيطاليين المنكودين .

ولا يتسع مجال البحث لتناول الشعوب الأخرى ، وبيان مقدار تأثرها بالحضارة الرومانية . وحسبنا أن نعرض الدور الذى لعبه الشعب الفرنجى ، الذى ساهم بنصيب وافر فى إنشاء الدول الأوروبية الحديثة .

الفرنجـــة

لا غرو إذا كانت الدولة الفرنجية هى الدولة الوحيدة التى عمرت وقدر لها البقاء ، لتتفرع منها الدول الأوروبية كلها : فقد اجتمعت لها أحسن الظروف وتهيأت لها أسنح الفرص .

عرف الفرنجة الاستقرار والحياة الزراعية على ضفة الراين الشرقية ، فى حين ظلت قبائل الجرمان الأخرى على حياة الرعى والبداوة والمغامرة والحروب . ولحسن حظهم ، كانت الضفة الغربيه يقطنها الغالورومان ، فتعلم الفرنجة منهم فنون الزراعة ونبغوا فيها . وتضاعفت حركة التقليد والاقتباس بعد عبورهم نهر الراين ، على أثر سحب الجيوش الرومانية من شمال غالة . كما أن اندماجهم بالغاليين تم على نطاق واسع ، بعد أن أخضع ملكهم كلوفيس مقاطعة الغالورومان الكاثوليك ، وهزم قائدهم سياجريوس Syagrius وأدخلهم تحت حكمه ، وعاملهم معاملة الأهلين لا الأعداء المغلوبين .

وقد زاد من ارتياح الغالورمان احترام كلوفيس لأساقفتهم ولدينهم . . وأخيراً كان لتحوله إلى المسيحية الكاثوليكية ، عقب موقعة تولبياك Tolbiac ، أبلغ الأثر ، إذ أنه أفسح المجال أمام رجال الكنيسة لنشر تعاليم المسيحية ومبادىء الحضارة اللاتينية بين الفرنجة .

ولو أنهم استطاعوا أن يحافظوا على حياة الاستقرار لتضاعف تقدمهم الحضارى ؛ ولكن حكمهم كاد أن يكون سلسلة من الحروب ، أدّت إليها نظرة أبناء كلوفيس إلى المملكة كأنها ملك خاص ، تجرى عليه أحكام العرف الجرمانى فى الوراثة . فقسموا المملكة أجزاء لا تستند على شيء سوى المكابرة والقوة وإرضاء الطمع ؛ فأصبحت الحرب سجالا طوال مدة حكم أسرتى الميروفنجيين والكارولنجيين ، أى إلى سنة ٩٨٦ ، وهى سنة تنصيب هوج كابيه Hugues Capet ، رأس أسرة الكابسيان Capétiens ، ملكا ؛ ولا نكاد نستثنى من هذه الفترة المظلمة — وهى المسئولة عن تسميه العصور الوسطى بعصور الظلمة والجهل — لا نكاد نستثنى منها إلا مدة حكم شارلمان .

الكنيسة اللاتينية وريثة روما فى الغرب

نهاية وبداية . « وهكذا ، قبل أن ينقضى قرن واحد على طلب دقلديانوس إلى الناس أن يعبدوه إلها ، ارتضى حاكم الدنيا أن يذل نفسه ، إذعاناً لأمر أسقف من الأساقفة » . [١٨] . بهذه العبارة علق المؤرخ ف. ا. رايت F. A. Wright على حدثين تاريخيين بعيدى المغزى لأنهما يبينان مدى الانقلاب الذى اعترى العالم الرومانى ، فيما يتعلق بالجماعة المسيحية ، وبنظرة العالم الرومانى إليها ، فى الفترة ما بين سنتى ٣٠٣ و ٣٩٠ .

الموضوع فى حد ذاته لا يخرج عن أن يكون تحدياً من جانب المسيحيين: ففى سنة ٣٠٣ تحدت هذه الطائفة دقلديانوس ، وقد فرغ من إعادة تنظيم الإمبراطورية ، كما أسلفنا[١٩] ، فأبت كل الإباء أن تحرق البخور لتمثال الإمبراطور الإله ، « اتباعاً للمراسيم الرومانية » . وفى سنة ٣٩٠ ، يقف أسقف مدينة ميلانو على عتبة كاتدرائيته (كنيسته) ليجابه ثيودوسيوس ، الإمبراطور العظيم ذا الماضى الحافل بجلائل الأعمال فى الشرق

والغرب ، ويرفع صـــوته ليذكره بأنه أخطأ فى حق الرعيـة وأغضب الله بانتقامه الغشيم من أهل سالونيكا ، وقتله سبعة آلاف من السكان العـزّل دون محاكمة[٢٠] .

لذلك ، فإن معبد الله سوف يبقى مغلقاً فى وجهه ثمانية شهور ، إلى أن يتوب ، وينجز ما تفرضه عليه الكنيسة من عقاب ، تكفيراً عن جريمته .

ماذا كانت العاقبة ؟

أما دقلديانوس ، فيصدر مرسـوما يقضى بهـدم الكنائس وحرق كتب المسيحيين المقدسة ؛ ثم تعقب هـذا المرسوم مراسيم أخـرى ، أقيمت بموجبها المذابح الفظيعة التى أمر بها جاليريوس وماكسيميان[٢١] فى الشرق ، والتى شـهدت مصر أمرّها وأقساها[٢٢] ، . وأما ثيودوسيوس ، فيخلع شارة السلطان ، ويذعن طائعاً لصوت الأسقف أمبروسيوس ، فيتوب ويكفر عن ذنبه ، « كى لا يحرم من مناولة القربان المقدس » .

وقد أردف رايت قائلا ، فى شىء من المبالغة : « فقـد كانت العقوبة الدينية التى وقعت على ثيودوسيوس فى الحق نقطة التحول : فهى نهاية العالم القديم وبداية العالم الجديد[٢٣] .

لا خلاف فى أن هـذا الواقع ، لو لم يسجله التاريخ لعجز عن أن يرقى إليـه الخيال : فحادثة سنة ٣٩٠ البالغة الجرأة لكانت أدعى إلى تأجيج نار الغضب وإنزال صواعق البطش والتقتيل على المسيحيين ، والطائفة هى هى ، لا قوة مادية لها ولا سلاح .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث .

وبما أنه لا يخطر ببالنا بطبيعة الحال ، أن نفسر تصرف ثيودوسيوس بالقضاء والقدر ، فلنبحث إذن عن المقدمات التى مهدت له ، حتى جعلته محتملا ، بل ومقضىّ الوقوع ، فى أواخر القرن الرابع

الأسـقف . إنه جدير بنـــا أن نقف برهـة أمام المصوّر الذى رسمـه ف . ا . رايت ، من بعد شاتوبريان ، للأسقف المسيحى فى هذا العصر ، قال : « كان الأسقف مضطراً إلى أن يكون سياسياً لبقاً وأن يكون خطيباً وإدارياً حازما ، وكان واجبه أن يحـكم العامة وأن يكون بمثابة المستشار للأمراء » . ويمضى الـكاتب فى تعـداد وظائف الأسقف الدينية ، من إقامة الصـلاة ، والنهوض بالوعظ ، وافتقاد المرضى ، والسهر على المعوزين ، والنظر فى الخصومات الخاصة وفى المنازعات التى تقوم بين المـدن ، والدفاع عن العقائد بالقول والـكتابة ، والاشتراك فى المجامع الدينية . . . إلى أن يقول : « يضاف إلى هـذا أن الإمبراطور كان يستدعيه فى أحوال كثيرة ليـدلى برأيه فى المشاكل السياسية الخارجية ، وكثيراً ما كان يوفده سفيراً لمغتصبي الحكم وللملوك الأجانب »(٢٤)

وأما هـ . ا . ل . فشر فيقول : « لم تعدم الحوادث أساقفة اشتهروا بالشجاعة والجرأة على الحاكم المعتدى ، وتذكيره بالعذاب فى الآخرة إذا هو لم يرجع عن غيه »(٢٥) . ونضيف إلى هذه الأقوال ما قاله بورمان هـ . باينز « إن الأساقفة خولوا سلطات تشريعية واسعة فى القضاء المدنى »(٢٦) . وقد ذهب هـ . ا . ل . فشر إلى أبعد من هذا ، حين زعم أن الـكنيسة ، منذ القرن الرابع ، كانت تشرف على كل شيء حتى الماديات : « فإذا تطلب نهر من الأنهار جسراً لضبط مجراه ، أو احتاج بلد من البلاد سقاية لحمل الماء إلى جهة مرتفعة ، كان الأسقف فى أغلب الأحيان صاحب المشروع ومصدر المال اللازم »(٢٧) .

ولعل خير ما نستطيع أن نمثل به المنزلة الرفيعة التى تبوأها الأسقف فى مجتمع القرن الرابع ، قصة تنصيب أمبروسيوس أسقفاً لمدينة ميلانو . كان أمبروسيوس حاكما قنصلياً Consulaire لولايتى ليجوريا وإميليا ، مقيما فى ميلانو ، عنـد ما نادى به شعب المدينة أسقفاً ، خلفاً لسلفه الراحل ،

فهاله الأمر وأذهله ، وحاول أن يتملص من هذا العبء ، متذرعاً بعدم استعداده وقلة خبرته(٢٨) . ولكنه لم يفكر لحظة واحدة فى أن ما يعرض عليه أقل مرتبة وشرفا من منصبه المدنى المرموق ، وإلا لما رضخ آخر الأمر لرغبة الشعب . ثم نحن نتساءل : أكان يجرؤ أمبروسيوس الحاكم المدنى على تحدى سيده الإمبراطور ، كما فعل أمبروسيوس الأسقف ؟

وبعدُ ، كيف تبدلت أحوال طائفة مضطهدة بالأمس ، فقيرة محتقرة ، حتى أضحت لها هذه المكانة السامية فى المجتمع الرومانى ، وهذا السلطان الروحى الذى لا يقهر ؟

لاشك أن جو التسامح الذى أوجده قسطنطين كان له أثره فى تعزيز مركز المسيحية وتقوية نفوذ رؤسائها الأدبى . ولكن هذا لا يفسر كل شىء ، فقد كانت المسيحية قد انتشرت انتشاراً واسعاً قبل سنة ٣١٣ بسنين عديدة ؛ وقد قال فى ذلك ترتوليان(٢٩) ، المتوفى سنة ٢٤٠ : « نحن أبناء الأمس القريب ، ومع ذلك فقد ملأنا عليكم عالمكم كله بمدنه وجزائره وبلاده الريفية حتى المعسكرات والقبائل ، وهيئات القضاء والقصر ومجلس الشيوخ والحاماة . . . ولم نترك لكم إلا معابدكم »(٣٠) . ومهما حسبنا حساب البلاغة الفياضة التى اتصفت بها كتابات صاحب هذه العبارة ، لا نستطيع التغاضى عما تحمله من دلالة . . إننا نميل إلى الاعتقاد أن سر هذا التحول الثورى يكمن فى تلك الحركة التى دفعت أرستقراطية الإمبراطورية ، بصورة جلية ملموسة ، إلى أحضان الكنيسة : أرستقراطية الثقافة والفكر ، وأرستقراطية الإدارة والحكم ، إن لم تكن دائماً أرستقراطية الحسب والنسب . وحسبنا أن نتصفح تاريخ الكنيسة فى هذه الحقبة ، أى منذ منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الثامن ، لتبرز أمامنا أسماء لامعة ، أشرقت وتألقت فى ميادين الفكر الإنسانى والتفكير الدينى ، فكانت المنارة الوضاءة

التى هدت السارين فى دياجير ليل تلبدت فى سمائه سحب كثيفة من الهمجية والجهل والخوف ، تقدمت جحافلَ المتبربرين وخيمت حيثما حلوا .

والآن ، قبل أن نعرض المذهب الفكرى الذى سارت عليه هذه الطائفة من المفكرين ، ينبغى أن نبحث عن الدوافع التى أدت بهم إلى الانخراط فى سلك الكنيسة .

وجريا على سنتنا فى هذا الكتاب ، سوف لا نتعرض للدوافع الدينية العقائدية ، كالتى يسميها المسيحيون الدعوة L'appel de Dieu ، أى دعوة الله ، وهى فى نظرهم تمثل مركز الصدارة ؛ ولكن ، لا قبل لنا كذلك بإنكارها . لذلك فإننا نرى أن الأمانة العلمية تلزمنا بألا نقدم الأسباب التالية إلا من قبيل الظروف المساعدة لا المسببة ، وهى التى يعتبرها المسيحيون من تدابير العناية الإلهية التى تسعى إلى تحقيق خير الإنسان من حيث لا يدرك .

وما دام المجال لا يتسع لتفصيل القول فيها ، فنجتزىء بإحصائها إحصاء سريعاً .

١ — أولها فى الأهمية ، دون شك ، انهيار الحكومة الإمبراطورية الناتج عن تمرد القواد العسكريين وتشاحنهم للاستئثار بالسلطات السياسية والإدارية ، خلف ستار من الأباطرة الأشباح الذين نصبوهم على العرش ؛ فاستتبع ذلك اختلال بعيد المدى فى النظم والإدارة ، وتدهور فى المالية والاقتصاد ، وعجز متزايد عن القيام بالخدمات العامة .

٢ — يلى هذا السبب مباشرة الإغارات الجرمانية التى زادت فى سرعة التدهور ووسعت نطاق الانحلال ، فانهار التعليم المدنى ، وانهارت الثقافة ، واختفت أدواتها ، حتى ندر أن تجد فى الدول الجديدة من كان يعرف الكتابة والقراءة ؛ وانهار الاقتصاد مع تقدم الزحف الجرمانى واحتلال المتبربرين الأراضى الخصبة رويداً رويداً ، قبل القضاء التام على شكليات النظام الإمبراطورى بعزل روميلوس أغسطولوس ، سنة ٤٧٦ .

فلا عجب إذا برزت الكنيسة الرومانية، وسط الفوضى الشاملة التى تردى فيها الغرب، كالصخرة فى لجة البحر الهائج، تحمل ضوء العلم وروح النظام والتفكير الرومانى العتيد، مع الاستعداد للنهوض بالخدمات العامة، كما أسلفنا عند الكلام عن الأسقف. ولا غرو أن تتجه إليها الأنظار الحائرة فى هذا المجتمع الجديد، الذى اختلط فيه غالبٌ شله الجهل والتخلف والقصور، ومغلوبٌ تملكه اليأس والشعور باستحالة العيش فى عالم من الأنقاض ومن الجور والاضطراب.

هـــذه هى الظروف التى زادت من إدراك الكنيسه لمسئولياتها الدينية والاجتماعية، بعد أن لمست عن كثب حاجة المجتمع إليها وتحفزه لتلقى كنوز التراث التى كانت فى حوزتها. ويبدو طبيعياً عندئذ أن ينتعش الأمل فى قلوب النبلاء وأصحاب الثروة والثقافة والنفوذ، فيجدون «فى القيام بالأعمال الكنسية فرصة لاستخدام مواهبهم فى الإدارة، أو لإشباع رغبتهم فى الخدمة العامة»[٣١]، لا سيما وأن زوال الوظائف الإمبراطورية لم يعد ليغريهم عن الاستجابة لنداء الخير... «حتى سار أغلب الأساقفة فى القرن الخامس — والسادس والسابع، فى غاليا، من أبناء البيوت العريقة[٣٢]».

ونسوق أخيراً قول فشر فى هذا الصدد: «لذا لم يكن عجباً أن يتخذ الفرنجة فى غاليا — والقوط الغربيون فى أسبانيا — من رجال الدين أداة للحكم وشئونه المختلفة: وإذا ذكرنا أن ملوك الجرمان من الفرنجة — والقوط الغربيين وغيرهم — هاموا بصيد الخنزير البرى والأيل والغزال، وشغفوا بالحروب والمذابح والتخريب، صار من الواضح أنه لم يكن باستطاعتهم أن يديروا دفة الحكم فى البلاد لولا الكنيسة ورجال الدين»[٣٣].

وبالتأمل فى سيرة أشهر رجالات هذه الحركة، يتبين لنا:

١ — أنهم نالوا حظاً وافراً من الثقافة الكلاسيكية اللاتينية واليونانية:

فأمبروسيوس، أسقف ميلانو المتقدم الذكر، والمولود سنة ٣٤٠ فى مدينة

تريف ، شب ودرس فى روما ، بين الأوساط الأرستقراطية ، منذ الرابعة عشرة من عمره ؛ وإذا كنا لا نجـادل فى أنه برز فى الناحية العملية ، كمواطنيه الرومان[٣٤] ، فكان رجلا إداريا وعالماً أخلاقياً أكثر منه مفكراً نظرياً ، غير أنه كان متضلعاً فى الآداب اللاتينية ، كما يشهد بذلك كتابه (واجبات القسس) الذى استقاه عنواناً ومادة من كتاب De Officiis ، لصاحبه خطيب روما الأول شيشرون ؛ ولا يظن أنه كان متخلفاً فى الثقافة اليونانية ، فقد أتقن لغـة اليونان ثم تبحر فى دراسة فيلون[٣٥] ، الفيلسوف الأفلاطونى الشهير ، وأوريجينوس اللاهوتى والفيلسوف الإسكندرى .

وإذا انتقلنا إلى إيرونيموس ، الشهير باسم جيروم ، والمولود سنة ٣٣١ فى مدينة ستريدون من أعمـال بانونيا ، نجده ملك ناصية لغات آداب عصره الثلاث : اللاتينية واليونانية والعبرية ، « وكان ذلك أمراً جـد نادر فى زمانه »[٣٦] . ولم تفقده حياة النسك الصارمة التى اختارها لنفسه ، ميله إلى الآداب اللاتينية ، فما زال شغوفا بها ، متذوقاً لتراثها حتى فى صومعته فى بيت لحم : هـذا هو سر جمال أسلوبه فى كتب التاريخ الدينى والسير المترجمة والمؤلفة التى دبجهـا قلمه ، وبوجه خاص فى ترجمة العهد القديم من الأصل العبرى إلى اللاتينية ، وهى المعروفة باسم La Vulgate : فكانت كتاباً من أمهات الكتب فى العالم ، وما زالت إلى اليوم الترجمة المعتمدة الوحيدة فى الكنيسة اللاتينية ، كأن أحداً لم يجرؤ على إعادة هـذا العمل العملاق منذ خمسة عشر قرناً خلت ! . .

وأما أغسطينوس ، المولود فى تاجاست ، من أعمـال ولاية أفريقيا (نوميديا) ، سنة ٣٥٤ ، فقد درس الآداب اللاتينية وعلى الأخص فرجيليوس وشيشرون ، فى جامعة قرطاجة ، وأدى به نبوغه إلى التربع على كرسى الأستاذية لتدريس الخطابة فى جامعة قرطاجة ، ثم فى روما ، وأخيراً فى ميلانو (٣٨٤) .

وقد اعترف بفضل شيشرون عليه من حيث تكوينه الفكرى ، مشيراً إلى الرغبة الملحة التى خرج بها من قراءة كتابه Hortensius(٣٧) ، فى البحث عن الحقيقة والتطلع إلى تصوير انسجامى للحياة ، يحمل فى ثناياه حلا لتناقضاتها الكثيرة التى استغلها المانويون(٣٨) شر استغلال . وقد درس أفلاطون وشغف بفلسفته وبفكرة الإله الكامل الوجود والطيبة التى هدته إليها كتبُ أفلوطين Plotin حتى عُد من أكبر ممثلى الأفلاطونية الحديثة .

٢ — إنهم شاركوا فى الحياة العامة :

فأمبروسيوس ، وهو ابن لحاكم إمبراطورى فى غالة ، شغل وظيفة رفيعة فى روما ، ثم عين مشرفا إمبراطورياً Consularius أى حاكماً لولايتى ليجوريا وإميليا ، كما قدمنا .

وكان الأمر كذلك بالنسبة لجريجوريوس العظيم الذى اعتلى عرش البابوية فى روما ، من سنة ٥٩٠ إلى ٦٠٣ : فقد كان والده من كبار موظفى مدينة روما . وشغل هو نفسه وظيفة حاكم المدينة Prefectus فى سنتى ٥٧٢ ، ٥٧٣ .

وغيرهما كثيرون ، اعتزلوا الوظائف للانخراط فى سلك الرهبنة(٣٩) ، وقد ذكر أغسطينوس مدى الأثر العميق الذى تركه فى نفسه الموظفون الإمبراطوريون الذين دفعهم السمو بالروح إلى الإلتجاء إلى الأديرة ، ليتفرغوا فى هدوء جوها الروحانى لخدمة الله وترقية النفس ودراسة الكتاب المقدس .

٣ — اشتركوا جميعاً بحبهم الفائق لروما وبتقديسهم لمدنيتها وتراثها :

وقد بلغ بهم الأخلاص إلى أنهم ربطوا مصير العالم بمصير روما ، فعجزوا عن أن يتصوروا للعالم بقاء إذا قدر لها السقوط .

وإذا كان من حسن حظ أمبروسيوس أنه مات سنة ٣٩٧ ، أى قبل ان يستولى ألاريك على روما بثلاث عشرة سنة ، فإن جيروم عاش إلى سنة ٤٢٠ ، وما كاد يبلغه النبأ المفجع حتى راح يبعث أنات الحزن من قلب جريح مكلوم ، ويؤكد فى ذهول بالغ أن الإمبراطورية قد انهارت بانهيار روما ، وأن هذه الأحداث لهى مؤذنة بعودة المسيح المنتظر وبفناء الكون ! .

وأما أغسطينوس ، فقد عاصر الكارثة وعاش ليرى روما تنتفض من قبرها وتعود إلى الحياة . إلا أنها لم تعد سوى صورة كالحة لروما القديمة . . وقد أعترى الناسَ اليأسُ والخوف ، وباتوا يترقبون الضربة القاضية . .

ألم يتعين عليهم عندئذ بحث قضية الحضارة الرومانية على ضوء الظروف الجديدة ؟ ألم يحن الوقت لإعادة النظر فى هذه القيم التى أجلوها إجلالا ، وظنوا أنها دائمة باقية ، لاسيا بعد أن تعمدت فى ماء التنصير ، مع قسطنطين ؟ وراح أغسطينوس يبحث ويطيل التأمل ، ويدون ثمرة تفكيره فى كتابه الخالد (مدينة الله) De Civitate Die ، الذى صدر تباعا ، بين سنتى ٤١٣ و ٤٢٦ ، هذا الكتاب الذى وصفه الدين ويلدون[٤٠] بقوله : « إنه كان ولا يزال من أعظم الكتب فى التاريخ الإنسانى » . كما قال عنه ف . ا . رايت أنه أول ثلاثة كتب عول عليها المفكرون فى القرون الوسطى ، وهى (مدينة الله) و (الاعترافات) ، وهما لأغسطينوس و (عزاء الفلاسفة) لبويثيوس[٤١] .

نعم ليس ثمة ما يدعو إلى التمسك بأهداب الإطار الذى ظهرت فيه الحضارة الرومانية ، كتلك النظم والتقاليد والإدارة . . التى قضى عليها عجزها عن صون العالم المتمدن من الفوضى ، والمجتمع من الانهيار . وعجزها هذا مرده الفساد ، وهو بدوره ثمرة كبرياء الحكام ونتيجة لازمة للأنانية والمادية : وكلها ميول شريرة ، أوجدتها فى الإنسان الخطيئة الأصلية ، وقصرت المدنية

عن أن تجنبه أضرارها وعواقبها الوخيمة ، أما القيم الفكرية والأخلاقية والاجتماعية السامية التى أوجدتها هذه الحضارة ، فهى جديرة بالبقاء ، على شرط أن تطعّم بمبادئ الدين المسيحى وبروح الإنجيل .

وهكذا أخذت تلوح فى الأذهان فكرة الإمبراطورية المسيحية الروحية ، التى رأى فيها المفكرون المسيحيون تحقيقاً لنظرية ملكوت الله — أو قل « مدينة الله » — هذا الملكوت المتحرر من قيود الشكليات والنظم المتألبة الزائلة ، الذى يرقى بالإنسان فوق الأجناس وفوق الحضارات ، على أساس الأخوة التى يوجدها الدين .

وإلى أن يتحول هذا الحلم الجميل إلى واقع أجمل ، فإن أعمالا كثيرة تنتظر الكنيسة ، ليس أقلها شأناً تربية هذه الشعوب المتبربرة ، التى تتطلع إليها وكلها أمل فى أن تحظى على يدها بالتعليم والهداية والإرشاد .

ولعله من الطريف أن نلاحظ كيف قدر للمسيحية أن تصمد أمام الاضطهادات وتصبر على التعذيب والتشريد والتقتيل ، إلى أن تلتقى بالفكر الرومانى بعد تمام نضجه ، وقبل أن تذهب به ضربات الهمجية والجهل ، فينتج من هذا اللقاء تراث لا يقدر بثمن ، عاشت عليه الدول الأوروبية الناشئة طيلة القرون الوسطى .

شروح وتعليقات

....

(١) تاريخ العالم ، المجلد الرابع ، ص ٦ عمود ٢ ٠

(٢) وهى طريق التجارة التى كانت تربط بين بلاد الصين وساحل البحر الأبيض المتوسط ، مجتازة هضبة بامير وواحات بلاد التركستان الى سوريا٠

(٣) وصف سيريل بيلى Cyril Bailey أسلوب الرومان فى انشاء الطرق ، فقال انها كانت مكونة « من أربع طبقات : اثنتين من الحجارة الصغيرة والأسمنت ، وواحدة من الفرمبد ، وطبقة عليا من كتل كبيرة من حجر البازلت » ٠ ثم تكلم عن الجسر ذى القناطر الذى استخدمه الرومان لتفادى الانتقال بالقوارب ، عندما تعترض الطريق مجارى الأنهار ، أو منعا من « الانحراف بالطريق الى نقطة يمكن عبورها بالأقدام » ٠

ومن أشهر الجسور العظمى الباقية الى اليوم : جسر رميمنى Rimini الذى أقامه أوغسطس ، سنة ٢٢ م ، وجسر ميريدا Mérida الجوابيى الذى يمر فوق الوادى اليابع Guadiana ، فى أسبانيا ، وجسر فابريكيوس Pons Fabricius ، فوق نهر التيبر ، فى روما ، أنشأه فابريكيوس سنة ٦٢ ق م ٠

ومن أشهر الطرق : طريق أبيوس Via Appia التى أنشئت سنة ٣١٢ ق م ، لتربط روما بكابوا فى الجنوب الشرقى ، ثم طريق فلامينيوس Via Flaminia التى تصل روما بغالة والمانيا والدانوب ، مخترقة جبال الألب ، وقد بدىء فى انشائها سنة ٢٢٠ ق م ٠

راجع : تاريخ العالم ، المجلد الرابع ، ص ٦ الى ١٥ ، وص ٢٤٧ الى ٢٥٠

(٤) أجمل هذه القناطر ، التى مازالت تحمل حركة المرور ، «القنطرة» فوق نهر التاجة فى أسبانيا ، فقد أنشئت سنة ١٠٠ م ، ويبلغ طولها ٢٠٦ متر ، وتعلو سطح النهر ٦٠ مترا ٠

أما السقايات فكانت عبارة عن قنوات عالية تحمل المياه الى العاصمة أو الى المدن فى الولايات ٠ وقد اصطحبها نظام خاص لتخزين المياه فى البلاد

القليلة الأنهار والأمطار ، كاقامة السدود فى الوديان ، كما تشهد بذلك الآثار الرومانية فى بلاد العرب وسوريا • وأشهر السقابات قناطر جارد Le Pont du Gard الذى يمد مدينة نيم Nîmes بمياه الشرب •

(٥) أشهر هذه المسارح ، أو المدرجات الرومانية ، مدرج فلافيوس فى روما ، الشهير بالكولوسيوم • وقد أقيمت على غراره مدرجات كثيرة فى الولايات ، نذكر منها مدرج ال جم El Djem ، جنوبى قرطاجة ، ومدرج فيلادلفيا (عمان الحالية) ، ومدرج جرره Gerasa (جراش الحالية) ، وهما فى الأردن ، ومدرج نيم Les Arènes de Nîmes

(٦) ابتكر الاغريق النقش البارز في النحت ، ولكنهم اتخذوا موضوعاته من أساطيرهم القديمة ، أما الرومان فقد اقتبسوه منهم ، ولكنهم استخدموه فى تصوير التاريخ المعاصر ، عند تزيين المبانى العامة ، مثل عمود تراجان ، وأقواس النصر •••

(٧) وهى لغة بعض مناطق سويسرا ، كمنطقة انجادين ، أو تلك التى يقطنها فلاحو الجريزون والأوبرلاند فى التيرول • وتعتبر الرومانسية أقرب فروع اللاتينية الى اللغة الأم •

(٨) الى جانب الشعوب الأوروبية التى تتكلم هذه اللغات ، هناك شعوب المناطق التى استعمرها الأوروبيون ونشروا فيها لغاتهم اللاتينية الأصل ، كما هى الحال فى أمريكا الجنوبية • هذا ، بالاضافة الى ما دخل من ألفاظ وأساليب وتراكيب لاتينية فى لغات أوروبية أخرى كالانجليزية والالمانية ، رغم المقاومة الشديدة التى أبدتها لمنع غزو اللاتينية العلمية •

(٩) تاريخ العالم ، المجلد ٤ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨

(١٠) دانتى هو صاحب ملحمة الكوميديا الالهية La Divine Comédie وأما ملتن فقد كتب الفردوس المفقود Le Paradis Perdu •

(١١) تاريخ العالم ، المجلد ٤ ، ص ٢٦٢ ، عمود ١

(١٢) Sallustius Crispus ، ٨٦ ق م — ٣٤ ق م ، رجل سياسة وادارة • بعد أن اعتزل السياسة ، سنة ٤٣ ، عكف على كتابة التاريخ • كان دقيق الأسلوب ، وخبيرا بأحوال الدولة ، وخطيبا مفوها ، الا أنه كان متحيزا فى أحكامه •

Titus Livius ولد ومات فى بادوا Padova ، ٥٩ ق م — ١٩ م ، وقضى حياته فى روما • نال كتابه (التاريخ الرومانى) شهرة واسعة، وهو فى ١٤٠ جزءا ، فقد أكثرها ولم يبق منهـا سوى ٣٥ جزءا • أسـلوبه يلمع بالوضوح وطرافة العرض • وكان فى أحكامه محايدا رغم عطفه على الرومان وحدبه على الأشراف •

(١٣) أنظر فيما تقدم من هذا الكتاب، ص٩٥ ، وفيما يلى، الباب التاسع.

(١٤) يرى A. Aymard et J. Auboyer أن الانتصارات فى ميدان الحرب جلبت الى ايطاليـا عـددا لا يحصى من الرقيق : فكان « حق الحرب » يسمح باعتبار الأسرى أرقاء وبيعهم فى أسواق الرقيق ، وقد يعتبر رقيقـا كل سكان المدينة التى تفتح عنوة وقهراً ، وقد حدث ان أمر AEmillius Paulus بحشد ١٥٠٫٠٠٠ من سكان أبير ، سنة ١٦٧ ق م ، ليباعوا أرقاء بعد أن تم الاحتلال بفترة غير قصيرة ، كما يقال ان قيصر أمر ببيع ما لا يقل عن مليون من الغاليين !

راجع : Rome et son Empire, P. 156.

(١٥) نظام الولاء Le droit de Clientèle أن يختار رجل الشعب مولى من ضمن أصحاب الثروة والنفوذ ، يضمن له قوته اليومى (كان المولى يوزع على مواليه سلة صغيرة Sportula تحوى بعض المأكولات ، ثم استبدل بها قطع من النقود) •

(١٦) قضت الحروب على طبقة صغار المـلاك ، وكذلك انخفاض أسـعار الغلال المستوردة ، كما بينا : فنتج عن ذلك حركة تجمع الأراضى الزراعية فى الملكيات الكبيرة Latifundia ، فقويت طبقة كبار الملاك •

(١٧) وهو الداء الاجتماعى المعروف باسم أوليجانتروبيا Oliganthropia أى نقص عدد الرجال فى المجتمع •

(١٨) تاريخ العالم ، باشراف السير جون أ. هامرتون ، المجلد الرابع ، ص ٣٥٤ ، عمود ٢ •

(١٩) أنظر فيما قبل ، ص ٢٧ من هذا الكتاب •

(٢٠) سالونيكا Saloniki هى المدينة التى سميت تسـالونيكا تكريما لأخت الاسكندر الكبير تسالونيكه • ثار أهلها على حاكمهم وقتلوه ، فجـاء

انضمام الامبراطور مروعا اذ أمر بقتل السكان فى مذبحة هلك فيها ما لا يقل عن سبعة آلاف شخص . قارن تاريخ العالم المتقدم الذكر ، ص ٣٥٤ ،
cf. Dictionnaire, Universel d'Histoire et de Géographie 1891, 2e Col.,

(٢١) أنظر فيما قبل ، ص ٢٩ من هذا الكتاب .

(٢٢) كتب و. ر. انج W. R. Inge : « ذبح جاليريوس وماكسيميان فى الشرق عددا هائلا من المسيحيين . ويبدو أن أشد الفظاعات قد ارتكبت فى مصر ، حيث كان يقتل فى الدفعة الواحدة مائة مسيحى ، وحيث ارتكبت كل أنواع التعذيب والتمثيل » . تاريخ العالم ، المجلد ٤ ، ص ١٨٧، عمود ١

(٢٣) تاريخ العالم السابق الذكر ، المجلد ٤ ، ص ٣٥٥ ، عمود ١ .

(٢٤) المرجع السابق ، ص ٣٥٢ ، عمود ١ .

(٢٥) تاريخ أوروبا ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

(٢٦) تاريخ العالم المتقدم الذكر ، المجلد ٤ ، ص ٢٤٥ ، عمود ٢ .

(٢٧) تاريخ أوروبا ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

(٢٨) لم يكن أمبروسيوس مسيحيا بعد ، بل كان يستعد لقبول المعمودية بالدراسة والمواظبة على الأعمال الصالحة .

(٢٩) ترتوليان يعتبر من المدافعين الأوائل عن الدين المسيحى . ولد فى قرطاجة حوالى عام ١٦٠ ، واعتنق الدين المسيحى حوالى عام ١٩٠ ، وراح يدافع عن الايمان بحماسة قوية بالقول والقلم . ولكنه انحرف عن ايمان الكنيسة ، فما لبث أن أصبح شرا على المسيحية ، لاسيما فى مجال الأخلاق . مات حوالى عام ٢٤٠ ، قارن :
La philosophie au Moyen Age, par Etienne Gilson, P. 96.

(٣٠) تاريخ العالم ، المتقدم الذكر ، المجلد ٤ ، ص ١٨٢ ، عمود ٢ .

(٣١) تاريخ أوروبا ، المتقدم الذكر ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٣٤) أنظر فيما قبل ، ص ١٨٧ من هذا الكتاب .

(٣٥) فيلون Philon فيلسوف أفلاطونى ، ولد فى الاسكندرية، حوالى عام ٣٠ ق م ، تعمق الفلسفة الأفلاطونية حتى لقب بأفلاطون اليهود ، وله كتب كثيرة فى اللاهوت العبرى والتاريخ والفلسفة ، حيث حاول التوفيق بين نظريات أفلاطون وديانة اليهود .

(٣٦) L'Eglise et la Civilisation au Moyen Age, par Gustave Schnürer P. 31

(٣٧)كان هورتانسيوس خطيبا رومانيا قديرا ، ولد عام ١١٤ قم ، وتوفى عام ٥٠ قم ، وكان منافسا لشيشرون فى المحاماة، ولكنهما بقيا صديقين، وقد اختار شيشرون اسم صديقه لرسالة فى الفلسفة ، فقدت فلم نعرف عنها شيئا . قارن :

La Philosophie au Moyen Age par Etienne Gilson p. 125.

(٣٨) ولد مانى أومانيس أو Manichée فى بلاد العرب ، سنة ٢٣٩ أو ٢٤٠ ، من أسرة مجوسية . وقد استقر اعتقاده بعد تردد ، على الايمان بمبدأين متناقضين متحاربين ، النور والظلام ، ونادى بوجود الهين ، خلق أحدهما العالم المثالى ، حيث يسود الخير ، والآخر العالم الأرضى ، حيث الشر . قتل مانى فى فارس ، حوالى عام ٢٧٤ م .

(٣٩) Gustave Schnürer ، فى المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٤٠) نقلا عن تاريخ العالم ، المرجع السابق ، المجلد ٤ ، ص ٢٥٦ ، عمود ١ .

الفصل الثامن

الحضارة العربية الإسلامية

الموجـــز :

تمهيـــد أسباب النهضة العربية :

الهزات العنيفة

المشاكل الحيوية

الظروف المواتية

عناصر النهضة الحضارية العربية :

١ ـ النظم : من الخلافة إلى الملك

التنظيم الإدارى

٢ ـ العلوم الدينية : نشأتها

مراكزها

الجدل والحياة العقلية فى العراق

٣ ـ الأدب الأموى ، الشعر : النزعة الدينية

النزعة العقلية

النزعة إلى اللهو

تمهيـــد

أسباب النهضة العربية

يقتضى المنهج الذى نسير عليه أن نقصر نطاق البحث فى فترة من الزمن ، وُفِّق أحمد أمين فى تسميتها « فجر الإسـلام »[1] ، وهى الفترة التى تبدأ بإعلان الدعوة الإسلامية ، سنة ١٣ ق هـ/٦٠٨م ، وتنتهى بسقوط الدولة الأموية ، سنة ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م .

نحن إذن بصدد نهضة حضارية نشأت وأخذت تترعرع ، لكنها لم تستكمل بعدُ كل مقوماتها ، وبالتالى ، لم تأت بعدُ بأجمل أزهارها وأينع ثمارها : فلنسمِها إذن فترة نمو واستعداد ، ولا نعوِّلْ عليها وحدها لإطلاق الحكم على الحضارة العربية بأسرها .

* * *

ما هى الأسباب التى أدت إلى هذه النهضة ؟ إن التحرى الدقيق يضعنا أمام ثلاثة عوامل : هزات عنيفة أيقظت العربى من حياته الساذجة الضيقة الرتيبة ، مشاكل حيوية ملحة حالت دون ارتداده إلى حياة الدعة والخمول ، ظروف مواتية وطأت له سبل الارتقاء والتمدن . هكذا قُدِّر للأمة العربية أن تستعد للدور العظيم الذى كان لابد أن تنهض به فى ميدان التبادل الحضارى .

١ ـــ الهزات العنيفة : وأولاها دون ما جدال ظهور شخصية النبى العربى محمد بن عبد الله ، شخصية قوية ، ما فتئت تقرع آذان أهل الحجاز ، تتحدى العقول وتستفز المشاعر بكل أساليب التنبيه وإثارة الوعى ، من إنذار

وتهديد ، ووعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، إلى أن نجحت أخيراً فى بعث الوعى القوى المعتمد على الدين .

وثانيتها كتاب القرآن ، بمضمونه العقائدى الجديد ، وقيمه السامية التى نازلت ، بشجاعة وجرأة ، كل القيم الوثنية الجاهلية ؛ القرآن ، بدعوته المتكررة إلى إعمال العقل وإلى النظر المتفحص المتأمل فى ظواهر الكون : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » ، سورة آل عمران ٢٣ آية ١٩٠ ؛ القرآن ، بلغته العذبة الموسيقية ، ومنطقه الذى يخاطب العقل والوجدان ، مما دعا العرب إلى اعتباره معجزة الإسلام الكبرى .

وثالثتها دعوة الإسلامِ العربَ إلى منازلة القوتين العسكريتين المسيطرتين على الشرق ، الفرس والروم ، والأعجب من هذا ، انتصارهم عليهما جميعاً فى آن واحد ، رغم جيوشهم الجرارة المدربة وأسلحتهم الجبارة ، ونظمهم الإدارية الدقيقة ، فزالت دولة الفرس ، وولت بيزنطة الأدبار ، تاركة للعرب مصر والشام . . .

ورابعتها هذه العوالم الجديدة ذات المدنية الراقية التى بهرت عيون العرب البدو ، فى بلاد فارس وفى مصر والشام ، بكل ما فيها ، لأن كل شىء فيها كان عجيباً مذهلا : النظم ، الإدارة ، الثقافة ، المدن بدورها وقصورها وفنونها وترفها . . .

هذه بلا شك هزات بل صدمات ، كانت خليقة بأن تفتق القرائح وتستفز المواهب الراقدة وتؤجج جذوة الذكاء الخابية .

٢ — المشاكل الحيوية : أخذت تلاحق العرب وتطاردهم فى كل شأن من شئون الحياة ، منذ أن أخذوا يتطلعون إلى ما وراء حدود جزيرتهم ، فغادروها غازين فاتحين ؛ مشاكل متعلقة بالجيوش وتعبئتها ، وبالبلاد المفتوحة ومعاملة سكانها ، وبالدين ونشره ، وبنظم البلاد الاجتماعية والإدارية المخالفة لتعاليم دينهم . . إلى غير ذلك من مشاكل داخلية متعلقة بالخلافة والأحزاب

والمذاهب . . . وكلها معضلات تنجم من الحياة نجوماً ، وتقف فى سبيل العمل عثرة ، ما لم تعالج على وجه السرعة ببصيرة نافذة وعقل مرن ثاقب .

٣ — الظروف المواتية : أحدها الثروة الطائلة التى درّتها الحروب على العرب المنتصرين ، فسعت إليهم ، سواء أكان من باب الغنيمة والأعطية ، إذا كانوا مقيدين فى ديوان الجند ، أم من باب الرزق ، إذا كانوا من عمال الدولة ، أو كما نقول اليوم من الموظفين ، أم من قبيل الأجر والفريضة ، إذا كانوا من أبناء المقاتلة ، أم من قبيل الزكاة والصدقة ، إذا كانوا من المعوزين[٣] ، أو من باب الفيء ، إذا كانوا من أهله[٤] .

ولا شك أن الإصلاح الذى أدخله الخليفة عمر بن الخطاب على توزيع أربعة أخماس الغنيمة[٥] ، والرواتب الثابتة التى استطاعت الدولة أن تدفعها لموظفيها ، ساهمت فى تكوين طبقة ثرية من العرب ، جاء على رأسهم الصحابة وأهل العقد والحل من المهاجرين والأنصار ، فمكنتهم من العكوف على بحث شئون الدين ، والتفرغ لتفسير القرآن وتحرى الحديث ، والنهوض بأعباء القضاء والإفتاء ، ووضع أسس التشريع التى سوف يبلورها أصحاب المذاهب الأربعة . وبذلك نمت حـــركة علمية دينية قوية ، هى من أهم النواحى الفكرية فى هذا العصر .

ولما جاءت الدولة الأموية ، رفعت رواتب الجند وراحت تغرف من بيت المال لتبتاع الولاء ثم لتقطع ألسنة الشعراء المخالفين والنقاد ، إلا أنها خصت بسخائها قريشاً ووجوه عرب الحجاز والمطالبين بالخلافة والسلطان ، بعد أن احتجزتهم عن الحياة العامة فى الحجاز ، لتصرفهم عن التطلع إلى السياسة والطمع فى الإمارة ، فاندفعت هذه الطبقة ، وهم أرستقراطية قريش المحرومة ، تسرّى عن نفسها ، تلهو وتطلب النسيان بالانغماس فى حياة المرح والطرب والشرب والمجون . إلا أنها عبّرت عن مشاعرها شعر جميل ، يذوب رقة وظرفا ، كما نبغت فى فنّىْ الموسيقى والغناء التى ملأت أخبارهما كتاب الأغانى .

وقد ساعد من ازدياد قابلية العرب للتمدن شدة الامتزاج والتداخل الذى نشأ بين العرب وأفراد الشعوب المغلوبة ، إذ انتشر العرب فى بلاد ذات حضارة عريقة ، كانت بدورها وريثة حضارات سابقة ، أكسبتها تقاليد ونظما متطورة راقية ، فعايشوا أهل هـذه البلاد التى استوطنوها واندمجوا فى كل مقومات حياتهم المادية والمعنوية . ولـكنهم ذهبوا إلى أبعد من هـذا عندما ملأوا دورهم وقصورهم بالموالى والإماء ، وكان أكثرُ من استأثرت به قريش من ذوى الأدب والفن والثقافة ، إن لم يكونوا كلهم من ذوى الحسب والنسب . ولا يخفى ما يترتب على مثل هذا الاندماج والامتزاج من تضاعف لإمكانيات التقليد والاقتباس فى كل مرافق الحياة .

وربما حق لنا أن نضيف أن عنصر الموالى حبب العلوم إلى العرب ؛ فقد لمسوا عن كثب رغبتهم فى تعـلم العربية « لدينهم ودنياهم » ، كما يقول أحمد أمين[٦] . وكأنها غيرة محمودة سرت من المغلوب إلى الغالب ، فأقبل العرب ، وهم العنصر الحاكم ، على تعلم القراءة والـكتابة[٧] ، ولا عيب عليهم إذ كانوا أهل بادية ، لا علم لهم ولا صـناعة ، « ولم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة . وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ، وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء ، أى الذين يقرءون الـكتاب وليسوا أميين ، لأن الأمية يومئذ صفة عامة فى الصحابة ، بما كانوا عرباً »[٨] . والواقع أن الموالى فاقوا العرب فى ميدان العلوم ، لأن العـلوم ملـكات محتاجة إلى التعليم . . . فاندرجت فى جملة الصنائع . . . والعرب أبعد الناس عنها . . . لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة »[٩] . هذا موقف ابن خلدون ، ولقـد نقده أحمد أمين قائلا أن ابن خلدون « سلب العرب ما كان لهم من حظ فى المشاركة فى العـلوم » ، ولـكنه لم يستطع سوى تخفيف الحكم ، إذ قال : « ويطول بنا القول لو أننا أحصينا من كان من علماء هـذا العصر من العرب ومن كان من الموالى ؛ ولـكن نظرة فى أنسابهم عامة تدلنا على أن أكثرهم موال »[١٠]

عناصر النهضة الحضارية العربية

كيف كانت استجابة العرب لهذه الأصوات التى جاءت تهيب بهم أن يستيقظوا وأن يهبوا لتدارك الركب ، فى هذه اللحظة التاريخية بعينها ، وإلا فاتتهم القافلة وتعداهم الحظ ؟ .

بديهى أننا لا نستطيع استعراض كل عناصر النهضة الحضارية العربية ، فى هذا الحيز الضيق . وحسبنا أن نلجأ إلى طريقة « العينات » ، كما يقول رجال الإحصاء ، فنختار عينة فى مجال النظم وأخرى فى نطاق العلوم الدينية وثالثة فى ميدان العلوم الأدبية ، لعلنا نخرج من دراستها بفكرة واضحة نوعا ما عن العقلية العربية ، ومقدار تجاوبها مع القيم الحضارية الجديدة التى اقتحمت عليها حياتها .

١ — النظم

إن التخمة التى أصابت الدولة الإسلامية الناشئة ، فى ميـــدان الفتوح ، بالإضافة إلى قلة خبرة العرب فى شئون سياسة الدول المتحضرة ، كانتا للعرب بمثابة التجربة القاسية والامتحان العسير . كان أمامهم ثلاثة حلول لإرساء قواعد الحكم : فإما أن يتمسكوا بنظمهم الموروثة ، وإما أن يقبلوا على نظم الدول المغلوبة ، وإما أن يتخذوا نظاما يجمع بين مزايا النوعين .

الواقع أنهم اختاروا الحل الأول فى نظام الخلافة ، ومالوا إلى الحل الثانى فى نظام إدارة الولايات ؛ وأما الحل الثالث وهو الأرقى ، فلم يهتدوا إليه أول الأمر : وإن كانوا مقصرين فى هذه الناحية ، فإن من الجور أن نؤاخذهم على هذا التقصير ، لما أسلفنا من الأسباب فى أول هذا الحديث . ولكن يجب أن نضيف فى حق العرب ، أن المطاف انتهى بهم ، إن عاجلا وإن آجلا ،

إلى هذا الحل بعينه : فما كادت الحدود تتثبت والأمور تستقر حتى نرى الدولة تظهر بمظهر عربي صريح ، من حيث لغة الدواوين وتقاليدها ، ومن حيث رجال الحكم ، سواء فى دمشق أو فى الولايات ، كما نرى المجتمع ذاته قد اصطبغ بهذه الصفة العربية ، رغم قلة العنصر العربى ، ودان فى مجموعه بدين الإسلام وبمقتضيات هذا الدين الاجتماعية والثقافية .

وسوف نبين فى السطور القليلة التالية كيف حقق العرب الأميين ما يعتبر معجزة فى ميدان السياسة والإدارة ، ولو كلفهم ذلك ثمناً غالياً .

(ا) من الخلافة إلى الملك . كانت الرياسة التى اختارها العرب لأنفسهم بعد موت الرسول مزيجاً من الرياسة القبلية التى كانت لشيخ القبيلة من حيث مبدأ الشورى والانتخاب والمبايعة الحرة ، ومن الرياسة العامة فى ولايتى الدين والدنيا التى تمتع بها الرسول . وقد يرى المؤرخون أنه فاتهم أمران : أولهما أن الأمة العربية لم تعد قبيلة ذات أفراد معدودين وحياة اجتماعية ضيقة تقضى فى حدود التقاليد القبلية المتوارثة ؛ والأمر الثانى أن الولاية العامة لشئون الدين والدنيا كانت قائمة على الإيمان ، إيمان المسلمين بنبوة محمد ، فما أساس هذا الإيمان بالنسبة لشخص آخر ؟

لا شك أن الوضع الذى ارتضاه المسلمون كان يحمل فى ثناياه البذور التى أنبتت الأزمات والمتاعب والفتن ، التى أخذت تطفو إلى السطح كلما خلا سرير الخلافة من شاغله ، أو كلما راجعت الأمة نفسها ، بعد انطفاء نشوة الفتوح ونضوب معين الغنائم ، فكان الواقع الذى يبدو لها نسيجاً من عدم الملاءمة والانسجام . تصفح تاريخ خلافة عثمان : فهو شاهد صدق لحالة التوتر العميق الذى كانت تشكو منه الأمة . وقد كتب الأستاذ محمد مصطفى زيادة يقول : « فإن الدولة اتسعت اتساعاً عظيما سريعاً ، وتعقدت مسائلها الاقتصادية وتعددت مشاكلها السياسية ، ووقع من الأحداث الدامية شىء غير قليل : من مقتل الخليفة الثالث عثمان ، وانقسام الناس فى خلافة على بن أبى طالب ،

ومحاربته وخروج الخوارج عليه . كل ذلك جعل الرأى العام يرى أن لا بد من تغيير فى السياسة لمواجهة الأحوال الجديدة »(١١) .

هل أدرك معاوية حقيقة الموقف هذه ؟ وهل هذا الإدراك هو الدافع الأصيل الذى حدا به إلى المطالبة بالخلافة ؟ لست أدرى . إنما الشىء المحقق أن معاوية ، بعد أن استقر له الأمر لم يحى الخلافة فى الصورة المدنيـة التى عُرفت من قبل ، بل أخـذ يبنى خلافة شبه بالملك المـدنى ، قوامها السياسة والدهاء والحيلة والقوة ، وأعوانها وسندها رجال عُرفوا بهذه الخصـال ذاتها ، منهم عمـرو بن العـاص ، والمغـيرة بن شـعبة وزياد بن ابى سفيان .

ولكنه إذا لجأ إلى المال يكافىء به الشعراء المالئين لأسرته ، يستميل به الأعداء ويستل به الأحقاد ، غير أنه لم تقتصر سياسته على مثل هذه الوسائل . استمع إلى ما رواه عنه المسعودى ، قال : « كان يستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، ثم تأتيه الطرفُ الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات »(١٢) .

وبذلك يجتمع لمعاوية أمران : علم نظرى فى السياسة ، من الاطلاع على أخبار والملوك والأمم السالفة ، وخبرة عملية ، كونها فى أثناء حكمه الطويل فى الشام ، هذه الولاية التى كانت عزيزة على الدولة البيزنطية لمنزلتها من الدين المسيحى ولكثرة غـلاتها ، فطبقت فيها النظم الإدارية البيزنطية المعروفة بالدقة المتناهية . وتكونت فيها طبقات من الموظفين المدربين الأكفاء ، وقد استعان بهم معاوية فى تصريف شئون الدولة .

(ب) التنظيم الإدارى . على نقيض ما رأينا فى بحث نظام الحكم المركزى سار العرب فيما يتعلق بالتنظيم الإدارى فى الولايات . وهذا برهان جديد على حسن استعدادهم الحضارى ، إذ أساغوا أساليب حضارية راقية ، وأقروا بتفوقها بالرغم من بعدها من مألوفهم البيئى البسيط ، فتراهم تركوا بلاد فارس والولايات البيزنطية تسير على النظم التى وجدوها مطبقة فيها ، فأبقوا على أجهزتها ودواوينها ولغتها ، وعلى رجالها أنفسهم ، لم يستثنوا إلا منصب الوالى ، خصوا به العرب وكذلك ولاية القضاء والصلاة ، وهى أمور لا يعقل أن يعهد بها لغير المسلمين ، ولو عقدت بعد ذلك لغير العرب ، فتولاها كثير من علماء الموالى . وبعد أن استقر الأمر للعرب ، منذ بداية العهد الأموى ، أخذ الخلفاء يعيدون النظر فى النظم الإدارية ، ولم يتورعوا من العمل على تطويرها وتعديلها لتتلاءم وعقائد الدين الجديد والنظم الاجتماعية التى فرضها الإسلام على الشعوب الداخلة فيه .

ونختتم الكلام عن التنظيم الإدارى بالإشادة بفضل عبد الملك بن مروان فى استكمال النظام الإدارى فى الولايات ، حتى عدّ المؤسس الثانى للدولة الأموية : فهو الذى قام بنقل الدواوين[١٣] ، ونخص بالذكر ديوان الخراج ، إلى العربية ، فى فارس والشام ، لما ثبت له من تعلم الموالى للغة العربية ، بل ومن حذقهم إياها ، وقد كمّل ابنه الوليد عمل أبيه بتعريب ديوان ولاية مصر .

٢ — العلوم الدينية

لانحيد عن كافة مورخى الحضارة العربية حينما نلجأ إلى هذا الاصطلاح . فإنهم لا يقصدون مدلوله الدقيق الذى يتصف باستقصاء البحث ، والدراسة المستفيضة ، والتصنيف والتبويب ، وما إلى ذلك مما سوف نلمسه بجلاء لدى أعلام العصر العباسى ، على ما بينهم من اختلاف فى المراتب والدرجات .

أما فى الفترة التى تعنينا ، فما زال العالم العربى على عتبة هذه النهضة . وحسبنا أن نلمس فى أحد مجالات التفكير الانسانى نزوعا إلى الإمعان فى البحث ، والاختيار المتبصر لمادته ، ثم مسحة من روح التنظيم والترتيب والاستنباط المنطقى ، أو الاستقراء العقلى فى معالجة الموضوع ، لكى يحق لنا دون ما تحرج ، أن نعتبر نتاج هذا التفكير علماً ولو ناشئاً .

هذه الشروط بعينها نلمسها محققة فى الجوانب الثلاث من ميدان التفكير الدينى التى نود الوقوف عندها ، لأنها نماذج و « عينات » ، تغنى إلى حد ما عن دراسة الجوانب الأخرى ، نقصد التفسير والحديث والفقه . إن الروايات التى تعرضت لنشأة هذه العلوم ، لخير شاهد على توفر النزعة العلمية التى أشرفت على نشأتها وسددت خطواتها الأولى . فهى تارة تنبئنا بالتحرى الشديد الذى اتصفت به لجنة جمع القرآن التى عينها الخليفة عثمان ، وتارة تشهد بحرصهم البالغ واشتراطهم الشروط لقبول ما كان يروى الصحابة أنفسهم من أحاديث ، فراحوا يطلبون الشهود ، حتى ذهب على بن أبى طالب إلى تحليفهم ؛ ثم طالبوا بالإسناد ووضعوا له قواعد التجريح والتعديل ، وعينوا له السلاسل الموثوق بها ... وغير ذلك كثير من توخّى بعض الصحابة للفظ الحديث إذا بلغهم ، وتوقيهم فى الفتوى(١٤) ، وتأثم بعضهم من الاجتهاد والتأويل(١٥) .

كيف نشأت العلوم الدينية . كان ظهورها فى المدينة استجابة لدواعى دينية تعليمية وعملية . إن منزلة القرآن الرفيعة لدى الصحابة هى التى دفعتهم إلى التماس كل ما من شأنه أن يزيدهم فهماً لنصه وعلماً لمعانيه ؛ ثم أدى بهم الاخلاص لمبادئهم إلى العمل على نشرها فى الأمصار المفتوحة لتفقيه الشعوب الحديثة العهد بالإسلام : هذه هى بإيجاز أسباب نشأة علمى التفسير والحديث . وأما الفقه ، أى التشريع ، فقد دعا إليه وجوب العمل على صبغ المجتمع ، سواء المجتمع العربى البسيط ، أو بالأحرى ، بمجتمع البلاد المفتوحة

المتحضر المتعقد، بالطابع الإسلامى، وفقاً لمقتضيات دين لا يفرق بين السلطتين الزمنية والروحية، ولا يرضى بالتخلى عن ناحية من نواحى الحياة؛ فكان سبيل الصحابة إلى تحقيق هذا الهدف استنباط القوانين الشرعية أولا من القرآن ثم من السنة، وفيما لم يصدر فيه نص كتاب أو حديث صحيح، الاعتماد على القياس والرأى عن طريق الاجتهاد.

وقد ذكرنا الصحابة ولمحنا إلى الحوافز التى حدت بهم إلى إرساء قواعد هذه العلوم الدينية. والملاحظ أنهم اختلفوا فى نظرتهم إلى هذه العلوم، لعوامل متعلقة باستعداداتهم العقلية واللغوية والثقافية، وبمدى ملازمتهم للرسول وأخذهم عنه. فلما تفرقوا فى الأمصار، كان طبيعياً أن يظهر أثر هذا التفاوت بينهم فى صورة مناحٍ واتجاهات متمايزة، اعتبرها المؤرخون مدارس دينية من باب التوسع وإطلاق القول. ولا شك أن هذه المدارس هى المسئولة عن نشأة المذاهب الفقهية وتبلورها على يد الأئمة الأربعة، الإمام أبى حنيفة، المتوفى سنة ١٨٠ ﻫ / ٧٦٧ م، والإمام مالك، المتوفى سنة ١٧٩ ﻫ / ٧٩٥ م، والإمام الشافعى، المتوفى سنة ٢٠٤ ﻫ / ٨١٩ م، والإمام أحمد بن حنبل، المتوفى سنة ٢٤١ ﻫ / ٨٥٥ م. ولنلاحظ أن مذهبين من هـــذه المذاهب الأربع أخذا فى التكوين فى كنف الأمويين: إذ أن أبا حنيفة ولد سنة ٨٠ ﻫ / ٦٩٩ م فى العراق، بينما ولد مالك فى المدينة سنة ٩٦ ﻫ / ٧١٤ م[١٦].

مراكز العلوم الدينية. تكلمنا فى غير هـــذا الموضوع عن المدينة وإشعاعها العلمى: إنها المدرسة الأم التى فاخرت بتعاليم الرســول ومن خلفه من أشهر أعلام الصحابة[١٧]. وهذا بحد لم تستطع أن تباهى به مدرسة مكة ولا مدرستا العراق: البصرة والكوفة، ولا مدرسة الشام، أو مدرسة مصر. ولعل أعلام الصحابة هؤلاء من مهاجرين وأنصار، وهم الأرستقراطية التى حظيت بأوفر نصيب من مكاسب الفتوح المادية والمعنوية، هم أصحاب الفضل

فى اعتماد فقهاء المدينة على الحديث ، كما يرجع إليهم طابع السماحة والظرف الذى اشتهر به فقهاء الحجاز : بينما تُعلّل النزعة العقلية التى اصطبغت بها مدرسة العراق وميل علمائها إلى الاجتهاد والجدل بالبيئة الحضارية الفكرية الراقية التى كانت سائدة فى العراق قبل الفتح العربى .

الجدل والحياة العقلية فى العراق . ربما استحال علينا فهم بعض اتجاهات الشعر الأموى الذى سوف نتناوله بالبحث ، ومدى ما أصاب التفكير الفنى فى هذا العصر من تطور ، فيه العمق وفيه التخصص وفيه الحِجاج والجدل ، إذا نحن لم نحسن تصور البيئة العقلية التى سادت العراق وصبغت التفكير العربى فيه .

وكما أنه كتب للفكر العربى فى بيئة الحجاز الوثيقة الصلة بالدين وأصوله أن يميل إلى العلوم النقلية ، من تفسير وحديث وتشريع لا يعترف بالرأى والاجتهاد ، كذلك قدر للفكر العربى فى العراق أن ينحى منحى العلوم العقلية ، سواء فى موضوعاته أو فى أسلوب تفكيره . وهذا طبيعى لبيئة راقية كالعراق ، حيث النزعة إلى البحث كانت إرثاً قديماً ، سبق التأثير الرومانى البيزنطى بقرون عدة ، فما بالك بهذه النزعة بعد أن انحدرت إلى العراق ، مع النصرانية ، الفلسفة اليونانية ، وقد عمد السريان إلى ترجمتها إلى لغتهم ، فزاد انتشارها وعم البلاد إشعاعها ، فأنشئت فيه المدارس ويمم شطرها المدرسون اليونان وغير اليونان من مدارس الشرق ، لا سيما بعد غلق مدرسة أثينا الوثنية[١٨] ، وبعد أن انتحل أهل الحيرة والعراق مذهب النساطرة ، وما تبع ذلك من نقاش عقائدى مع المذاهب المسيحية الأخرى .

فلما فتح العرب المسلمون هذا القطر ، كان لا مناص للفقهاء والوعاظ من أن ينهجوا هذا المنهج العقلى فى بيئة تعتز بالعقل وبتراثه التليد . وهذا فى رأينا هو السبب الأول فى رجحان الفقه المبنى على الاجتهاد والرأى فى العراق[١٩] .

ولا غرابة بعد ذلك أن يصطدم الفقهان ، النقلي والعقلي ، وأن يؤدى القول بالرأى إلى احتدام خلاف آخر ينشأ فى حلقات فقهاء العراق أنفسهم وفى مجالسهم العامة والخاصة .

أضف إلى ذلك دواعى أخرى جاءت تغذى هذه النزعة المستوطنة إلى إعمال الفكر الناقد غير المستسلم ، وهى نزعة عربية خالصة ، جاء بها فى ركبهم العرب الفاتحون ، إلى البصرة وإلى الكوفة ، كما كانوا يأتون بها حيث حلوا ، نريد هذه العصبية القبلية النزّاعة إلى المنافسة والتفاخر والتحدى ، تلك التى خبتْ نارها دون أن تُطفأ تحت حملات الإسلام . وربما كان للدولة الأموية ضلع فى إذكاء ضرامها ، لأنها قامت بالقهر والحيلة ، فلا مفر لها من عصبية تسند عرشها . وإذا علمنا أن هذه القبائل التى كانت بالأمس تتخاصم تتهاجى فى الجزيرة العربية ، وقد تفرقت منازلُها على طول الجزيرة وعرضها ، أصبحت اليوم ألصق ما تكون مجاورَةً ، فى الكوفة أو فى البصرة ، لا تفصل بينها سوى دروب ضيقة لا تحول حواجزها دون المخاصمة ، بل ودون الاشتباك كلما نعق غراب الفرقة ، أيقنا أن الحرب اللسانية كانت من مستلزمات البيئة العربية فى العراق .

ثم نحن لا نطيل الوقوف عند الأحزاب السياسية من زبيرية وخوارج وشيعة وأموية ، ولا عند الفِرَق الدينية وانقسام الناس حول أئمتها إلى قائلين بالإيمان ، أو بالأعمال ، بالتفكير أو بالإرجاء ، بالجبرية أو بالقدرية ، وكلها معسكرات راحت السياسة الأموية الماكرة تنفخ فى نارها ، كلما لاح لها فى أحد الآراء المتناقضة حجة أو دعامة ؛ فتجدها مالت إلى مسألة الإيمان ومالت إلى الجبرية ، ومالت إلى المرجئة ، وغرضها من ذلك كله أوضح من أن نفصل القول فيه .

وإذا كان قادة النقاش وزعماؤه فى المساجد الفقهاء ، فكانت الزعامة للشعراء فى المِرْبد ، وهى سوق البصرة ، والكُناسة ، سوق الكوفة ، ولا غرو ، فالعربى مطبوع على الشغف بالقول الموزون المقفى الجميل .

ولكننا لا نستطيع أن نغفل طغيان هذه النزعة التى حولت الشعر إلى حلبة يتبارى فيها الشعراء بالحجاج والجدل ، متناسين لغة الشعر التى هى لغة الأحاسيس والأخيلة وموسيقى اللفظ والنظم ، بقصد المتعة الفنية ، لا الإلحام بالجدل والمحاجة .

النهضة الأدبية . الشعر

إذا كان الشعر أداة العربى المفضلة للتعبير عن نفسه ، وإذا كان صحيحاً أن العرب أصابوا فى العصر الأموى حضارة راقية تغيرت معها ملامح شخصيتهم ، بما فى ذلك المشاعر والعقلية والنظرة إلى الحياة وقيمها ، كان لابد من أن نجد أثر ذلك كله فى شعرهم : فقد كان سجلهم الفريد قبل الإسلام ، ولم يخاصمه الدين الجديد هذه المنزلة الرفيعة ، وإن عارض بعض قيمه الجاهلية الفاسدة . ولا يجدى الاستناد إلى قلة المعانى الإسلامية فى شعر الثلاثين أو الأربعين سنة التى أعقبت ظهور الإسلام ، للقطع بعداء هذا الدين للشعر ، لسبب بسيط ، وهو أن الإنسان قد يغير طراز لبسه وأسلوب معيشته من طعام وشراب وسكنى ، بين يوم وليلة ، تحت تأثير بيئة جديدة ، ولا يرضى بأن تمس مقوماته العقلية والروحية عن طيب خاطر ، مهما بلغ ضغط الظروف من قوة : إن تغيير النفس أمر لا يقوى على تحقيقه سوى الزمن ، ولا شك فى أن هذا العامل الجبار ، بالإضافة إلى العوامل البيئية الأخرى ، تمكن من تأدية دوره وإنجاز عمله فى الأربعين سنة التى سبقت قيام الخلافة الأموية .

النزعة الدينية فى الشعر الأموى

لقد ظهر أثر الدين فى الشعر الأموى فى صور شتى ، ليس أقلها أهمية شعر الزهد والنسك ، حتى أن الفرزدق نفسه ، وهو الشاعر الذى اشتهر

بالفسق والاستهتار ، لا يخلو ديوانه من هذا الغرض الدينى ، كما يتضح ذلك فى قصيدته الميمية التى هجا فيها إبليس ، أو كما تلمس ذلك فى هذه الأبيات التى قالها وهو بإزاء قبر زوجته النوّار ، عندما سأله الحسن : « ماذا أعددت لهذا المضجع ؟ »[٢٠]

ولكن لعل أثر الدين يبدو لنا أقوى وأعمق إذا لمسناه فى أثناء معالجة الشعر للأغراض العامة غير الدينية : فى المعانى والأخيلة ، فى الصور والتشبيهات ، فى الألفاظ المقتبسة من القرآن أو الحديث أو من العلوم الدينية ومصطلحاتها . .

تصفح الشعر الأموى ، تجد خليفة ، هو عمر بن عبد العزيز يُمدح بالزهد فيما يَفنى وبالإعراض عن مغريات الدنيا[٢١] ، وتجد والياً هو مصعب ابن الزبير ، يمدحه ابن قيس الرقيات بأن « ملكه » يتجلى فيه التواضع إلى جانب قوة « ليس فيها جبروت ولا كبرياء » ؛ أما الحجاج ، فى نظر الفرزدق ، فهو « عون على التقى » ، « يضرب بسيف الله » ومعاملته للناس نزيهة لا تلحق بها الرشوة لأن الناس عنده إما فى سبيل الحق وإما فى سبيل الباطل .

والعشاق أنفسهم لا يشذون عن هذه القاعدة ، ولعلهم يعتقدون أن سهم الدين أنفذ السهام إلى قلب الحبيب ، فتراهم يغفرون ذنبه حين يصد (عمر ابن أبى ربيعة) أو يمسون خاشعين ، يتضرعون لمن يحبون ، وقد قتلنهم دون أن يتقين الله فيهم (جميل بن معمر) .

فإذا عمدنا إلى الشعر السياسى نستنطقه ، راعنا أن نجد أكثر ألحانه توقع على وتر الدين . إن ديوان شاعر خارجى كالطرماح بن حكيم الطائى يتضح بحماسة دينية بالغة ، عمادها عقيدة راسخة استولت على كل شعاب النفس ، دفعت أصحابها إلى الاستبسال فى سبيل إعادة المسلمين الضالين ، كما كانوا

يتوهمون ، إلى جادة الطريق التى حادوا عنها بقتل الخليفة عثمان . ثم بقبولهم التحكيم . لذلك فإن خروجهم مرحى يحتمه عليهم الدين . وإلا فصيرهم إلى النار وهم فى نضالهم يجمعهم الهدى وتقودهم للتقوى .

وإذا تصفحت ديوان شاعر شيعى أو أموى طرقت مسامعك النغمة ذاتها : فالشيعة ، كيسانية كانت أو زيدية ، لا تزال تردد أن الإمامة لمن ورثها ، على حسب اعتقادهم ، « نصاً وتوصية » من الرسول ، أى لعلى بن أبى طالب وأبنائه : ففيهم الإمام الطاهر المعصوم ، العالم بأمور الدين والدنيا ، ومنهم المهدى المنتظر الذى سيطهر الأرض ويملأها عدلا وخيراً وتقوى .

وأما شعراء الحزب الأموى فقد أضفوا على دعوتهم هذه الصبغة الدينية التى تلوّن بها شعر الشيعة ؛ فإن عليّ الأنصارى الملقب بالأحوص ، وجرير والفرزدق ، كلما دعَوا للدولة القائمة ، أفاضوا فى القول بإرث النبى الذى آل إلى بنى أمية ، وباختيار الله لهم واصطفائه إياهم لسياسة أمته ولإعلاء شأن دينه ، فهم الأئمة ؛ وأما عمالهم ، من مثل زياد بن أبى سفيان ، أو الحجاج ، فهم سيوف الله المسلة التى يكفل الله لها الغلبة والنصر ؛ وبهم ، خلفاء وولاةً ، تتحقق آيات الكتاب .

أظن أنه قد اتضح لنا أن الشعر الأموى يعبر عن انقلاب دينى عميق ، أصاب المجتمع بطبقاته ، فبدل نظمه وقيمه ، ولم يقف أثره عند الظواهر والقشور ، بل راح يتغلغل فى أعماق التفكير والوجدان ، فصاغه الشعراء ، وهم لسان المجتمع الفصيح ، معانى وصوراً ، فيما أصدروه من قول منظوم ، أياً كان غرضه ، مدحاً أم هجاء ، دعوة سياسية أم غزلا . وكان هذا الدين من السعة والرحب بحيث فتح صدره لكل أغراض الشعر ولكل مجالات القول التى انطلق فيها اللسان العربى .

النزعة العقلية فى الشعر الأموى

إن النزعة العقلية التى نشهدها فى الشعر الأموى لا يَبخس من قيمتها كونها مقتصرة — أو شبه مقتصرة — على العراق : فمهما يكن من أمر ، حسْبها برهاناً على أن العقل العربي قد شب عن الطوق ، وكأنه نعى على شعره الموروث ضآلة عناصره الذهنية والفكرية ، وشكا من إفراطه فى مخاطبة الخيال والوجدان ، فراح يطرق منطقاً آخر ، منطق البحث العميق والاستقصاء ، ومنطق المحاجة والنقاش ، فاستحال منبراً واستحال الشاعر خطيباً مناضلا ، يجابه العقـــول ، ويقرع بالحجج ويحاول الإفحام بالأدلة والبراهين .

انظر مثلا إلى فن الهجاء ، هذا الفن العربي القديم الذى أثارته منافسات القبائل على مرابع الكلأ وموارد المياه ، وأذكته نزعتهم إلى الغارة والثأر ، كيف أضحى فى هذا العصر نهراً قوياً زاخرى اسمه النقائض ، تلتقى فى مجراه روافد من القديم ومن الحديث : أما القديم فأيام وغزوات وأنساب وأحقاد وقِيم ، طالما دار فى نطاقها التفاخر والمديح والهجاء ، وأما الحديث ، فالتاريخ الإسلامى للقبيلة ومواقفها إزاء الحوادث الكبرى التى اختلفت فيها كلمة المسلمين ، وما يتصل من كل ذلك بالخلافة الأموية القائمة ، وما أوجدته من فرق وأحزاب .

وقد اكتسب فن النقائض من مجالس الفقهاء هذه الروح الجدلية وهذا الأسلوب القائم على المعاندة ، المحاجة والتحدى ، بالإضافة إلى هذا الذكاء وهذه السخرية اللاذعة التى تفطن إلى مواطن العيوب عند الخصم ، وتبرع فى كشف عنها النقاب ، لتبرزها فى أبعاد كاريكاتورية لا تخلو أحياناً من الفحش والاقذاع ، ولكنها دوماً تستفز المستمعين ، فيعلو ضجيجهم بالضحك والتهليل والتهريج . وكلنا يذكر بيت الأخطل فى قوم جرير :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم ٭ قالوا لأمهم بولى على النار

ورد جرير فى قوم الأخطل :

والتغلبي إذا تنحنح للقرى ٭ حك استه وتمثل الأمثالا

وقد نهض شعراء من الطبقة الأولى ، هم جرير والفرزدق والأخطل ، ليقدموا لهذا المجتمع البصرى المثقف ، عن طريق النقائض ، غذاء نقياً فاخراً ، جمعوا فيه العناصر العقلية والوجدانية وأحكموا تركيبها ، بعد أن مزجوا فيها الجد بالهزل ، فخرجت فى زى المبارزة والمناظرة والمباراة ، وكأنها لعبة راقية تهافت الجمهور العاطل على تتبع مشاهدها ، دون ما إثارة للأحقاد ، ولا انحطاط عن مستوى المتعة الفنية الخالصة(٢٢) .

ويطول بنا الكلام لو تعرضنا إلى شعراء الأحزاب ، أصحاب النظريات فى الخلافة وشروطها ، الذين كانوا دعاة بشعرهم للزبيريين أو الخوارج أو الشيعة أو الأمويين : فإنهم جميعاً اتخذوا الاستدلال والجدل وتوليد المعانى والحجج ، وسيلة لدعم آرائهم وإفحام خصومهم . وقد برز فى هذا الميدان من شعراء الخوارج الطرّماح بن حكيم ، وقطرى بن الفجاءة ؛ ومن شعراء الشيعة الكيسانية كُثَيِّر الشهير بكثير عزة ، ومن شعراء الشيعة الزيدية الكميت ابن زيد الأسدى فى هاشمياته . ومن شعراء الأمويين ، وهم الأكثرية ، على الأنصارى الملقب بالأحوص وجرير والفرزدق .

وظاهرة أخرى ينبغى أن نلمح إليها لأنها من نتاج النزعة العقلية الجديدة : التخصص فى أحد فنون الشعر . فهذا جرير والفرزدق والأخطل يكتبون دواوين ضخمين فى فن النقائض : نقائض جرير والأخطل ، ونقائض جرير والفرزدق ؛ وهذا الكميت يكتب الهاشميات فى الذود عن بنى هاشم ، وبصفة خاصة فى إثبات حق إمامة زيد بن على بن الحسين فى الخلافة ؛ وهـــذا ذو الرُّمّةِ يتخذ من الصحراء ووصفها وصف الفنان المولع بحبها — أكثر

من ولوعه بحب صاحبته «مَيَّةَ» — موضوعاً للوحات اتصفت بالرقة والحياة والافتنان(٢٣) . وهذا عمر بن أبى ربيعة ، لا يكاد ينشد فى غير الغزل ، هـذا الغزل الخاص الذى اشتهرت به بيئة الحجاز فى هـــذا العصر ، كما سنرى فيما بعد .

النزعة إلى اللهو والغزل فى الشعر الأموى

أليس عجيباً أن يستأثر بأدب والحجاز ، الحجازُ معقل الدين الإسلامى ومهد اللغة العربية المشتركة ، شعرٌ غزلى لاه متهافت ، لا يكاد يمت إلى الأدب العربى التقليدى بصلة ! . . .

استأثر هذا الغزل بالقصيدة ، فجمع شتاتها فى غرض واحد لم تبرحه إلى سواه ، بعد أن حد من طولها . فلم تتجاوز أبياتها العشرة . أما موضوعها فوصف دقيق لمحاسن المرأة ومفاتنها ، فى كل ما يبـدو منها من حركات وسـكون ، ومن صمت وحديث ، ومن إقبال وإدبار ، ذلك فى أسلوب قصصى ، يسرد قصة الحب وأحداثه ووقائعه الوجدانية فى رقة شعور بالغة ، وذوق جديد دخيل ، لم يعهده الأدب العربى من قبل . فإذا تلمّست العواطف ، هالك أن تجدها متبلورة حول التهالك على المرأة والتفانى فى حبها والتقرب إليها والعمل على إرضائها ؛ بل لعلك تُفاجأ وأنت تقرأ على لسان الشاعر وصفاً للمرأة العاشقة الهائمة بالرجل ، المتغنية بوسامته ورقته وظرفه ، وهذا أيضاً طريف .

وأما أسلوب هـذا الشعر فسهل متهافت ، هجر الجزالة العربية والفصاحة سواء فى لفظه الذى لا يخرج عن الألفاظ المتداولة فى قضاء الحاجات اليومية ، أو فى معانيه البسيطة القريبة ، أو فى أوزانه القصيرة ، القليلة المؤونة على الأذن وعلى اللسان : فإذا تعـداها إلى وزن طويل لم يستخدمه إلا مجزوءاً قصيراً .

هكذا ظهر الغزل فى بيئة الحجاز . ونحن لا نشك فى أن قائليه عرب : فهم أبو دهبل الجمحى أو عمر بن أبى ربيعة أو ابن قيس الرقيات أو العرجى ، فى مكة ، وفى المدينة الأحوص . ونضيف إليهم الوليد بن يزيد فى دمشق ؛ وغيرهم كثيرون .

ولكن ما فى الأمر من غموض لا يلبث أن ينجلى إذا أمعنا النظر فى روايات أبى الفرج الاصبهانى فى كتاب الأغانى : فهى تفيد أن هذا الشعر لم ينشأ مستقلا وإنما كُتِبَ ليتغنّى به المغنون والمغنيات ؛ وأن الأصوات أو الأدوار التى راجت حينذاك لم تكن عربية ؛ وأن الذين استحدثوها هم أبناء الفرس والروم وبناتهم من سبى فارس والشام ، وقد غص بهم الحجاز ، واستخدمهم العرب فى شئون حياتهم العامة والخاصة . وقد نبغ منهم فى فن الغناء كثير ، أشهرهم ابن سريج والغريض ، ومعبد ، وسعيد بن مسجح ، وابن محرز وطويس ، وسائب خاسر ، ونشيط ، وسلامة القس ، وحبابة ، وبرد الفؤاد ؛ وأن الذى دعا إلى رواج هذا الفن إنما هو الشباب المترف العاطل الذى لم تشغله العلوم الدينية ، ولم تغْرِه حياة الزهد والورع ، فراح يبحث عن اللهو والمتعة ، باصطناع مختلف وسائل الترفية والتسلية ، بفضل ما درت عليه الفتوح من نعمة وارفة وثراء سابغ .

ونحن لا نزعم أن المرأة العربية عاشت معتصمة فى برج عاجى من الوقار والحشمة ، بمعزل عن هذه الحياة الصاخبة العابثة التى كانت تجرى حوادثها وتدور مشاهدها تحت سقفها أحياناً ، وقريباً من سمعها وبصرها دائماً . وإذا علمنا أن كثيراً من الرجال ، آباء وأزواجاً وإخوة ، نأت بهم الحروب أو مهام الإدارة عن الأهل والديار ، أيقنا أنه لم يكن مفرّ للشابة العربية من أن تسير مع التيار ، فتتخلى شيئاً فشيئاً عن تحفظها وحشمتها ، فتصبح حياتها هى أيضاً مسرحاً لقصص الحب وحوادث الوجدان .

ولكن الذى نزعمه أن المرأة العربية لم تكن هى المسئولة عما أصاب الشعر العربى فى الحجاز من تطور ، هو إلى الانحطاط أقرب منه إلى الرقى والتقدم ، إذا استثنينا بطبيعة الحال ما شاع فيه من رقة إحساس ، وظرف وعذوبة ، هى أليق بموضوعه دون جدال مما ورثه من العصر الجاهلى .

قال الدكتور شوقى ضيف : « ولعل من أهم ما يلاحظ بصدد هذا الفن أنه أحال شعر الحجازيين إلى ما يشبه أن يكون عملا مشتركاً بين الشعراء وبين المغنيات والمغنين ، إذ كان الشاعر ينظم شعره ، ثم يعرضه على من حوله من المغنين والمغنيات ليغنوا به ، فكانوا يحورون فيه حتى يتلاءم مع ألحانهم وأنغامهم »[١٤] ، بل ومع حناجرهم غير العربية ، أو قلة إدراكهم لمعانى اللغة العربية الفصحى .

وهناك بيئة غزلية أخرى هى بيئة نجد ، التى شاع فيها غزل عفيف ، اشتهرت به قبيلة عذرة فنسب إليها ؛ وهو غزل امتاز بوصفه للواعج الحب ولوعة القلب وحسرة الصد ولهفة الحرمان ، فى سذاجة وصدقِ عاطفةٍ وبعد عن التصنع والتكلف .

ويرى النقاد أننا بإزاء تقليد أدبى جديد فى ميدان الغزل ، نتج عن تفاعل البيئة النجدية المحافظة مع الروحانية والصفاء اللذين جاء بهما الإسلام ، فأدى ذلك إلى ما يميل الدكتور شوقى ضيف إلى اعتباره أدباً شعبياً . ومن أشهر ممثلى هذا الأدب قيس بن ذريح ، وعروة بن حزام ، وجميل بن معمر العذرى ، وقيس بن الملوح من بنى عامر ، وهو الملقب بمجنون ليلى .

شروح وتعليقات

(١) كتابه الشهير بهذا الاسم ٠

(٢) قارن سورة يونس (١٠) آية ٦ ، والجاثية (٤٥) ، آية ٥ ، والأعراف (٧) آية ١٨٥ ٠

(٣) ونقرأ فى القرآن ، سورة التوبة (٩) ، آية ٦٠ : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » ٠

(٤) وفى سورة الحشر (٥٩) ، آية ٧ : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » ٠

(٥) « لما ولى أبو بكر رضى الله عنه سوى بينهم فى العطاء قائلا : « هذا معاش فالأسوة منه خير من الأثرة » ٠ ولما ولى عمر رضى الله عنه جعل العطاء بحسب السبق الى الاسلام » ٠ الدكتور حسن ابراهيم حسن فى (تاريخ الاسلام السياسى) ، ص ٦٠٨ ٠

(٦) (فجر الاسلام) ، ص ١٦٨ ٠

(٧) قال شكرى فيصل : « كان دخول جماعة غريبة عن الأدب العربى وتلقفهم له ، ليس مقصور الأثر على الأعاجم أنفسهم ، ولكنه أثار مثل هذه العناية عند العرب كذلك ، لأنه لفتهم الى أن ينظروا فى تراثهم هذا ، وأن يذكروه ويتذاكروه ، وأن ينسجوا على غراره ٠ كان تنبيها لهم واستثارة لقواهم الفنية الراكدة » ٠ (المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول) ، نقلا عن (الجديد فى الأدب العربى) ص ٢٢٧ ٠

(٨) نقلا عن (فجر الاسلام) ، ص ١٨٠ ٠

(٩) المرجع ذاته ، ص ١٨٠ ٠

(١٠) المرجع ذاته ، ص ١٨٢ ٠

(١١) (الدولة الاسلامية) ، تأليف محمد مصطفى زيادة وآخرين ، ص٧٨ ٠

(١٢) (فجر الاسلام) ، ص ١٨٥ . ويرى أحمد أمين أن « شعور بعض الخلفاء بالحاجة ، فى سياسة الدولة ، الى تعرف أخبار الملوك فى الأمم الأخرى وسياستهم ونظامهم » كان مصدرا من المصادر التى نبعت منها الحركة التاريخية .

(١٣) « كان ديوان الخراج (المالية) يكتب بالفارسية والرومية (هكذا) الى عهد عبد الملك بن مروان ، فنقل عبد الملك ديوان فارس والشام الى العربية ، ونقل ابنه الوليد ديوان مصر الى العربية » ، (تاريخ الاسلام السياسى) ، ص ٥٩١ .

(١٤) تشهد المصادر الاسلامية أن عبد الله بن عمر بن الخطاب كان «يتحرى ألفاظ النبى صلى الله عليه وسلم بدقة .. لا يزيد فيه ولا ينقص منه ..وأن الورع والخوف من الله حملاه على ألا يكثر من الفتوى » ، (فجر الاسلام) ، ص ١٧٤ .

(١٥) يروى صاحب العقد الفريد أن عمر بن الخطاب قال يوما لعبد الله بن عباس : « كدت استعملك ، ولكن أخشى أن تستحل الفيء على التأويل » .

(١٦) يجمع مذهب الامام الشافعى ، بين طريقة أهل الحجاز وطريقة أهل العراق ، بينما يعتمد الامام أحمد بن حنبل فى مذهبه على أهل الحديث .

(١٧) نذكر منهم عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ثم زيد بن ثابت الأنصارى وعبد الله بن عمر بن الخطاب .

(١٨) أغلقها الأمبراطور جستنيان عام ٥٢٩ .

(١٩) يروى ابن سعد أن شخصا سأل الحسن البصرى عن فتوى أصدرها، أبرأيه أم سمعها ، فقال : « لا والله ما كل ما نفتى به سمعناه » . عن كتاب (التطور والتجديد فى الشعر الأموى) ، للدكتور شوقى ضيف ، ص ٧٧ .

(٢٠) قارن المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٢١) قارن المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٢٢) قارن المرجع السابق ، ص ١٤٣ الى ص ٢٣٨ .

(٢٣) قارن المرجع السابق ، ص ٢٦٥ الى ص ٢٩١ .

(٢٤) قارن المرجع السابق ، ص ٣١ .

الفصل التاسع

الحضارة البيزنطية

الموجـــز

تمهيـــد : إنصاف وتقدير

١ ـ الحاكم المطلق والإدارة الصارمة :

أصول نظرية الحكم

الكابح الأول للسلطان المطلق : الدين

الكابح الثانى : البيروقراطية

التوازن العجيب

٢ ـ الدين ومظاهره : الجدل الدينى

الشغف بالصور

الحياة الديرية

٣ ـ الفن : الفن المعمارى

الفن الزخرفى

٤ ـ الثقـــافة : تراث هذا العصر

المستوى الثقافى العام

الحرص على التراث القديم

تمهيـــد

إنصاف وتقدير

لم يحظ تاريخ الحضارة البيزنطية لدى مؤرخى الغرب القدماء بالعناية التى يستحقها فنهم من اعتبر الدولة البيزنطية ملحقاً ، أو زائدة مُذَيَّلة للتاريخ الرومانى ؛ ولما لم يجدوا فى تاريخها تلك المعالم التى خلدت الحضارة الرومانية الغربية ، استهانوا بهذه الحضارة ولم يعيروها انتباهاً ولا تقديراً . فهذا إدوارد جبون Edward Gibbon ، وهو من أعظم مؤرخى الإنجليز للعصور الوسطى ، لا يتحدث إلا عن سفاهات البيزنطيين وآثامهم ؛ فالدولة البيزنطية فى نظره ليست سوى عنوان للحكم المطلق والاحتفالات الجوفاء والمجادلات اللاهوتية العقيمة ، والقسوة والخرافات[1] وأما مواطنه وخلفه فنلى Finlay ، فكان أكثر رحمة من سلفه ، فى اعتباره تاريخ الدولة البيزنطية مدخلا لتاريخ اليونان الحديث ، ليس إلا ! .

لكن المؤرخين المحدثين لم يسايروا هذه النظرة القاسية المتحيزة ، الخالية من الموضوعية . وحسبنا أن نسأل هؤلاء القائلين بتفاهة الحضارة البيزنطية وضآلة شأنها ، كيف يعللون إذن بقاء هذه الدولة فى الوجود ، ما لا يقل عن عشرة قرون ، بعد سقوط روما ؟ . . . عشرة قرون عاشتها فى نضال مستميت غير منقطع فى سبيل البقاء ، وكأنها لم تلق السلاح قط طول هذه الحقبة ، فاستمرت فى صراع مقيم ، تناوبت فيه الأعداء من فرس وقوط ولمبارديين وصقالبة وبلغار وهون وآفار وعرب ، فنازلتهم وحدها فى جميع الجبهات ، بل وتحت أسوار العاصمة ذاتها . . . وقد مُنيت بالهزيمة تلو الهزيمة ، فكانت لا تلبث أن تنهض من عثراتها ، يحدوها إيمان راسخ لا يتزعزع فى عون السيد المسيح والعذراء والقديسين ! .

كيف تعتبر من سقط المتاع تلك الحضارة التى كان لها الفضل الأكبر فى خلق الأدب والهندسة المعمارية وفن الزخرفة والتصوير ونظم الإدارة والدواوين فى معظم البلاد السلافية ، حتى أن ف . ه . مارشال F. H. Marshall يعتقد « أنه لا يمكننا فهم روسيا ويوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا ، وربما أيضاً تركيا ، فى الوقت الحاضر ، ما لم ندرك ماتدين به لبيزنطة »[٢] .

ربما فات هؤلاء المتشائمين أن الدولة الرومانية ، منذ أن استقرت أقدامها فى الولايات الشرقية ، أخذت تخضع لعوامل هلينستية — فارسية ، كما يشهد بذلك عهد الإمبراطور أوريليانوس (٢٧١ — ٢٧٥ م) والإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥)[٣] . وقد تضاعف أثر هذه العوامل بعد انتقال العاصمة تجاه الشرق ، إلى البوسفور ، فدعا ذلك إلى نبذ اللغة اللاتينية ، لغة الغرب[٤] ، وإلى توطيد روح النزاع الذى دارت أكثر معاركه فى ميدان الدين ، فبات خافتاً مستتراً حيناً ، واشتد أواره حيناً آخر ، حتى انتهى بالانشقاق الذى أشرنا إليه مراراً ، عام ١٠٥٣ م .

فإذا حاولنا تحليل الحضارة البيزنطية إلى عناصرها ، وجدنا أكثرها شرقياً ، ينتمى إلى الحضارة الهلينستية أو الفارسية أو الفرعونية أو السورية أو إلى الدين المسيحى . . ولا نكاد نعثر إلا فى مجال القانون والتنظيم الإدارى على عناصر ترجع إلى أصل رومانى .

إذن ليس من الحكمة أن تعتبر الحضارة البيزنطية امتداداً أو ملحقاً لحضارة روما . نحن بإزاء « خلق جديد » une création nouvelle ، كما يقول كرستوفر داوسون[٥] ، حضارة جديدة ، ذات شخصية بارزة وموحدة ، بالرغم من اختلاف الموارد التى استقت منها أصولها ومقوماتها .

وسنحاول فيما بقى من صفحات هذا الكتاب ، اكتشاف الخطوط الرئيسية التى سارت عليها هذه الحضارة ، لعلنا نستطيع إدراك وجهها الحقيقى ، رغم ما نحن ملزمون به من إيجاز .

١ — الحاكم المطلق والإدارة الصارمة

(١) أصول نظرية الحكم البيزنطى . إن النظرية التى استندت إليها سلطة الإمبراطور فى الدولة البيزنطية لم تكن بمستحدثة فى أكثر تفاصيلها . لقد ظهرت بوادرها فى روما ، منذ منتصف القرن الثانى الميلادى ، فى أثناء حكم أسرة الأنطونينيين Les Antonins (١٣٨ — ١٦١) ، ثم أخذت معالمها تستقر شيئاً فشيئاً فى فترة حكم السفيريين Les Sévères (١٩٣ — ٢٣٥) تحت تأثير عوامل شرقية ، اقتحمت العالم الرومانى من طرق عدة ، منها حملات الأباطرة فى الشرق ، ومنها تأثرهم بزوجاتهم الشرقيات[٦] ، أو بكبار الموظفين الشرقيين .

وأهم ما فى هذه النظرية القول بالملكية المطلقة ذات الحق الإلهى ؛ وهو مبدأ وضعته مصر الفرعونية ، وسار عليه البطالسة ، ثم أحيته أخيراً الدولة الساسانية منذ أن قامت فى فارس على أنقاض دولة البارثيين سنة ٢٢٤ م .

وقد أكدت التنظيمات التى استحدثها دقلديانوس[٧] . ثم طورها قسطنطين هذه النزعة إلى استئثار الأباطرة بكامل سلطات الدولة ، إذ جعلت القوة المسيطرة كلها فى يدى الإمبراطور ، سواء فى المجال العسكرى ، لإناطتها به رياسة الجيش ، أو فى المجال المدنى ، لجعلها حكام الولايات مسئولين أمامه دون سواه مسئولية مباشرة . وبازدياد التأثير الشرقى ، خطت هذه النظرية خطوة جديدة ، فأضحى الإمبراطور المصدر الوحيد لجميع السلطات ، ولم يعد هناك مصدر آخر يقف إلى جانبه ليقاسمه السلطان ، كما كانت الحال فى روما ،

بالنسبة إلى طبقة الأشراف ، ممثلة فى مجلس الشيوخ ، أو إلى طبقة الشعب ، ممثلة فى الجمعيات الشعبية .

ولا نعنى أن السناتو أو الشعب قد زالا من الوجود كهيئات اجتماعية أو سياسية لها كيانها : فقد بقى ترشيح الإمبراطور من اختصاص مجلس الشيوخ ، فى حين أن الشعب كان يدعى لتأييد هذا الانتخاب . ولكن هنا كانت تنتهى مهمة هاتين الهيئتين ، لتبدأ مهمة الإمبراطور ، وكأنه قد استوعب جميع السلطات بمبايعة السناتو والشعب إياه . ولا يظن من هذه المبايعة أنه كان يستمد سلطاته من هاتين الهيئتين ؛ لقد كان أساس حكمه التفويض الإلهى . كما كان يعتبر ظل الله ونائبه على الأرض . وكان كل ما ينتمى إليه : الذات ، والإرادة ، بل الملبس والمسكن . . . كله كان مقدساً ومحاطاً بمراسم الاحترام البالغ والتبجيل . .

(ب) الكابح الأول للسلطان المطلق : الدين والكنيسة . وللقارىء أن يدهش إذا علم أن هذا السلطان الجبار لم ينحدر بصاحبه ، بوجه عام ، إلى هاوية الحكم الدكتاتورى المستبد غير المسئول ، باعتبار إرادته إرادة إلهية ، تستوجب الطاعة العمياء ، وهو حكم اشتهر به الشرق ، حتى صار الغربيون يضربون به المثل ، وينسبونه إليه ، فيقولون : despotisme oriental ، أى الاستبداد الشرقى .

وقد تجنبت بيزنطة هذا الخطر بفضل عاملين ، أولهما قوة الباعث الدينى : فكانت الملكية فيها تقوم على أساس مسيحى صريح ؛ والإمبراطور كان يتلقى التاج من يد بطريرك القسطنطينية . ويؤكد مارشال أنه كان عندئذ يتعهد بالمحافظة على تعاليم الكنيسة وبمعاملة الرعية باللين والرأفة ؛ كما يضيف إلى ذلك أن رجال الكنيسة والرهبان قد أدّوا خدمة جُلى فى سبيل الحدّ من السلطان المطلق ، عندما هبّوا لمحاربة الأباطرة المحطمين للصور .

ويستطرد قائلا : « وكانت سيادة قانون الكنيسة فى جميع أنحاء الإمبراطورية عنصر استقرار لم يكن لها غنى عنه[٨] » .

(ج) الكابح الثانى : البيروقراطية . وأما العامل الثانى فهو البيروقراطية ، أى هيئة الدواوين ومكاتب الحكومة التى ورثت بيزنطة نظامها من روما فى عهدها المتأخر ، مع التسليم بأن بذورها كانت لينستية وفرعونية الأصل .

ونحن لا نعنى هنا الوزراء الأربعة وهم : كونت الهبات المقدسة Le Comte des largesses sacrées ، وكونت الأملاك الخاصة le Comte des domaines privés ، وقائد الشرطة le Chef de la police ، والمشرف على مالية القصر le Questeur du palais sacré ؛ ولكننا نعنى هذا الجيش من الموظفين الذين زخرت بهم المكاتب الحكومية ، وكان على رأسهم مدير يحمل لقب مدير المكاتب le Maître des offices : فقد انتظمهم ترتيب هرمى دقيق ، يصل فى النهاية والقمة إلى الإمبراطور نفسه .

وأما العمل فى المكاتب فكان موزعاً على إدارات مختلفة ، لكل اختصاصها ؛ وأما الاجراءات ، فهى مدروسة دراسة مستفيضة ، وخاضعة لتقاليد صارمة لا يعرف المطل أو الاستخفاف إليها سبيلا .

وبواسطة هذه البيروقراطية ، تغلغل الإشراف الإدارى إلى كل المجالات سواء فى العاصمة أو فى الولايات ، فكل شىء يُستجل ، ويراقب ، وترسل فيه التقارير الضافية إلى مكاتب العاصمة ، حيث يَعْكف على دراستها عالم آخر من الكتبة والموظفين ، قبل أن ترفع إلى الامبراطور للبت فيها بما يشاء .

وهنا نرى لزاماً علينا أن نشير إلى مبدأ شراء الوظائف والألقاب ، التى كانت تعتبر مورداً جيداً للثراء . . . ولا يخفى ما يترتب على هذه

الظاهرة من احتمال الارتشاء والفساد فتتحول الوظيفة إلى صورة بشعة من صور استغلال النفوذ المهدر الحقوق . . . ولكن « لعله من الخير أن نذكر الذين يبادرون بنقد هذا المظهر من مظاهر البيزنطية ، بأن أمثال هذه الأمور ليست مجهولة فى الدول الحديثة ، برغم استتارها وراء أسلوب أكثر تهذيباً وإن كان أقل صراحة[٩] » .

(ى) توازن عجيب : ومن حقنا أن نسأل كيف حُفظ التوازن بين هذا السلطان المطلق . صاحب الحق الإلهى ، وبين هذه البيروقراطية الصارمة التى لم تترك مجالا لعبث الأهواء والنزوات الطائشة ؟ وجوابنا أنها معجزة الروح القانونية التى أُنشىء عليها هؤلاء الموظفون ، كما سنراه فيما يلى ، بالإضافة إلى فكرة الدولة Le notion de L'Etat ، التى أخذت تفرض كيانها على المفكرين ، بل وعلى الأباطرة أنفسهم ، بصفتها شيئاً مستقلا عن شخص الحاكم ، فى خدمتها تباشَر السلطات وإليها تنتمى أجهزة الإدارة .

٢ — الدين

لا يتيسر على الباحث تقدير الحضارة البيزنطية حق قدرها ما لم يقف على أهمية الدور الذى لعبه الدين المسيحى فى الحياة العامة والخاصة : ويقرر التاريخ أن الحياة العقلية كانت تدور حول محور العقائد الدينية ، وأنها استمدت من الروح الكنسية ومن اللاهوت ، لا من الفلسفة الإغريقية أو من العلوم الطبيعية والطب التى برز فيها قدماء اليونان ؛ ولا نبالغ إذا قلنا إن التاريخ والأدب ، والقانون ذاته — وهو مفخرة العصر البيزنطى العظمى — هذه العلوم التى ورثناها عن الحقبة التى نحن بصددها ، (٣٣٠ — ٧٤٠) لم تستوعب النشاط الفكرى للعالم البيزنطى فى هذه القرون الأربعة ، وإنما الذى استوعبه فهو التفكير الدينى .

ولدينا على ذلك ثلاثة شواهد :

(ا) الجدل الديني . نجد الشاهد الأول فى هذا الجدل الذى تفشى لدرجة شنيعة فى جميع طبقات المجتمع ؛ وقد زعم جريجوريوس ، أسقف مدينة نازيانز ، أنك إذا دخلت أحد مخابز القسطنطينية لتبتاع رغيفاً ، أخذ الخباز يبرهن لك أن الآب هو أعظم من الابن ، بدلا من أن يقضى لك حاجتك[١٠] . . . وإذا كان هذا جدل العامة ، فلا تسل عن جدل المثقفين وأصحاب المذاهب وأنصارهم ، ولا عن المعارك التى أدى إليها هذا الجدل ، والتى كثيراً ما أصبحت حلبةُ السباق فى الملعب ميداناً لوقائعها .

(ب) الشغف بالايقونات والصور . وإذا كان لهذا الجدل دلالته على عقول الناس فى مجتمع القسطنطينية ومدن الإمبراطورية الكبرى ، الإسكندرية وأنطاكيا والرها وغيرها ، فكان شغف الناس ، لا سيا عامة الشعب والأميين ، بالصور والإيقونات ، مظهراً آخر من مظاهر استئثار الدين بالنفوس . فقد ازدانت بالصور جدران الكنائس ، وزينت بالألوان الزاهية الوهاجة ، وكان أروعها ما صُنع من الفسيفساء ، وما كان أكثره ! فكانت تستهوى الأنظار ، وتستميل الخيال ، فيسرح فى أجوائها ، مسترشداً بما كانت تشير إليه من أحداث دينية ، ومن تاريخ وقصص ، ومن أساطير ورموز ، مستقاة من التوراة ؛ فإذا بلغت بالنفوس هذا المبلغ ، راحت تستحثها على العمل الخيِّر بما تحمل من عظة ونصح وإرشاد ، فإذا بها لا تقل فائدة وعمق أثر عن منطق الفقهاء وتفكير اللاهوتيين ، بل وتزيد . لهذه الأسباب سميت بإنجيل الفقير أو بإنجيل الرجل الأمى .

وكانت الاحتفالات الدينية الفائقة الروعة والجمال والرهبة ، من حيث الثياب الفخمة التى كان يرتديها رجال الكنيسة ، ومن حيث الطقوس الرمزية والتراتيل والأناشيد الكنسية ، تضفى جوا من الصوفية كان له أبلغ الأثر فى تمكين العاطفة الدينية من النفوس .

(حـ) الحياة الديرية : وأما الشاهد الثالث ، فهو انتشار الديرية هذا الانتشار الواسع الذى طبع العصر البيزنطى بطابعه الخاص . كان الناس وقتئذ ينظرون إلى حياة الرهبنة باعتبارها المثل الأعلى الذى يحاول أن يحتذيه من استطاع إلى ذلك سبيلا ، لأن الرهبنة تحمل معنى الشهادة الصريحة بوجود القيم الروحية وبتفضيلها على القيم الدنيوية . والراهب هو الذى يحاول الإندماج فى عالم الروح عن طريق المجاهدات وقمع الشهوات وكبح غرائز الجسد ونزعات النفس الأمارة بالسوء ، فإذا طهرت نفسه وصفت روحه ، انقشعت عندئذ عن بصيرته تلك الأغشية التى تحول دون التمتع بعالم الإيمان . فلا عجب إذن إذا قرأنا أن كبار القوم وأصحاب المناصب الرفيعة ، مثل أرسين Arsène ، الوصى على أركاديوس ابن الإمبراطور هونوريوس ، كانوا يهرعون إلى الأديرة ، لا هرباً من المسئوليات ، بل تقرباً إلى الله واستعداداً للحياة الآخرة .

ولم يكن فى وسع الأباطرة والأمر هكذا ، أن يتجاهلوا هذا الواقع الدينى ، بل كان من الطبيعى أن يتخذوا الدين أداة لخدمة سياستهم ، وبخاصة كلما أوشك الخلاف الدينى أن يمزق وحدة الشعور فيخدم الأغراض الانفصالية التى كانت تتنازع أجناس الإمبراطورية المختلفة . ولكن كثيراً ما دفعهم غرور السلطان وقلة الدراية فى شئون العقائد واللاهوت إلى التورط فى صيغ التوفيق أو إلى استعمال القوة لإعادة وحدة الصف . لذلك ذهبت جهودهم هباء ، ولم يزيدوا الشقاق إلا توسعاً والنفوس إلا ثورة وغضباً وحقداً ، حتى أصبح رتق الشقاق أبعد مطلباً وأعز منالا .

٣ — الفن

ربما كان أثر الدين المسيحى كعامل مسيطر على الحياة البيزنطية يتجلى فى

أوضح صوره فى الفن المعمارى والفن الزخرفى البيزنطيين وكلا هذين الفنين ظهر فى أبهى معانيه فى تشييد الكنائس وتزيينها .

(ا) الفن المعمارى . أما الطراز الذى استقر عليه اختيار المهندسين المعماريين فهو مزيج من الفن الكلاسيكى اليونانى ، من حيث حسن تنسيق الأجزاء واستخدام الأعمدة فى الأورقة ، ومن الفن الفارسي الذى كان يعتمد على القبة . ولعل سوريا ، وهى الولاية البيزنطية العريقة الحضارة والمتاخمة لفارس ، هى صاحبة الفضل فى خلق هذا الطراز المزدوج ، ومن ثَمّ فى تحويل عناية البنّاء من الخارج ، أى من الأبهاء وأعمدتها وزخرفتها ، إلى الداخل ، أى إلى الأروقة والقاعات ذاتها .

(ب) الفن الزخرفى . وهذا التقليد السورى هو الذى حدا بالفنان إلى استخدام فنه فى تزيين الجدران الداخلية بالصور الملونة المصنوعة من الفسيفساء اللامعة المتألقة الوهاجة الألوان . وبما أنه كان مؤمناً عميق الإيمان ، فلم يلجأ فى عمله إلى التماثيل أو صور الأبطال وقصص الآلهة وأنصاف الآلهة ، التى كاد الفن الكلاسيكى القديم لا يخرج عن نطاقها ، معتمداً فى تسجيل حوادثها على إبراز جمال الأجساد وحسن تنسيقها ، بل ذهب يفرش الحوائط ومنحنيات القباب بصور السيد المسيح والعذراء والرسل والقديسين ، وكلها صور يزينها الجلال والوقار والعظمة . وقد خطا الفنان خطوة أخرى عندما اقتبس من السوريين مذهب الفن للتثقيف الدينى ، فراح يرسم الأحداث الدينية وأشخاصها فى واقعية ساذجة ورمزية شفافة موحية مثيرة للعواطف والخيال ؛ فجاءت صوره خير إطار لما كان يجرى داخل جدران الكنيسة من طقوس جليلة ، أعادت ذكرى المسارح اليونانية الخالية ، فكانت ، على غرار مثيلاتها السالفة مدرسة رائعة ، لا تدانيها مدرسة فى السمو بالنفس فوق الأرض وصغائرها والصعود بها إلى العالم العلوى ، مع هذه القبة السامقة الشامخة التى تتطلع إلى السماء وكأنها تحاول صادقة بلوغ القبة الصافية الزرقاء .

٤ — الثقـــافة

(ا) تراث هذا العصر . لا مفر لنا من الاعتراف بأن ما وصل إلينا من التراث الأدبي والعلمي البيزنطي ، في الفترة التي تعنينا ، لا يكاد يشفي غليلا ، إذا قورن بهذا التراث العظيم الجليل ، الذي خلد الإغريق القدامى ، سواء في الشعر أو في الفلسفة أو في العلوم .

لا ننكر أن العصر الذي شاهد جستنيان (٥٢٧ هـ — ٥٦٥ م) وجستان الثاني (٥٦٥ — ٥٧٨ م) لم يكن عصراً خاملا عقيما : فقد برز فيه ، في ميدان كتابة الأخبار والتاريخ ، أجاثياس Agathias ، ومالالاس الأنطيوكي Jean Malalas d'Antioche ، ولا سيما بروكوبيوس القيصري Procope de Césarée ؛ كما اشتهر في فن المقطوعات الشعرية الساخرة المعروفة باسم Epigrammes ، أجاثيـاس المتقدم الذكر وبولس السكيت Paul le Silentiaire ؛ وفي ميدان الفلسفة ظهر بعض أنصار مذهب الأفلاطونية الحديثة ، هـذا كله واقع لا ننكره ؛ ولـكن النقاد لا يضعونه في مستوى الإنتاج الرفيع الممتاز .

(ب) المستوى الثقافي العام . ونتساءل في دهشة عن سبب هـذا التخلف في ميدان التفـكير العميق أو الإحساس المرهف أو الخيال المبدع السباق . ولا نستطيع أن نرجع ذلك إلى الحكام أو كبار الموظفين ؛ فلم يكونوا قط من المتبربرين أو من العسكريين المنحصرة ثقافتهم في دائرة الأعمال العسكرية ، كما كان ذلك شأن حكام أوروبا في هـذه الحقبة من التاريخ : إن موظفي الدولة البيزنطية كانوا في جملتهم ، على درجة عالية من العلم والثقافة . والعناية بشئون العقل ، وكل من ذكرنا آنفاً من أصحاب التراث التاريخي أو الأدبي إنما كانوا من كبار الموظفين . ولم نأت بأسمائهم جميعاً ، بطبيعة الحال ، وحسبنا أن نعلم أن دراسة القانون الروماني كانت تعتبر مادة أساسية لاغنى

عنها فى تنشئة الموظف البيزنطى ، وأن كتاب (أصول القانون) Institutes قد وضع خصيصاً ليكون بمثابة الكتاب المعتمد والمرجع لدراستهم القانونية[١١]

ولا نستطيع كذلك أن نزعم مع المتحاملين على جستنيان أن مسئولية هذا الجدب العقلى تقع على هذا الإمبراطور ، بسبب إغلاقه مدرسة أثينا : فالفلسفة الوثنية وحدها هى التى عانت من تزمت جستنيان ، فهاجر أساتذتها إلى فارس ، حيث استقبلتهم السياسة بالترحيب والتكريم . بل إن بعض المؤرخين يرون أن جستنيان إنما خدم العلوم الطبيعية والرياضية بهذا الإجراء ، فانصرف إليها كثير من الشبان الذين اجتذبتهم من قبل دراسة فلسفة اللاهوت الوثنية والسحر . . ومهما يكن من أمر . فإن مرسوم جستنيان لم يحُل دون تدريس الآداب والعلوم ، ولو أشرفت عليها هيئات غير مسيحية[١٢] .

(حـ) الحرص على التراث القديم . وأخيراً ، لا نظن أن تمسك بيزنطة بالتراث اليونانى والهيلينى القديم ، هو الذى أدّى بعقول عباقرتها إلى التقاعد عن الإنتاج الفكرى الأصيل . ولا شك أن هذا التراث القديم كان موضع عناية فائقة : فكان على الشاب بين العاشرة والثامنة عشرة ، أن يدرس الأدب القديم دراسة متعمقة ؛ ثم فى مرحلة الدراسة الجامعية ، كان لزاما عليه أن يتقن الفلسفة وأعلامها الخالدين ، أفلاطون ، وأرسطو وزينون وأبيقور . .

وأما الفضل الأكبر فى حفظ مراجع هذا التراث ، أعنى المخطوطات ، ونسخها ونشرها ، فيعود إلى الأديرة ، ومن عاش فيها من الرهبان : فلولاهم لما كانت فى أوروبا نهضة كلاسيكية ، فى القرن الخامس عشر الميلادى ، إذ أن على يدهم تعرفت إيطاليا وسائر بلدان الغرب ، على هذه الكنوز التى لا تقدر بثمن ، عند ما اضطرهم سقوط القسطنطينية ، سنة ١٤٥٣ م ، إلى الفرار إلى إيطاليا بما استطاعوا أن يحملوه معهم من هذه الآثار الخالدة .

أمام النزعة الإنسانية التى تجلت فى تشريعات جستنيان ، حيث نرى القانون يتغلب على الإدارة الفردية ، فيتدخل مثلا فى تحديد أجور المساكن أو فى خفض سعر الفائدة ، بالرغم من اتفاق الطرفين المتعاقدين ، مما يدل دلالة بالغة على هذا التغيير الجذرى الذى أصاب نظرية القانون المدنى ونظرية الحقوق الفردية(١٤) .

ولا يخفى على الباحث أن هذه التشريعات سوف تصبح الأداة الأساسية فى بناء المجتمع الأوروبى الجديد ، منذ القرن الثانى عشر ، بعد انقشاع سحب الجهل التى حملتها غزوات رجال الشمال النرمانديين ؛ لأن الدول الأوروبية الحديثة ستجد فيه حينذاك المثل الأعلى لمجتمع واضح المعالم ، متميز الحقوق ، فى شتى النواحى المدنية والأحوال الشخصية ، لكون هذه التشريعات اعتمدت على الواقع والعرف ومنطق الأشياء أكثر من اعتمادها على النظريات الفلسفية والاستقراء ومنطق العقل البحت .

شروح وتعليقات

(١) تاريخ العالم ، المجلد ٤ ، ص ٧٢١ عمود ١

(٢) تاريخ العالم ، المجلد ٤ ، ص ٧٢٤ عمود ٢

(٣) أدخل دفلدبانوس عادة السجود أمام الامبراطور ، احلالا له، وهى عادة انحدرت من الشرق وكان الاسكندر الأكبر قد قبلها ، وكذلك ، ينبغى أن نرجع الى الشرق الأثواب الرسمية الفخمة التى كان يرتديها الامبراطور ورجال البلاط فى الحفلات والاعياد ، ويرى ف • هـ • مارشال أنهـا بدأت تصبح تقليدا رسميا منذ عهد دقلديانوس•قارن تاريخ العالم ص٧٠٢ عمود ٢

(٤) حلت اليونانية كلغة رسمية ، محل اللاتينيـة فى عهد الامبراطور موريس أو موركيوس (٥٧٢ ـ ٦٠٢) ، وهو أول امبراطور يونانى الأصل

(٥) Le Moyen Age et les origines de l'Europe، ص ١٢٥

(٦) لقد بدأ تأثير الاميرات الشرقيات جليا ، أثناء حكم أسرة السفيريين فى روما ،وأشهرهن جوليا دومنا Julia Domna ، زوجة الامبراطور سـبتيموس سـفيروس Septimus Severus (١٩٣ ـ ٢١١) وأم الامبراطور كاراكلا Caracalla (٢١١ ـ ٢١٧) ، وأختهـا جوليا ميسا Julia Maesa، وابنتـا الاخيرة . جوليـا سويمياس Julia Soaemias أم الامبراطور الجبـل Elagabal (٢١٨ ـ ٢٢٢) وجوليا ماميـا Julia Mammaea أم الامبراطور الكسندر سفيروس Alexander Severus (٢٢٢ ـ ٢٣٥)

(٧) أنظر ما سبق ، ص ٢٧ و ٣١ •

(٨) تاريخ العالم ، المجلد ٤ ، ص ٧٢٣ ، عمود ٢ •

(٩) تاريخ العالم ، المجلد ٤ ، ص ٧٠٣ عمود ١

(١٠) قارن Le Moyen Age et les origines de l'Europe, ص ١٣٢

(١١) راجع ما كتبه Ch. Dawson فى كتابه :

Le Moyen Age et les origines de l'Europe، ص ١٢٩

(١٢) قارن المرجع السابق ، ص ١٣٧

(١٣) قارن « فجر الاسلام » ص ١٥٦

(١٤) Les Grands Courants de l'Histoire Universelle. T. I. ص ٤٤٧ •

(انتهى)

فهرس الأعلام

— ا —

صفحة

— ع —

— غ —

— ف —

- ن -

فهرس الخرائط

ثبت ببعض مراجع الكتاب :

١ — المراجع العربية

تاريخ الأدب العربى — تاليف أحمد حسن الزيات
القاهرة ١٩٢٨

فجر الاسلام
الجزء الأول — تأليف أحمد أمين
القاهرة ١٩٣٣

حياة محمد — تاليف محمد حسين هيكل
القاهرة ١٩٣٩

تاريخ الاسلام السياسى
الجزء الأول — تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن
القاهرة ١٩٣٥

تفسير المنار
للشيخ محمد عبده
الجزء السابع — تأليف السيد محمد رشيد رضا
(الطبعة الأولى) القاهرة ١٣٤٦ هـ

موسوعة تاريخ العالم
الجزء الأول — تاليف وليم لانجر
القاهرة ١٩٥٢

الدولة الاسلامية — تأليف محمد مصطفى زيادة وآخرين،
القاهرة ١٩٥٤

تاريخ الكنيسة الشرقية — تاليف الأب ميشيل يتيم ،
حلب ١٩٥٧

تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) — تاليف هـ • ا • ل • فشر ،
(الطبعة الثالثة) القاهرة ١٩٥٧

حياة المسيح — تاليف عباس محمود العقاد
القاهرة ١٩٥٨

التطور والتجديد فى الشعر الأموى — تأليف الدكتور شوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥٩

تاريخ العالم
المجلد الثالث : العصر الهلنستى الى الامبراطورية الرومانية
المجلد الرابع : الامبراطورية الرومانية الى العصور الوسطى — نشره : السير جون ا٠ هامرتون القاهرة

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — وضعه : محمد فؤاد عبد الباقى القاهرة ١٩٥٩

الجديد فى الأدب العربى — تأليف حنا الفاخورى (الطبعة الرابعة) بيروت ١٩٦٠

المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم — تأليف أبى منصور الجواليقى القاهرة ١٣٦١ هـ

عبقرية الامام على — تاليف عباس محمود العقاد ، القاهرة ١٩٦١

مجلة « مرآة العلوم الاجتماعية » — العدد الأول ـ ديسمبر ١٩٦١

مجلة « العربى » — العدد ٣٩ ـ فبراير ١٩٦٢

عبقرية خالد — تاليف عباس محمود العقاد ، القاهرة

٢ — المراجع الأوروبية

ALBERTINI, Eugène, *L'Empire Romain,* Peuples et Civilisations, sous la Direction de Louis Halphen, IV, Paris 1936.

AYMARD, André & AUBOYER, Jeannine, *Rome et son Empire,* Histoire Générale des Civilisations, II, Paris 1954

BLACHERE, Régis, *Introduction au Coran,* Paris 1947

BLACHERE, Régis, *Le Coran,* Paris 1949

BOUILLET, M. N., *Dictionnaire Universel d'Histoire et de Géographie,* Paris 1908

BRAUN, F. M., O.P., *Jésus, Histoire et critique,* Paris 1947

DAWSON, Christopher, *Le Moyen Age et les Origines de l'Europe,* Lib. Arthaud, 1960

DIEHL, Charles & MARCAIS, Georges, *Le Monde Oriental de 395 à 1081,* Histoire du Moyen Age, III, Paris 1936

GILSON, Etienne, *La Philosophie au Moyen Age,* Paris 1947

GROUSSET, René & LEONARD, Emile G., *Des Origines à l'Islam,* Histoire Universelle, I, Lib. Gallimard 1958

GROUSSET, René & LEONARD, Emile G., *De L'Islam à la Réforme,* Historiè Universelle, II, Lib. Gallimard 1958

GRUNDY, G.B., (Edited by), *Murray's Small Classical Atlas,* London 1925

HALPHEN, Louis, *Les Barbares,* Peuples et Civilisations, V, Paris 1936

HAZARD, Harry W., (Compiled), *Atlas of Islamic History,* Princeton 1952

LOT, Ferdinand, *La France des Origines à la Guerre de Cent Ans,* Lib. Gallimard 1941

MARION, François, *Le Mouvement de l'Histoire,* Paris 1955

MASSÉ, Henri, *L'Islam,* 3mè Edition, Paris 1940

MUSSET, Henri, *Histoire du Christianisme, spécialement en Orient, I,* Harissa (Liban) 1948

PELLAT, Charles, *Langue et Littérature Arabes,* Paris 1952

PERROY, Edouard, *Le Moyen Age,* Histoire Générale des Civilisations, III, Paris 1961

PIRENNE, Jacques, *Des Origines à l'Islam,* Les Grands Courants de l'Histoire Universelle, I, Paris 1959

PIRENNE, Jacques, *De l'Expansion Musulmane aux Traités de Westphalie,* Les Grands Courants de L'Histoire Universelle, II, Paris 1950

SCHNÜRER, Gustave, *L'Eglise et la Civilisation au Moyen Age,* Paris 1933

TOUR (de la), Imbart, *Histoire Politique, 1er Vol. (des Origines à 1515),* Histoire de la Nation Française, sous la Direction de Gabriel Hanotaux, III, Paris 1920

VETAULT, Alphonse, *Charlemagne,* Tours

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

استدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٠	١	منشعبة	مشبعة
٢٢	١٧	أأمن	آمن
٤٠	١٨	السيد ، المسيح	السيد المسيح
٥٢	٩	الغربية	الغربية
٥٥	١	النفترة	الفترة
٦٥	٢	الذى	النبى
٧٥	٦	فلح	أفلح
٧٩	١٥	بلاد	حال
١١٩	٤	البدو والرحل	البدو الرحّل
١٢١	١٤	دارسة	دراسة
١٢١	١٨	نفيدة	تفيده
١٢٢	١٢	نناقلت	تنوقلت
١٢٦	٩	قول	قبول
١٣٥	١٧	مرتهن	مرتهنا
١٣٩	١٩	انتخاب مقدم	انتخابا مقدما
١٤٧	١٠	عليٌ	عليًّا
١٥١	١	رفاعه	دفاعه
١٨١	١٣	تمهد له أسباب	تمهد له من أسباب
١٩٣	٦	الجبوش·روندا	الحبوش ، وروندا
٢٠٢	١٩	الأبل	الأيل
٢١٧	٢٢	تسرًى	تسرّى
٢١٨	١٨	أى	أن
٢٢٠	٦	الأميين	الأميون
٢٦١	٦	شبه	أشبه
٢٢٦	١٨	بالتفكير	بالتكفير
٢٢٩	٢	مرحى	أمر
٢٣٢	٦	بأدب والحجاز	بأدب الحجاز
٢٣٠	١٢	زاخرى	زاخرا
٢٣٣	١٥	الترفيـة	الترفيـه
٢٤٣	٥	ليفستية	هيلنستية

✦ « مادة التاريخ هى الانسان الخالد الباقى الذى تدأب فى بنائه ، بل وفى تجديد شبابه ، كل أمة ناهضة فى كل جيل من أجيالها . وليست مهمة المؤرخ الا محاولة لاستجلاء النفس الانسانية واستخلاص معدنها الثمين من شوائب الظروف والملابسات » . (ص ١٨٣)

✦ « ان أولئك العرب الذين خلفوا لنا هذا الشعر الذى ينضح عزة واباء ، أولئك الذين كانوا من الكرم بحيث تسابقوا فى البحث عن الضيف ، يوقدون له النيران فوق الأعلام ، يعقرون له ناقتهم عن طيب نفس اذا ما جف الضرع وقل الزاد ، يخفون الى نجدة المستغيث ويقدسون حقوق الجار ، أولئك الذين لم يتغنوا بشىء بقدر ما تغنوا بالوفاء بالعهد والعفة عند المغنم والحلم عند المقدرة ... ان أصحاب هذه المشاعر السامية والخصال الكريمة لجديرون بأن تفخر الانسانية بمآثرهم وتقتدى بمثلهم الرفيعة » . (ص ١١٨)

✦ « وانها لملحمة عجيبة تلك التى ينشدها التاريخ فى تمجيد الانسان والاشادة بما حققه من بطولات فذة ، وهو يعبر القرون الخوالى ، جامعا التراث ، مكتسبا الخبرات ، مكونا التقاليد والعادات فى شتى مجالات النشاط » . (ص ٦)

سامى اليافى

الثمن ٣٠ قرشا

مطبعة العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر
تليفون ٤٤٧٠٦